دكتور عبد اللطيف حمزة

أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء السادس

أحمد لطفى السيد
فى الجريدة

الطبعة الأولى — ١٩٥٤

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

لجنة الجامعيين لنشر العلم

إهداء

إلى فيلسوف هذه الامة ..

إلى معلم هذا الجيل والجيل الذى قبله ..

إلى أبى الجامعة المصرية ..

إلى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

أقدم كتابى هذا مع تحية الإعجاب الصادق والتقدير البالغ من ابن مخلص وتلميذ وفى ؟

عبد اللطيف حمزه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

أردت — وأنا أقدم للقراء هذا الجزء السادس من كتابى « أدب المقالة الصحفية فى مصر » — أن أبدأ ذلك بحديث جرى بين الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد وبينى ، هذه خلاصته :

فى السادس والعشرين من شهر يولية سنة ١٩٥٢ كان الجيش المصرى الباسل فى ثورته البيضاء على الملك فاروق قد تم له أهبته لمواجهة الموقف . وقبل ظهر ذلك اليوم التاريخى العظيم اجتمع باللواء محمد نجيب كل من السادة : أحمد لطفى السيد وبهى الدين بركات وحسين هيكل وأحمد خشبة وأحمد عبد الغفار وعبد السلام الشاذلى ورشوان محفوظ ومحمود محمد محمود وعلى عبد الرازق وغيرهم . وقالوا يومئذ للقائد الكبير :

لقد جئنا لنؤيدك ، فسر فى طريقك على بركة الله .

فما كان جواب القائد إلا أن قال لهم :

ما هذه الثورة التى نقوم بها إلا نتيجة عملكم وثمرة جهودكم؟ ثم تركوه وانصرفوا .

يريد القائد الكبير أن يقول لهم : إنما ثورات الأمم نهاية لتطورات خلقية واقتصادية واجتماعية وفكرية الخ .

وفى الساعة السادسة تماما من مساء ذلك اليوم تحركت الباخرة التى أقلت الملك فاروق إلى إيطاليا بعد تنازله عن العرش بإرادة الشعب .

سألت الأستاذ لطفى السيد بعد هذا الحادث بأكثر من سنة كاملة عن شعوره نحو هذه الحركة الموفقة فأجاب قائلا :

أما أنا فيكفيني أنه منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة — أى منذ الحكم الفارسى لمصر على يد قمبيز إلى اليوم — ومصر لم تحكم بأبنائها الحقيقيين كما تحكم بقية الشعوب الأخرى . غير أن من عادة الشعوب أنها تمل بسرعة كبيرة ، وأنا أرى أن الوقت الذى مضى على هذه الحركة حتى الآن ليس كافياً لكى يشعر الشعب المصرى بنتائجها الطيبة . ثم مضى الأستاذ لطفى يقول :

نعم — تقدمنا نحن المصريين بخطوات شيطان فى شتى مرافق الحياة ، ومع هذا فقد عجب الناس فى هذه الأيام كيف كان الملك فاروق يقبل الرشوة ، ويمنح بها الوظائف الكبيرة فى الدولة . وعندى أنه لا حق لهم فى هذه الدهشة . فمصر محكومة بغير أهلها منذ القدم ، ونحن حين نُسقط من تاريخها الحديث فترة الاحتلال الانجليزى البغيض نعود بها إلى عهد إسماعيل فنرى أنه كان يمد يده لأخذ الرشوة من المصريين لتعيين بعضهم مديرين أو مفتشين . ثم جاء فاروق فعمل عمل جده وعادت مصر سيرتها الأولى .

قلت : أيسمح لى الأستاذ الكبير أن أوجه اليه بعض العتب فى الانحراف الذى بدا من سلوك الملك السابق ، فإن العلماء والكتاب فى كل أمة هم الأوصياء الروحيون عليها وعلى عرش الملكية فيها .

فأجاب الأستاذ الفيلسوف :

أصبت فى هذا السؤال الذى تلقيه الآن . فاسمع ما أقول :

على أثر تولى الملك فاروق سلطته الشرعية بعد بلوغه سن الرشد جاءنى رسول من القصر الملكى يقول : إن القصر قد اتجه إلىّ لكى أكون معلماً للملك الشاب ورائداً له ، فقلت للرسول : إننى بارتياح عظيم أقبل هذه المهمة لكن بشرطين هما : أن أستقيل من جميع الوظائف الحكومية وألا أعود اليها ، وأن أكون حراً فى لقاء الملك فى الزمن الذى أختاره والموضع الذى يروقنى .

وبعد شهرين كاملين عاد إلى الرسول يقول إن السراى عدلت عن هذه

الفكرة . ومنذ يومئذ والملك الشاب فى يد شرذمة من الناس أصبح الشعب كله يعلم عنهم الشىء الكثير !

ثم ختم الأستاذ حديثه بقوله :

على أننى أميل دائماً إلى التفاؤل كما تعلم . ويقينى أننا إذا سرنا على هذا النحو فى هذا العهد فلن يمضى جيلان آخران حتى تصبح الأمة المصرية — من حيث أساليب الحكم — مساوية تماما لبقية الأمم الراقية فى أمريكا وأوروبا.

* * *

ذلك لطفى السيد ، الذى يعتبر الأب الروحى لهذه الأمة المصرية ، تعهدها بقلبه وعقله ، ووقف على خدمتها قلبه وجهده ، وكان له فى تربيتها أسلوب عرف به . غير أنه إذا ذكر ذاكر أمامه تعليم الفتاة بنوع خاص رأيت ابتسامة عريضة علت فمه ثم قال : إن أكبر ما أفخر به حقاً هو تعليم الفتاة المصرية ، فقد وصلنا إلى ذلك فى غفلة من الحكومة ومن الأمة ، ثم مضى على التحاق الفتاة المصرية بالجامعة إحدى عشرة سنة ، حتى انتبه الشعب لهذه الظاهرة ، وثارت الثائرة وانضم إلى الشعب فى ثورته كل من محمد على وعمر طوسون من أمراء البيت المالك إذ ذاك ، وسألانى فى ذلك فقلت لهما : إنكما أيها الأميران — وأنا معكما أيضاً — من رجال المدرسة القديمة ، فإذا أكرهنا أبناءنا وبناتنا على سلوكنا أغلقنا دونهم باب التقدم والترقى ، على أن هذا الذى نجازف به حادث فعلا منذ إحدى عشرة سنة !

* * *

هكذا توفرت لدىَّ الدوافع التى حفزتنى إلى الكتابة عن لطفى السيد : وأولها ما ذكرت من أنه أبو الجامعة المصرية التى أنا منها ، وآخرها رغبتى فى إتمام العمل الذى بدأته وقطعت فيه شوطاً . وهذا العمل هو التاريخ للمقالة الصحفية ، بل التاريخ للعقل المصرى والقومية المصرية .

* * *

على أنى رأيت الناس يقولون « المعاصرة حجاب » ، يعنون بذلك أن المؤرخ لايحق له أن يكتب عن عظيم من عظماء قومه فى العلم أو الأدب أو الحرب أو السياسة ممن يعيشون معه فى عصر واحد ، وذلك خشية التأثر بهم أو الخوف من سلطانهم إلى الدرجة التى تؤذى العلم وتضر بالحق وتطعن فى براءة التاريخ .

وهذا رأى له حظ من الخطأ وحظ من الصواب ، وإن كان الصواب فيه أكبر من الخطأ على كل حال . غير أن صاحب الترجمة إذا كان كلطفى السيد رجلا فرغ من أداء واجبه الوطنى على أحسن وجه ، وامتد به الأجل السعيد إلى أن أصبح يمثل فى أمته كبير أسرة يراقب عملها ، ويبارك جهودها ، ويسعد برؤية الثمرة التى عكف على غرسها وإنمائها — أقول إذا كان صاحب الترجمة رجلا كهذا الرجل - زال بذلك الخوف مما للمعاصرة من آثار سيئة ونتائج مجحفة .

وكم يكون المؤرخ سعيداً فى الحقيقة حين يكتب عن شخصية يراها بعينه ويسمعها بأذنه . ويعرفها بنفسه لحماً ودماً ، ويرجع اليها إذا أشكل عليه الأمر ، وينظر اليها دائماً نظره إلى الوثائق الحية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

الحق أن الشعور بهذه السعادة الحقيقية ليغمرنى منذ بدأت أخط السطور الأولى من هذا الكتاب ، ثم زاد فى نفسى هذا الشعور زيادة بالغة حين رأيت — وأنا رجل جامعى — أننى أؤرخ كما قلت لأبى الجامعة فى مصر ، ولقائد من قادة الحركة الفكرية فيها ولأستاذ الجيل الذى تخرجت أنا على يديه ، فماذا يبقى من السعادة بعد ذلك ؟ أى بعد أن شعرت بأنى بعملى هذا إنما أسد جزءاً يسيراً مما للجامعة علىّ من دين ، وإننى لأضرع إلى الله القدير أن يمد فى أجل معلم الجيل حتى يخرج هذا السفر الصغير إلى الوجود ، ويخرج عشرات من أمثاله كذلك ، وتقوم هذه الأسفار كلها مقام جزء بسيط من المكافأة المعنوية التى يستحقها لطفى السيد !

وأخرى شعرت بها ؛ وهى أن على أساتذة الجامعة واجباً علمياً ووطنياً، فى وقت معاً وهو تبصير الشبيبة المصرية بهذا البناء الشامخ والصرح الممرد، وهما بناء الحرية وصرح القومية المصرية ، ليعرفوا أنهما ليسا عمل اليوم ولا ثمرة أمس . ولكنهما زبدة الأحقاب التى مرت على مصر . ونتيجة الجهود المضنية التى بذلها السابقون الأولون من قادتها منذ وضع كل منهم بيده لبنة أو اثنتين، ثم ترك لمن بعده من الزعماء والقادة أن يضعوا بقية اللبنات الأخرى.

شعرت أن على أساتذة الجامعة أن يبصروا الشباب المصرى بذلك ، كما شعرت أن أولى الشباب الطامحين بهذه التبصرة هم أولئك الذين أعدوا أنفسهم لخدمة الوطن إما عن طريق السياسة ،أو طريق الصحافة ، أو طريق الإصلاح الاجتماعى ، أو طريق الإرشاد القومى ونحو ذلك .

* * *

والحق أن الصحافة الأهلية منذ نمت وتكاملت على أيدى كتابها من رجال المدرستين الثانية والثالثة فى مصر كانت صحافة «مقال» أكثر منها صحافة «خبر». ومعنى ذلك أن المقالة فى أية صورة من صورها بقيت هى اللون السائد للصحيفة الأهلية ، بل الغاية الأولى والأخيرة من إصدارها وانتشارها ، وذلك عكس ماهو حادث الآن ، فإن صحافتنا الحاضرة إنما تقوم على « الخبر » ، وإن كانت عنايتها به وبالمقال توشك إلى يومنا هذا أن تكون متعادلة ، وإذا كان لطفى السيد من كتاب هذه المدرسة الثالثة — كما ذهبنا فى هذا البحث — وكانت المقالة فى أيامه تستأثر باهتمام الصحف إلى هذا الحد ، فمعنى ذلك أن هذا الكاتب إنما كان يمثل القمة التى سمت إليها المقالة الصحفية فى أوائل القرن الذى نعيش فيه .

* * *

على أنى أحب أن يكون مفهوماً أنى قصرت عنايتى فى بحثى هذا على « لطفى السيد كاتب الجريدة » ، أما لطفى السيد بعد الجريدة فلم أتصل به إلا لماماً ، وفى أوقات قليلة نادرة ، وأنا أعرف أنه كان لهذا الرجل جهود

مشكورة فى نواح كثيرة : فى السياسة تارة ، والعلم والفلسفة تارة ، والصحافة نفسها فى نهاية الأمر . بل كانت له مشاركة كبيرة فى توجيه الأمة المصرية فى ظروف شتى ، منذ كان وزيراً فى وزارات محمد محمود وحسين سرى وغيرهما إلا أن هذه الجهود الكثيرة المنوعة من جانب الأستاذ لطفى السيد لم تكن داخلة فى نطاق بحثى . ولا كان تصويرها أو نقدها من وكدى . فتركت كل ذلك لغيرى من الباحثين والمؤلفين بعدى . فلعلهم يوفونه مايستحق من البحث إن شاء الله .

* * *

(وبعد) فقد كان لكل كاتب حر ظهر فى مصر مريد يعجب بآثاره ، ويعنى بجمع مقالاته ! فكان لأديب اسحق أخوه عونى ، وكان للسيد عبد الله النديم صديقه أحمد سمير ، وكان للشيخ محمد عبده تلميذه رشيد رضا . وقيض الله لكل من على يوسف ومصطفى كامل من جمع لهما بعض آثارهما . أما لطفى السيد فقد قام له بهذا الواجب الأستاذ الأديب اسماعيل مظهر ، وقد رجع إلى «الجريدة» فوقع منها على كنوز عظيمة جمعها فى كتب ثلاثة وهى : كتاب المنتخبات ، وكتاب التأملات ، وكتاب بعنوان صفحات مطوية . وإنى لأشكره ، إذ أفادنى فائدة ليس إلى إنكارها من سبيل ووفرت علىّ من الزمن والجهد شيئاً غير قليل والله ولى التوفيق ؟

مصر الجديدة فى فبراير ١٩٥٤ — عبد اللطيف حمزة

المدخل

وبه ثلاث مقدمات

المقدمة الأولى

الجامعة المصرية والجامعة الاسلامية

تقاس أقدار الرجال فى كل أمة من الأمم بمقدار ما يستطيعون تحويلها من طور إلى طور ، ومن عقيدة إلى عقيدة ، ومن حالة أدبية أو مادية إلى حالة أخرى .

والأستاذ لطفى السيد من أولئك الرجال القايلين الذين انتقلوا بمصر من طور إلى آخر ، ومن حالة إلى أخرى ، وذلك فى ميدان السياسة ، وميدان الفكر ، وميدان الاجتماع . فمن حقه على مصر أن تعرف له بلاءه الحق فى كل ميدان من هذه الثلاثة على حدة .

أما فى الميدان السياسى فقد جاء لطفى السيد بفكرة « الجامعة المصرية » لتحل محل فكرة أخرى؛ هى فكرة الجامعة العثمانية أو الاسلامية Panslamism التى عاشت مصر لها ، ورأت فيها عزها ومجدها؛ بل عز الاسلام ومجده كذلك .

أجل ، بقيت مصر عثمانية النزعة طيلة القرن التاسع عشر ، وسنوات قليلة من حياة القرن العشرين وكان الدعاة لهذه الفكرة كثيرين ، فمن الشعراء الذين دعوا إليها الشيخ على أبو النصر ، وعبد الله فكرى ، ثم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم ، واسماعيل صبرى ، وأحمد نسيم وغيرهم .

ومن الكتاب والصحفيين والمؤرخين أديب اسحق ، وعبد الله النديم وابراهيم المويلحى ، السيد توفيق البكرى ؛ والسيد على يوسف وسليم تقلا وولى الدين يكن ورشيد رضا وجورجى زيدان وغيرهم . والذى لاريب فيه أن زعيم هذه الدعوة هو السيد جمال الدين الأفغانى الذى قال عنه جورجى زيدان فى كتابه « أشهر مشاهير الشرق » : إن الغرض الذى كان يصوب نحوه أعماله

والمحور الذى كانت تدور عليه آمال له توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين فى صورة دولة إسلامية فى ظل الخلافة العظمى [١].

وبقيت هذه الفكرة آخذة بمجامع القلوب ، مالئة فراغ العقول سواء فى ذلك المصريون وغير المصريين من أبناء الأقطار العربية الإسلامية ، ونذكر من غير المصريين على سبيل المثال :

فرح أنطون — وقد أصدر فى الاسكندرية فى عام ١٨٩٧ مجلة بعنوان « الجامعة العثمانية » ، وفارس الشدياق ، والشيخ ناصيف اليازجى وعبد الحميد الرافعى [٢] الخ .

ثم كان من آخر الدعاة لها فى مصر زعيمها الشاب «مصطفى كامل». غير أنه من الحق أن يقال هنا إن النزعة العثمانية كانت تسير جنبا إلى جنب فى كل خطة من خطط هذا الزعيم مع النزعة المصرية ، بل أدنى من ذلك إلى الحق أن يقال إن مصطفى كامل كان يقدم النزعة القومية على النزعة العثمانية ، أو بعبارة أخرى ، كان يرى فى هذه الأخيرة سبباً من أسباب قوة الأولى .

والذى لاشك فيه أيضاً أن حياة هذا الزعيم الشاب — مصطفى كامل — مكافحاً فى الميدان السياسى وإن كانت مع الأسف حياة قصيرة المدى — إلا انها فى الحقيقة لم تكن إلا تجارب سياسية قاسية تعرض فيها الزعيم الشاب للخطأ والصواب ، وكان فيها ذلك الشاب لايتوخى غير مصلحة مصر ، ولا يتقد حماسة وغيرة إلا عليها وحدها قبل أى شىء آخر .

فلقد كان مصطفى كامل على خطأ حين اعتمد على فرنسا ، ثم أصبح على صواب حين نفض يده منها ، وكان مصطفى كامل على خطأ حين اعتمد على عباس حلمى الثانى فى بقاء الحركة الوطنية ، ثم أصبح على صواب حين أعفى عباساً من أعباء هذه الحركة . ولكن مصطفى كامل لم يكن على هذه الدرجة من الخطأ

---

(١) أشهر مشاهير الشرق جزء ٢ ص ٦١

(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الجديد : لأنيس المقدسى ص ٢٠

حين اعتمد على تركيا : لأن وجهة نظره إذ ذاك كانت لها وجاهتها . وكان لها حظها من سلامة النية ، وصدق الطوية، وتوخى المصلحة القومية آخر الأمر.

ولو امتد الأجل بمصطفى كامل لعدل عن خطته مع تركيا كما عدل عن خطته مع فرنسا ، وكما عدل عن خطته مع عباس . ذلك أن أحداً لا يرتاب فى وطنية مصطفى كامل : ولا محل للشك فى غيرته على الحركة الوطنية ، وهو الذى بعثها ، وعلى الوعى القومى ، وهو من بناة دعائمه : وعلى الأمانى المصرية وكان أكثر الناس تدفقاً فى التعبير عنها وحرصاً على رؤيتها حقيقة واقعة .

مهما يكن من شيء فقد انتفع من هـــذه التجارب السياسية التى مارسها مصطفى كامل أكثر من جاء بعده من قادة الرأى فى مصر ، وكان أولهم وأعظمهم وأقدرهم على التعبير عنها صاحب هذه الترجمة، فقد جاء يبشر برأى جديد اقتنع به الشعب المصرى فى ذلك الحين وهو هذا الرأى الذى سنشرحه فى هذه المقدمة.

وهنا يجب أن نقول أن لطفى السيد بهـذا الاتجاه الجديد يعتبر البطل الحقيق لمـا يسمى فى التاريخ الحديث « بالقومية المصرية » وإن سبقه أبطال كثيرون أشدنا بهم ، ووصفنا عملهم ، وكان آخرهم — كما قلنا — صاحب اللواء (١) ورئيس الحزب الوطنى .

فكر الأستاذ لطفى السيد طويلا فى أوضاع مصر السياسية . وخرج من تفكيره هذا بعقيدة جديدة تخالف عقيدة الشاب مصطفى كامل وخلاصتها :

أن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانكلترا والدولة العلية ولا نعير سياسة الخلاف ولا سياسة الوفاق أية أهمية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور وحقنا فى الحرية .

«لابد لنا من ذلك، ومن عزة تربأ بنا أن نطاب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى — كأننا — كما ظنوا خطأ بنا نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام» (٢) .

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر : الجزء الخامس ، ص ٢٩ — ٣٧

(٢) الجريدة ، عدد ١٦٦٨ بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩١٢

وقد اتجه صاحب الجريدة يومئذ هذا الاتجاه لأمور منها :

أولا : أن خطأ كبيراً وقع فيه اللورد كرومر ، وهو محاولته الذاتية لجعل الجنسية المصرية جنسية دولية . وقد روج لفكرته هذه بين صفوة المصريين . وكاد ينجح فى تنفيذها بينهم ، لولا أن الحركة الوطنية والنزعة القومية كانتا قد بلغتا أوجهما ، وجاء لطفى السيد فاتخذ من هذه المحاولة الطائشة من جانب اللورد كرومر سبباً من أسباب الدعوة الى الجامعة المصرية، وعاملا من عوامل بلوغها الحد الذى حكم على فكرة اللورد كرومر بالموت .

ثانياً : أن فرنسا منذ دخلت مراكش وانكلترا منذ احتلت مصر وايطاليا منذ أغارت على طرابلس حملت ألمانيا على الظهور على مسرح السياسة الشرقية تطالب بالعوض الاستعمارى لتمحو عن شرفها عار الرضى والسكوت أمام الجشع الأوربى .

ومنذ ذلك الوقت تنبه قادة الرأى فى مصر إلى تلك الخطط الاستعمارية التى أريد تنفيذها فى الشرق ، فشجع ذلك احمد لطفى السيد على الأخذ بناصر القومية المصرية ، والترويج لفكرة اعتماد المصريين على أنفسهم فى سبيل الظفر بالحرية ، ثم إن هذه الفكرة قد صادفت هوى من نفوس الانجليز الذين كان يعنيهم انفصال المصريين عن تركيا كيما يتاح لهم فرصة السيطرة النهائية على مصر ، حتى حمل ذلك إلى الظن بأن فكرة الجامعة المصرية كفكرة إلغاء الامتيازات الأجنبية ،كلتاهما من وحى الانجليز لمصلحتهم الذاتية فى مصر ، وهى المصلحة التى تحقق لهم جزء كبير منها بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ [١] .

ثالثا : إن حادثا بسيطا عجل بالتفكير على هذا النحو الجديد ودعا صاحب الترجمة إلى الأخذ بهذه الفكرة الجديدة .

ويتلخص هذا الحادث فى أن بعض المصريين اشتغلوا بتأليف جمعيات

---

(١) راجع الجزء الرابع من (أدب المقالة الصحفية فى مصر) للمؤلف ص ٦١

اكتتاب لإعانة البحرية العثمانيـــة وإنشاء أسطول جديد لها . فثارت ثائرة الجريدة وعلق صاحبها على ذلك بقوله فى مقال له بعنوان

عليكم أنفسكم (١)

جاء فيه :

« . . . . أما قيمة المساعدة فإنها يستحيل أن تزيد على آلاف من الجنيهات لاتنفع البحرية العثمانية فى شىء ، ولكنها تنفع الاقليم الذى تجمع منه فى بناء مدرسة أو ملجأ أو تأسيس معمل زراعى كيمائى لتخفيف مصائب الزراعة المصرية . . . وأما مصدر هـذا الإحساس فى نفوس المصريين — إن كان الغرض منه الدفاع عن الأمة العثمانية وتقويتها فإن تقوية مصر والدفاع عنها أوجب على المصريين من كل واجب غيره ، وإن كان الغرض منـــه إيلام الانكليز ، فأن الذى يؤلمهم ليس هذا . بل الذى يؤلمهم حقيقة — إذا كانوا يرمون فى سياستهم إلى استعمار بلادنا على الرغم من وعودهم — هو قيام مثل هذه الجمعيات لنشر المعارف ونشر الأخبار الصحيحة فى الأمة .

وإن من غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصرى فى شخصية العثمانى . لأن هـذا الرأى مع بعده عن الصواب لا يتفق مطلقاً مع مصلحة مصر . ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر إقليما ممتازاً مستقلا كالبلقان مثلا .

... وبدلا من أن نطوح بشعور الأمة وتذهب به كل مذهب ، وبدلا من أن تكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها — بدلا من ذلك كله يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيدة الاستقلال ...

فتى نصرف عنايتنا كلها إلى بلدنا ؟ ومتى نقتنع أننا مصريون قبل كل شىء ؟ »

منذ يومئذ ولطفى السيد يشرح للمصريين معنى «القومية المصرية» ويوضح لهم قيمة هذه الفكرة ، ويبين لهم واجب الوطنى نحو وطنه .

(١) الجريدة عدد (٧٦) بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

ومن ذلك أيضاً ما كتبه بعنوان :

غرض الأمة هو الاستقلال [١]

وقد جاء فيه :

« إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية» (تريد الوطن المصرى) والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه، والانكليزى على قوميته — لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى « بالجامعة الاسلامية» تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم .

«أما لو كان معنى الجامعة قاصراً على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء فذلك حسن مفهوم ، بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا قاصرها على أحد الطرفين دون الآخر ، أعنى أن يكون أحدهما خادماً دائماً ويكون الثانى مخدوما دائما .

« ويجب ألا نقع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت ، إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ، ومرة أن الدولة العلية ستقوى ، ويحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانكليز من بلادنا . ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا أحراراً نتصرف كما نشاء .

« إن من الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال الخ » .

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر [٢] :

« فى العصر الذى ارتمت فيه السياسة المصرية فى أحضان فرنسا وتركيا تستنجد الأولى وتستعديها على انجلترة مستغلة ما بينهما من حزازات ومنافسة وتتعلق بخيط العنكبوت من علاقتنا بالعثمانيين مستغلين سيادتهم الاسمية على

(١) الجريدة ، عدد ١٦١٧ بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩١٢

(٢) التأملات ، ص ٤

مصر . نادى لطفى السيد بالاستقلال محققاً بذلك الفكرة الوطنية الصحيحة التى قامت عليها الحركة العرابية . وإنى لأذكر أن أستاذنا ذكر فى مقال له أن مصر تطلب الاستقلال التام ، فاستعدى عليه السيد على يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الاصلاح — وهو إذ ذاك حزب السراى — النيابة لتجره إلى موقف الاتهام ، ذلك بأن الاستقلال التام فى ذلك العصر كان جريمة تستحق الجزاء » !

* * *

وأما مزاعم كرومر فيما يتصل بدولية الجنسية المصرية فقد دحضها الأستاذ لطفى السيد بمقالات أخرى منها مقال له بعنوان :

الاضطراب فى الرأى العام [1]

رد فيه على الآخذين من المصريين بفكرة اللورد فقال :

«ولكن كثيراً منهم لا يقيم وزناً للقومية المصرية فى تربية الشعور المصرى يقول إن مصر ليست وطناً للمصريين فقط . بل هى وطن لكل مسلم يحل فى أرضها ، سواء أكان عثمانياً أم فرنسياً أم انكليزياً أم صينياً أم يابانياً . وعلى ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية منعدمة . ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الاستقلال ؟ وأدنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الأرض محدود بحدود جغرافية معينة ، إلا أن تقولوا معى إن صاحب هذا الرأى يريد الغرض ولا يريد المقدمة ، يطلب الاستقلال ويهيىء شعور الأمة إلى نقيضه . أو ليس هذا المذهب يجر حتما إلى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال ؟ أو أن استقلال المصريين بمصر معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الأرضية ؟»

بهذه المقالات وأمثالها نجح لطفى السيد فى تكوين رأى عام فى مصر يؤمن

(١) الجريدة ، عدد ١٦٦٦ بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٩١٢

بفكرة « الجامعة المصرية » ، ويرى فيها السبيل الوحيـــد للظفر بالأماني الدستورية للأمة المصرية .

وبهذه المقالات وأشباهها استطاع لطفي السـيد أن يفهم الشبيبة معنى القومية ، وأن يكشف لهم عن مرامى السلطة الإنجليزية الحقيقية ، وأن يرسم لهم طريق الاستقلال الصحيح ويوضح لهم بجلاء أن المرحلة الأولى من مراحل هذا الطريق هى مرحلة التربية والتعليم ، وهما السبيل إلى الإيمان السليم بالفكرة القائلة بأن « مصر للمصريين » . وبذلك عرف المصريون بلادهم ، وحددوا هدفهم ، وكافحوا عن بصيرة وعقيـــدة فى سبيل الظفر بهذه الأهداف[1] .

* * *

على أن هـذه النزعة الجديدة التى دعت إليها الجريدة تركت فى العقل المصرى أثراً غير الآثار التى أشرنا إليها . ذلك أن كثيراً من المصريين أخذوا منذ ذلك الحين يفخرون بفرعونيتهم فخرهم بعربيتهم . بل حدث فى بعض الأحيان أن زادت النعرة الأولى فى نفوسهم على الثانية . ولقد شجعهم على ذلك ما بلغه علم الآثار المصرية القديمة من الدرجة الكبيرة التى عرف بها العالم المتمدن حضارة الفراعنة .

ومن ذلك ما كتبه لطفي السيد بعنوان :

الآثار القديمة[2]

جاء فيه :

« من المحقق أن المصرى تأخذه هزة الارتياح ، ويلعب به شعور العزة

---

(١) للباحث أن يرجع فى هذا المعنى إلى مقالات لطفي السيد التى نشرها بالجريدة فى الأعداد ٤٥٤ — ٧٦٠ — ١٥٦٣ — ١٥٧٥ — ١٦٦٥ — ١٦٦٦ — ١٦٦٧ — ١٦٦٨ — ١٦٦٩ — وغيرها .

(٢) الجريدة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩١٢ — والتأملات ص ١٣ .

أمام عظمة المصريين القدماء . ويكون حظه من شعور الفخر اكثر من ذلك لو أنه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على حيطان المعابد والمحاريب وواجهات القبور وقارىء ترجمة تلك النقوش فى أشعار المسيو ماسبيرو وماريت ونافيل ، ومحاضرات كمال بك إذ يعلم ان مصر كانت من العزة فى ذلك الزمن الغابر على قدر أن الملك يصل إليه سفراء الممالك الأخرى راكعين ساجدين يرغمون أنوفهم بالتراب ، ويجأرون له بالدعاء ، يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته .

وأن المصريين لم يكونوا ـ على مايصفهم الأجانب ـ مخلدين إلى السكينة ، كارهين السياحة والتنقل ، قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد . بل كانوا أمة جد واستعمار ، تجرى فى استعمارها على أحدث الطرق الأوربية الآن . إذ يخرج المرسلون إلى الأقطار المختلفة فى أفريقيا ، يجوسون خلالها حاملين إلى أهله العطر ذا الرائحة النفاذة ، والأقمشة الزاهية الألوان ، وغير ذلك مما يحمله الأوربيون فى هذا العصر إلى سكان تلك الأقطار الشاسعة فى إفريقية. ولم تكن أغراض المصريين من فن السياحة قاصرة على الربح التجارى ، بل كان أولئك السياح يكسبون بلادهم نفس الفوائد التى جلبتها انجلترة من وراء الشركة التجارية الانجليزية فى بلاد الهند قبل فتحها ، وسياحات سسيل رود ، وما كسبته فرنسا من بعثاتها فى الكونغو والسودان . إذ كان السياح المصريون يدعون لاستماع أخبار مصر والمصريين ودينهم ولغتهم ، ويبثون عظمة ملكهم وثروة بلادهم حتى يصوروا مصر فى أذهان القبائل بصورة القوية الظاهرة ، التى لا يعجزها تحقيق شىء مما تريده . فإذا رجع أولئك المرسلون إلى مصر وصفوا تلك البلاد ، وأفاضوا للحكومة بكل ماوصلوا إليه من المعلومات ، فتسير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين أمراً هيناً .

ولقد كان المصريون أسمح الأمم فى استعمارهم ، لأنهم كانوا يسيرون فيه

على مذهب اللامركزية ، يحفظون على الأمة المغلوبة دينها وعادتها وشكل حكومتها ، ويتركونها حرة فى بلادها مقابل الاعتراف بالسيادة المصرية.

ولا شك أن علم المصرى بهذه الحقائق المسطورة فى نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر ويجعل آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعى للاستقلال والسيادة من السخافة بمكان » .

بهذه الطرق وأمثالها راح الكاتب يحرك فى نفوس قرائه من المصريين شعوراً كاملا بالشخصية المصرية ، كما راح يغذى فيهم هذا الشعور الكامل بالقومية ، ويصله بتلك القرون العتيقة فى ضمير التاريخ . وفى ذلك يقول : « فنحن فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ، ونحن مماليك مصر وأتراكها ، نحن المصريون دائماً . فما نحن تحت حكم العائلة الخديوية إلا نحن تحت حكم العائلة الفرعونية ، أو تحت حكم من قبلها أيضاً بشيء من التطور الزمنى قضى به التغير العالمى المستمر حافظين لكثير مما ورثناه من آبائنا الأقربين والأبعدين. كل هذه المشخصات القومية — المادية والمعنوية ، الوراثية والكسبية — من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها فى أكثر الأمم . وأنها لكذلك لولا ما يراه النزر اليسير من حب الانتساب الى العرب دون الفراعنة، أو الفراعنة دون العرب ، أو الترك دون الشراكسة ، أو الشراكس دون العرب، من غير أن يعرفوا أن العوامل الموضعية — عوامل الأقليم والقرابة والنسب — هى أم هؤلاء المصريين على السواء ؛ الأبيض منهم والقمحى ، والأشقر والأسمر . كل أولئك أبناء مصر ، منافعها فى جيوبهم ، وهمومها على مناكبهم ، لأنهم جميعاً هم المصريون[1] » .

---

(١) الجريدة فى ٢ يناير سنة ١٩١٣ — والتأملات ص ٦١ — ٦٢

ثم قال فى موضع آخر :

« كذلك نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقاً أن ننتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية أو شركسية أو سورية أو رومية . . . . ومصر بلد طيب ولد التمدن مرتين . وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى . . . الخ[1] .

وأخيراً انظر إلى الكاتب الفيلسوف كيف يفلسف الرأى القائل بالجامعة الاسلامية ويجرى فى تعليله على نسق عقلى وتاريخى حيث يقول :

« كان من السلف من يقول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية ينفع التحدى بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ، ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويحب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة ، ليصل بذلك إلى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة ، حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع إلى الاستقلال بسيادتها على نفسها .

أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لاستعمار الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار . ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تمحى جنسيتها ، ويفنى وجودها فإن أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال .

أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء ، لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها

---

(١) الجريدة فى ٩ يناير سنة ١٩١٣ — التأملات ص ٦٦

وطن محدود . وذلك المذهب هو مذهب الوطنية . . .

لا يفهم مما أقول أننا ندعو إلى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين بل على الضد من ذلك — ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل . ندعو للذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر ألا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب إلى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر ، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالباً خارج حدودها إلى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها ولفظتهم من أرضها . ندعوهم أنهم ما داموا مصريين أن يقطعوا ميولهم عما عدا مصر . لأن الوطنية — وهى حب الوطن — لا تقبل الشرك ، ولأن الرقى المصرى محتاج لعقولهم الراجحة وسواعدهم القوية . . . الخ[1] » .

(٢) الجريدة فى ١٦ يناير سنة ١٩١٣ — التأملات ص٦٨ — ٧٠

مذهب الحريين

Liberalism

... وهذه أخرى من جولات للأستاذ لطفى السيد لا تقل أهمية عن الأولى وهى جولته فى ميدان « الحرية ».

وبهذه الجولة كتب الرجل أقيم فصل يمكن أن يقرأه مؤرخو الصحافة المصرية إلى يومنا هذا . وبهذا الفصل ينظر التاريخ الحديث إلى لطفى السيد على أنه خير من علم الشعب المصرى معانى الحرية ، كما ينظر إلى صحيفته كذلك على أنها المدرسة التى تلقى فيها الجيل الماضى دروساً عظيمة الفائدة فى هذا الباب .

ومن مجموع هذه الدروس التى سنشير إلى شىء منها استقام للطفى السيد مذهب أطلق عليه اسم « مذهب الحريين » Liberalism نسبة إلى (الحرية) . ومن معانيها هنا التسامح ، واطمأن الكاتب إلى هذه التسمية مؤثراً لها على غيرها من التسميات الأخرى ، كقولنا مثلا « أنصار الحرية » و « مذهب الأحرار » ونحو ذلك ...

« ومذهب الحريين يقضى فى أصله بألا يسمح للمجموع فى البلاد الحرة ، أو للحكومة فى بلاد مصر خاصة أن تضحى بحرية الأفراد لحرية المجموع ، أو الحكومة فى التصرف فى الشئون العامة . وهذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بألا يكون للحكومة سلطان إلا على ما ولتها الضرورة إياه ، وهو ثلاث ولايات :

ولاية البوليس ، وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن .

« وأما فيما عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة . إذ الحكومة بأصل نظامها — مهما كان شكلها ليس لوجودها علة إلا

الضرورة . فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة ، ولا يتعداها إلى غيرها من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم . لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها إنما تأخذه من حقوق الأفراد . وكل سلطة تسندها إلى نفسها إنما تضغط بها على حرية الأفراد[1] » .

ولقد كان الهدف الأول من أهداف هذا المذهب هو ترويض الأمة المصرية على عادة الاعتماد على نفسها ، وذلك بدلا من الاعتماد على الحكومة فى كل أمر من أمورها . بعد أن « دلتنا المشاهدات العامة على أن الحكم الماضى قد جعلنا عيالا على الحكومة . . . حتى فى حماية الفضائل الشخصية . نطلب منها كل شىء ولا نطلب من أنفسنا شيئاً[2] » .

ومن ثم دعا الكاتب أمته وحكومته إلى تشجيع الرأى القائل بإنشاء بنك مصر ، وإلى الرأى القائل بإنشاء النقابات الزراعية . وهى الحجر الأول فى النظام الاقتصادى المصرى ، وهما فى الوقت نفسه من أفضل أنواع التربية الاقتصادية . حتى تم للمصريين بالفعل الظفر بهما .

استقام لصاحب الجريدة هذا المذهب ، ثم طفق يدعو إليه ويبشر به ، ويوجه الحديث فيه إلى فئة بعينها من فئات الأمة هم نوابها فى الجمعية التشريعية . وما دامت مصر حديثة عهد إلى ذلك الوقت بالنظام النيابى فعلى قادة الرأى فيها أن يتولوا بأنفسهم إرشاد نوابها وولاة الأمر فيها إلى الأفكار المفيدة التى يحتاجون اليها فى العهد الجديد . ولا شك أن من أخلقها بالتعليم والتلقى فكرة الحرية التى لا يفهمها المصريون حق الفهم لطول الزمن الذى خضعوا فيه للحكومات المستبدة .

وكم كان لطفى السيد لبقاً فى هذه الدروس التى ألقاها على نواب الأمة ، وكم كانت دروسه ملمة بأطراف هذه الفكرة ، وكم كان دقيقاً فى التعبير عنها ،

(١) الجريدة — عدد ٢٠٥٨ بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ ، والمنتخبات جزء ثان ص ٦٥

(٢) الجريدة — فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ ، والتأملات صفحات ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ .

بحيث لايفهم من معنى الحرية أنها الفوضى . بل يفهم منها أنها القيد النافع للأفراد والجماعات والحكومة .

انظر اليه حيث يقول :

« تدور أفكار الناس وأعمالهم على أصل واحد هو المنفعة . . . ومنفعة الناس دائرة مع مذهب الحرية وجوداً وعدما . ومذهب الحرية يحمى الحكومة الاستبدادية من شر نفسها وسوء نتائج استبدادها . ومذهب الحرية يكفل الانتفاع لكل فرد فى الأمة . ومذهب الحرية مذهب مؤلف من طبائع الإنسان . فهو أحسن ضمان للحكومة وللأمة فى وقت واحد . أما المذاهب الأخرى فالاعتماد فيها على القوة والإكراه . وهيهات أن يحب المرء الحكومة « بالنبوت »[١] .

ولم يغب عن ذهن الكاتب أثناء شرحه لمذهب الحرية أنها تختلف باختلاف الأوطان . فهى فى مصر غيرها فى انكلترة وغيرها فى فرنسا وغيرها فى أمريكا ولذا يقول :

« ولسنا من فرط الادعاء بحيث نطلب تقليد انجلترة دفعة واحدة من غير أن يكون لنا مالها فى تاريخ الحرية »[٢] .

ومن ثم لم يعجب من أن النواب المصريين فى الجمعية التشريعية قرروا يوماً ما أن مصر لاتستحق الحرية الشخصية التى أنعم الله بها على جميع مخلوقاته . ثم عادوا فندموا على هذا القرار أشد الندم ، وعرفوا أنهم كانوا يخشون فيه بطش كرومر ولايخشون فيه سخط الأمة التى هم منها .

وقد رثى الكاتب للنواب المصريين فى خشيتهم بطش كرومر والحكومة المصرية ، وشعر فى أعماق نفسه أن عليه واجباً وطنياً هاماً ، هو إرشادهم وتوجيههم إلى الأفكار الصحيحة ، وقدر فى نفسه أيضاً حالة المصريين من حيث كونهم حديثى عهد بهذه النعمة ، فعاد يقول :

---

(١) الجريدة — العدد ٢٠٦٨ بتاريخ ١٩١٣/١٢/٣١ ، والمنتخبات جزء ثان ص ٩١

(٢) الجريدة — عدد ٢٠٦٩ بتاريخ أول يناير سنة ١٩٠٤

« ونحن لانستطيع أن نطلب اليوم أن تكون حدود الحرية عندنا هي حدودها في أمريكا وانكلترة وفرنسا ، ولو أردنا ذلك لما أردنا شططاً. ولكن إن لم نستطع ما نريد فلنرد ما نستطيع »[1] .

ثم وجه الحديث للحكومة التي وافقت على القرار الذي سبق ذكره بدعوى أنها حكومة أبوية قائلا لها :

« إن الحكومة الأبوية معناها حكومة الخمول لأنها تسهل للفرد أن ينام على فراش الكسل ويتركها تعمل ما تريد »[2] .

* * *

ولكن ماهي أنواع الحريات التي دعا اليها لطفي السيد؟ وكيف السبيل اليها؟

كتب الرجل اثنتي عشرة مقالة حول معنى الحرية ، والحرية ومذاهب الحكم ، والحرية والأحزاب ، والحرية وحقوق الكافة وسلطة التشريع ، ثم حرية التعليم ، وحرية القضاء ، وحرية الصحافة ، وحرية الخطابة ، وحرية الاجتماع ، وفي أن مذهب الحرية مفيد للأفراد والأمة .. الخ[3] .

علق الكاتب في هذه المقالات على نتيجة انتخابات الجمعية التشريعية، برغم أنها جمعية استشارية . ثم أحس أن الذين نجحوا في تلك الانتخابات كان بعضهم من المدرسة القديمة وبعضهم من المدرسة الحديثة ، وأن عليه أن يرسم لهم طريقة يجرون عليها في توجيه الحكومة . وأساس هذه الطريقة عنده هو الحرية :

« لأنها مناط التكاليف وقاعدة الفضيلة. وحريتنا في مصر ناقصة بالقانون وناقصة بالعمل . ناقصة بالقانون بما تصدره الحكومة من تشريع كقانون المطبوعات وغيره ، وناقصة بالعمل لأنه لم يبق للمصري في بلاده غير الحرية

---

(١) نفس العدد المتقدم .

(٢) الجريدة — عدد ٢٦٠٩

(٣) الجريدة — الأعداد : ٢٠٥٦ — ٥٧ — ٥٨ — ٥٩ — ٦١ — ٦٢ — ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٨ — ٦٩ . والمنتخبات جـ ٢ ص ٥٧ — ٩٥ .

الحيوانية الصرفة» . فعلى النواب المصريين أن يظفروا لمواطنيهم بهذه النعمة . «فإنه لن يصيبنا من إصلاح الأطيان وإقامة الجسور وحفر المصارف — لن يصيبنا من ذلك خير بقدر ما يصيبنا من ضرر الضغط على الحرية » .

ثم طفق الكاتب يعلم النواب المصريين كيف يكون لكل واحد منهم رأيه الذى يعبر عن سياسة الحزب الذى ينتمى اليه ؛ ولو كان مخالفا لرأيه الخاص ، فتلك هى الحياة النيابية الصحيحة . وراح الكاتب بعد هذا يفصل القول فى أنواع الحريات على النحو الآتى :

أما حرية «التعليم» فيجب أن تكون فى كل دولة تابعة لسياستها «فالأستاذ التركى يضع همه فى تكوين إنسان يألف الظلم يقع منه على غيره . ويرضاه إن وقع من غيره عليه . أما الأستاذ الفرنساوى فهمه أن يصور تلميذه على صورته ينفر غالباً من الملوكية ويرى الجمهورية واسطة السعادة القومية . وقد يعلمه الأستاذ أن يكره المانيا أيضا ... ويقول كرومر وكيرزون وغيرهما أن الشرق لا يصح أن يتوسع فى تعليمه إلى غايات التعليم الأوربى . بل لا بد من الوقوف به عند حد معين .

... لهذه الاعتبارات نقترح أن تنزل الحكومة عن التعليم إلى الأمة ، وتشجع الجامعة المصرية . . . وذلك لأن التعليم الحر أنفع من التعليم الحكومى . . . الخ » .

وأما «حرية القضاء» فقد لفت الكاتب نظر النواب إلى مبدأ فصل السلطات وقال إن السلطة القضائية لم تفصل بعد السلطات الأخرى . فالقضاة تابعون للحكومة . ولا يوجد قاض زاهد فى الترقية أو الشهرة أو زيادة الراتب الشهرى . والنظام القضائى فى أمريكا أحسن النظم لأن القاضى ينتخب من قبل الأمة . وفى مصر نظام شديد الخطورة على القضاء ، وهو أن الوزراء كثيراً ما يختارون من القضاة أو من الموظفين على العموم . وهذا النظام الذى يفسح مجال الأطماع أمام القاضى من شأنه أن يأكل من حريته واستقلاله ... الخ .

ثم فى كلام الكاتب عن « حرية الصحافة » ذهب إلى أن الصحافة حسنة من حسنات المدنية الحديثة ، وأنها أشملها نفعاً ، وأفعلها أثراً فى رقى الأمم . وهى الآلة الوحيدة التى تمكن النـاس من الموازنة بين ماضيهم وحاضرهم . والرأى العـام مستحيل الوجود بغير الصحافة . والصحافة أقوى حكومة ؛ لأنها حكومة تسوق الناس لابعصا الحاكم ولـكن بقوة الاعتقاد . والصحافة إنما تستمد قوتها من استعداد الشعب ولاخطر من حريتها إذا كان الشعب غير مستعد للنهوض معها إلى حيث تريد . وإذا كانت الحـكومة عَـرَضاً من أعراض الأمة — وهى حكومة القوة والجبروت — فإن الصحافة — وهى حكومة الاعتقاد — عرض أشد ارتباطا بالأمة . وليس فى استطاعة الأعراض أن تغير عناصر الجواهر التى تقوم بها . فالصحافة — وهى المرآة الصادقة — إنما تطلع الناس بعضهم على آراء بعض ، وتقرب مسافة الخلف بين المختلفين فى التربية فى الشعب الواحد . وتلك وظيفة بريئة لاخطر منها . والصحـافة هى الحرية الشخصية تطورت حتى صارت نظاماً اجتماعياً ضرورياً للجمعيات الحديثة . . . الخ .

وفى « حرية الخطابة » أو الكلام قال الكاتب أنها ألزم للفرد من حرية الـكتابة . وما هى للمجموع بأقل لزوماً من حرية الصحافة . وليس كل انسان كاتباً بالفعل . ولا كل موضوع محلا للـكتابة ، ولا كل ظرف موافقا لها . . فمن منع انسانا حرية القول فكأنما منع الإنسانية جمعاء . فإن قول الحقيقة ليس مجرد حق للفرد له اتيانه وله تركه . بل هو أيضا واجب عليـه للجمعية التى يعيش فيها . وقيمة الحقيقـــة أن تقال لا أن تعلم . والساكت عن الحق شيطان أخرس . ولقد كانت الخطابة فى المدنيات الأولى قائمة مقام الصحافة فى مدنيتنا الحالية . وان كان ذلك لم يقلل فى شىء من أهمية الخطابة . . الخ .

وفى « حرية الاجتماع » ذهب الكاتب الى أنها أصل فى تكوين الجمعيات العامة ، والجمعيات العامة قوة عظيمـة تقاس بها درجات الأمم . ولا يعرف

التاريخ أن حكومة استبدادية حمت تأليف الجمعيات وشجعتها ولو كانت دينية، إلا إذا كان الغرض من تشجيعها هو ضمها إليها. وحرية الاجتماع أكثر خطراً على الظلم من كل حرية سواها. لأن الجمعيـة أكثر من الفرد قوة. وأطول عمراً. وأشمل تأثيراً. وأعسر على عواصف الحوادث منقلباً.. الخ.

والكاتب فى كل مرة يناشد النواب المصريين أن يحافظوا على الحرية التى يدعو إليها. ويحضهم على أن يرعوا هذه الأمانة التى فى أعناقهم للأمة، ويحذرهم الوقوع فيما وقعوا فيه من قبل. حين قرروا — وفرحت الحكومة المصرية يومئذ بما قرروا — أن الأمة المصرية ليست بعد أهلا للحرية الإنسانية. كل ذلك فى رفق ولين من جانب هذا الكاتب الفيلسوف، وفى عطف وتقدير لحالة المصريين الذين طال خضوعهم لحكومات مستبدة.

* * *

والحق أن مصر — ذلك البلد الذى ولد الحضارة الإنسانية مرتين — رزقت منـــذ الاحتلال البريطانى بكثير من الكتاب والشعراء والخطباء والمفكرين ممن تغنوا بالحرية: فأحسنوا الغنـاء، وبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيلها فأحسنوا الفـداء. ومع ذلك لانظن أن أحداً من هؤلاء وهؤلاء كتب للناس ما كتبه لطفى السيد على صفحات الجريدة حيث قال:

« الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا. ولو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ولـكن غذاءنا الحقيق الذى به نحيـا، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة. بل هو إرضاء العقول والقلوب. وعقولنا وقلوبنا لاترضى إلا بالحرية. وإنا إذا طلبنا الحرية لانطلب بها شيئاً كثيراً — إنما نطلب ألا نموت — ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لايطلب الا الحياة ووسائل الحياة. كما أنه لا أحد أقل كرماً من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة... أعجب من

الذى يظن الحيـاة شيئاً والحرية شيئاً آخر . ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية هى المقوم الأول للحياة ، ولا حياة إلا بالحرية .

غير أن الحرية الطبيعية لافائدة منها إذا تعطلت من آثارها . فالذى سجن، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة — كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم . ولكنهم فقدوا الانتفاع بها — أى فقدوا بذلك الحرية المدنية . وإنما يكون المرء حراً بمقدار مالديه من وسائل استعمال هذه الحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت ، لأن الحرية هى الحياة .

يقولون إن بعض الناس خلق للسيادة أبداً . وبعضهم خلق للعبودية أبداً . ولانزال نرى هذا خطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين على صورة أقل شناعة .

وبعبارة أكثر ائتلافاً مع مدنيتنا الحديثة — يضعون أصابعهم فى أعينهم؛ إذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات السابقة هى هـذه الجزئية : بعض الإنسان لا إنسان . كذبت فلسفتهم وصدق الذى يشعر به كل إنسان منا فى نفسه من الميل إلى الرقى فى كل شىء ، وإلى الحرية قبل كل شىء »[1] .

أجل — كان لطفى السيد من عشاق الحرية . بل كان معلم الحرية ، يحب أن يراها فى كل طبقة ، وفى كل حزب ، وفى كل عمل ، وفى كل مهنة من المهن العامة . وإن أحق الناس فى نظره بالحرية هم العلمـاء . ومن ثم عاب عليهم اعتمادهم اعتماداً تاماً على أوروبا ، وحضهم على الابتكار والثقة فى أنفسهم . كما عاب على الصحفيين والأدباء التفاف كل طائفة منهم حول سـلطان معين ، فصاح فيهم قائلا :

« أناشدكم الله — ما حاجة كاتب القرن العشرين فى أن يكون لقلمه سيد ، لايخط إلا ما يرضيه . وهو يسود الطروس مناديا بالحرية الشخصية مدللا على وجوب استعمال الحرية الفعلية والشجاعة الأدبيـة . والأمة المفصومة العرى أحوج — أيها الكتاب — إلى أقلامكم من خدمة السلطان»[2].

---

(١) مجلة المصور فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠

(٢) مقال بعنوان « الحق الصراح » . الجريدة بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٠٧ .

المدرسة الثالثة

مذهب التعقيل

إن أردت أن تدرس الفكر المصرى الحديث فى أى ميدان من ميادينه فلا بد لك من العناية بأمور كثيرة تنير لك طريق الدرس الصحيح، وتهديك إلى معرفة الظروف التى أحاطت بهذا الفكر من جميع نواحيه. وهى ظروف لا تتصورها منفصلة بعضها عن بعض، بقدر ما تتصورها متداخلة بعضها فى بعض. إذ الهدف الذى رمت اليه واحد، والثمرة التى تصبو اليها واحدة؛ وهى اليقظة المصرية فى سبيل الظفر بالاستقلال والدستور والحرية، وفى سبيل اللحاق بالأمم الأجنبية التى سبقت مصر فى مضمار الحضارة والرقى.

والحق أن هذا النشاط الفكرى الحديث قد اتخذ له أشكالا متباينة، أو قل مر بأدوار متعددة، هى تلك التى تنير لنا طريق الدرس أو البحث، ويمكن أن نشير منها بإيجاز إلى مايلى:

أولا — (دور التنوير): ونعنى به الحركة التى سارت فى مراحل معروفة أشرنا اليها فى مقدمة الجزء الثالث من أجزاء كتابنا (أدب المقالة الصحفية فى مصر): فمرحلة تقترن بمجىء الحملة الفرنسية، وأخرى بظهور محمد على والبعثات العلمية، وثالثة بظهور الرعيل الأول، فالثانى، فالثالث من كتاب المقالة الصحفية وهكذا. ولعل المرحلة الأخيرة من مراحل هذا التنوير هى تلك التى اقترنت بإنشاء الجامعة المصرية، وقد كانت الجامعة فى حقيقتها استجابة لرغبة الشعب قبل أن تكون عملا من أعمال الحاكم الذى تولى أمر هذا الشعب.

ثانيا — (دور الدستور) — وفى سبيله قام المصريون بنشاط كبير وذلك منذ إعلان الدستور العثمانى فى عهد السلطان عبد الحميد ، وهو الاعلان الذى ترتب عليه إنشاء مجلس النواب المصرى فى عهد اسماعيل سنة ١٧٧٦ .

وبقى المصريون على ذلك حتى قاموا بأخطر ثورة مصرية من أجل الدستور ، هى ثورة عرابى سنة ١٨٧٢ ؛ وهى ثورة دستورية فى جوهرها ومن ثمارها صدور دستور جديد كان فى حقيقته تعديلا لدستور سنة ١٧٧٦ ؛ وكان تثبيتاً لحق النواب المصريين فى محاسبة الوزراء وغيرها من المسائل الدستورية .

ثالثاً — (دور المقاومة) — وقد سارت هذه المقاومة فى مرحلتين هامتين هما : المرحلة التى حاول المصريون فيها التخلص من الحكم التركى العثمانى ، والمرحلة التى حاولوا فيها التخلص من الاحتلال البريطانى . ومن أجل هذا الأخير قام المصريون بجهود كثيرة ، وبذلوا محاولات عديدة ، وما زالوا يحاولون إلى اليوم .

رابعاً : (دور الشعور بالقومية) وهو الشعور الذى أعان على تفتيت الامبراطورية العثمانية وتقويض دعائمها ، وذهاب هيبتها . والأصل فيه هو رغبة الشعوب الإسلامية فى الانفصال التام عن عجلة الامبراطورية العثمانية ، والاندفاع فى تيار القومية . ونحن نعلم أنه اشترك فى بناء صرح القومية المصرية كثيرون من أبناء مصر — حكاما ومحكومين — وقد أشرنا اليهم إشارة موجزة فى مقدمة الجزء الخامس من كتابنا (أدب المقالة الصحفية فى مصر) وهو الجزء الذى تكلمنا فيه عن مصطفى كامل فى صحيفة اللواء وأشرنا فيه إلى الحركة الوطنية منذ نشأتها إلى عهد هذا الزعيم الشاب .

ولعل ثورة المصريين سنة ١٩١٩ كانت أعنف مظهر من مظاهر الوعى القومى الذى نتحدث عنه .

خامسا : (دور الجامعة المصرية بعد الجامعة الإسلامية) وقد شرحنا ذلك فى مقدمة من مقدمات هذا البحث الذى بين يديك .

سادسا : (دور التعقيل) — وهو الدور الذى تنهض هذه المقدمة الثالثة ببحثه ، ومعرفة القدر الذى تم منه على يد صاحب الترجمة .

* * *

عندى أن القصد من حركة التعقيل إنما هو إعادة النظر فى الإصلاح المصرى على أساس جديد: هو العقل من جهة،والمنفعة الذاتية لمصر وحدها من جهة ثانية .

ومن الحق ان يقال إن هذه الحركة إنما جاءت صدى لهاتين الظاهرتين الكبيرتين ، أو الفكرتين العظيمتين ؛ وهما فكرة الحضارة الأوروبية من جهة ، وفكرة الجامعة الاسلامية من جهة ثانية ، وذلك بعد أن تركت كل من هاتين الفكرتين آثاراً عميقة فى الرأى العام المصرى ، والحياة العامة المصرية . وأمضى المصريون زمانا طويلا فى الشك من أمرهما — أو على الأصح — انقسم المصريون من أجلهما فريقين : فريق يؤمن بهما ، وفريق لا يطمئن اليهما بحال ما . فكان طبيعياً بعد ذلك أن يحتكم الناس إلى العقل ، وأن يستوحوا النفع الذاتى لمصر .

وقد بلغت هذه الحركة أوجها فى شطر من شطريها — وهو الشطر الخاص بفكرة الجامعة المصرية — على يد لطفى السيد .

أما الحضارة الأوروبية الحديثة فكان المصريون لا يزالون ينظرون إليها بعين الريبة . إلا أن لطفى السيد كان مذهبه واضحاً فى ذلك كل الوضوح، وهو أنه لا ضير على مصر من أن تنتفع بالجانب الحسن من هذه الحضارة ، وتترك الجانب القبيح منها . وربما كان لطفى السيد فى هذا الشطر الثانى من القضية مسايراً كل المسايرة لأفكار الجيل الجديد من أجيال الأمة المصرية . ذلك أن المصريين أصبحوا عازمين على مصالحة الحضارة الأوربية بعدأن تبين لهم أنها ليست شراً كلها ، ولا عبثا كلها ، كما كانوا يفهمون ذلك على يد النديم ، والمويلحى الكبير وغيرهما من الكتاب والمصلحين. ولنا على تصميم المصريين

على هذه المصالحة شاهد من شواهد الأدب لا يقبل فى نظرنا شكا ولا يستحق عندنا طعناً . وهذا الشاهد هو «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى . فقد تنكرت هذه القصة المصرية للحضارة الأوربيـة ، وراحت تصف شرورها . وتسخر من تقليد المصريين لها تقليداً أعمى . وظهرت الطبعات الثلاث الأولى لهذه القصة وهى تحمل هذا المعنى ، ثم فى الطبعة الرابعة وذلك عام ١٩٢٧ وجدنا المؤلف أضاف إلى القصة ما سماه (بالرحلة الثانية) . وفيها انتقل ببطل القصة إلى فرنسا ، حيث شاهد هـذا البطل ورفيقه الفيلسوف الشرقى معالم الحضارة الأوروبية ، وفتح عينه على محاسنها ، ثم عاد البطل إلى مصر ، فدعا بدعوتها ، وحض المصريين على الأخذ بها . وفى هذه التكملة القصصية الأخيرة ما يدل دلالة صريحة على تأثر المؤلف بالحركة التى نشير اليها ، وهى الحركة التى جعلت المصريين يعيدون النظر فى المدنية الغربية ، على أساس مخالف للأساس الأول ، وهو أساس المنفعة الذاتية . ومن الجائز أن يكون على مبارك فى قصته المشهورة (علم الدين) هو أول من بدأ هذا التفكير . ثم تبعه فى ذلك كثيرون ، آخرهم محمد المويلحى

* * *

مهما يكن من شىء فنحن ننظر فى المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر (وهى المدرسة التى ينتمى اليها لطفى السيد — نجد أنها تمتاز عن سابقتيها بأمور أربعة هى : التعقيل ، والتجديد فى الأساليب ، وهضم الثقافة الأوروبية بعد إذ تم نقل الكثير منها على يد المدرسة الأولى ، وتقبل الحضارة الغربية بقصد الانتفاع بها والاستزادة منها . ولم نلبث أن رأينا هذه الحضارة الأوروبية والثقافة الغربية مصدر من مصادر الوحى عند رجال هـذه المدرسة الثالثة بالدرجة التى كانت عليها الثقافة الإسلامية الخالصة عند أفراد المدرسة الثانية كمحمد عبده والنديم والمويلحى الكبير . وحتى على يوسف زعيم هذه المدرسة الثالثة التى نتكلم عنها — وهو أقل تلاميذها صلة بالثقافة الأوروبية — كان على رغم أزهريته يحب الثقافة الأوربية ويعنى بها وبآثارها المختلفة . وخاصة ما كان منها متصلا بالسياسة .

والذى يعنينا الآن هو النظر فى الأمر الأول من تلك الأمور الأربعة المتقدمة . وهو (التعقيل) : كيف اهتدى اليه صاحب الترجمة ، أو كيف اتخذه مذهباً يدعو اليه أمته ؟

فى اعتقادى أن مذهب التعقيل عند لطفى السيد إنما يرجع إلى أسباب كثيرة ، منها ثقافته . ومنها نفسه وطبيعته ، ومنها التجارب السياسية والمحن القومية التى مرت بها مصر . وحسبى أن أنوه هنا بالسبب الأول منها لأهميته، فإن كل سبب من الأسباب الأخرى لايحتاج إلى توضيح لبيان قيمته ، أو التدليل على صحته .

والحق أن فى تاريخ هذا الرجل ما يدل دلالة صريحة على أن له عناية كبيرة بثقافات ثلاث : هى الثقافة الاسلامية المعروفة ، والثقافة اليونانية القديمة . والثقافة الأوروبية الحديثة .

أما الثقافة الاسلامية ، فقد اتصل اتصالا قوياً بها ، وذلك عن طريق الفلاسفة المسلمين فى أشهر كتبهم . وأما الثقافة اليونانية فقد فتن فتنة عظيمة بها ، وكان أكبر إعجابه بأرسطو . وقد ترجم من آثاره خمسة كتب وهى : كتاب الطبيعة ، وكتاب الكون والفساد ، وكتابان فى الأخلاق بعنوان إلى (نيقوماخوس) وكتاب السياسة — نقلها كلها عن سانت هيلير ، وإن قيل فى هذا الأخير إنه ليس بثقة !

وأما الثقافة الأوروبية فقد لقيت هى الأخرى هوىً من نفس كاتبنا . فأقبل عليها واغترف بكلتا يديه منها ، وقضى فى تحصيلها معظم أوقات الفراغ . سمعته مرة يقول :

«على قدر إعجابى بأرسطو من الفلاسفة الأقدمين كنت أعجب (بكانت) الألمانى ، وفولتير ، ورسو ، من الكتاب الفرنسيين ، وستيورت مل (صاحب مذهب المنفعة) . على أن فولتير هو الذى أخذ منى وقتى أكبر نصيب ، لأنى قرأت له بإمعان كتابه : (Dictionaire philosophique) وكان ذلك بين عامى

١٩٠٠ و ١٩٠٥ . أما دارون ، وتولوستوى فقرأتهما فى عهد الطلب . وأما الفلاسفة الآخرون من أمثال : نانث ، وسينيك ، وسبنسر ، وجوستاف لوبون فقرأت لهم وقت اشتغالى بالنيابة،وذلك كله قبل اشتغالى بالصحافة» .

على أن لطفى السيد ما كان يحب لنفسه مع ذلك أنه يكون عبداً لواحد من أولئك الفلاسفة . بل كان يقرأ لهم ، ويعمل عقله فى آثارهم ، ويتبع ذلك بنقد لتلك الآراء والأفكار متى دعا الحال إلى شىء من ذلك .

على هذا النسق التقت فى ذهن كاتبنا ثقافات ثلاث : هى الثقافة اليونانية الخالصة والثقافة الإسلامية الخالصة ، والثقافة الأوروبية الخالصة.وامتزجت هذه الثقافات الثلاث بعضها ببعض فى عقله امتزاجا قوياً ، ظهر أثره قوياً كذلك فى كل ما كتب على صفحات (الجريدة) .

ثم إن لطفى السيد كان يجر أمته دائماً إلى المثل الأعلى فى الحكومة ، والاجتماع ، وفى التربية والتعليم ، والأخلاق الخ . ولكنه كان فى الوقت نفسه من أكثر كتاب زمانه تقيداً بالواقع الملموس فى الحياة المصرية ذاتها ؛ يدركه إدراكا جيداً ، ويحسه إحساساً جيداً ، ويحسن الملاءمة بينه وبين المثل الأعلى الذى ساق اليه أمته ، ويخرج من هذه الملاءمة أو الموازنة بالرأى الراجح ، والفكرة الناضجة يقدمها لأولى الأمر حيناً ، وللشعب المصرى نفسه حيناً آخر ؛ فإذا هو رأى يمكن تنفيذه ، ويسهل العمل به .

معنى ذلك باختصار أنه كما امتزجت فى ذهنه الثقافات الثلاث التى تكلمنا عنها فكذلك امتزجت فى ذهنه المثالية بالواقعية . فأخرج لنا هذا المزاج أفكاراً نافعة فى سياسة مصر الحكومية ، وسياستها الاجتماعية ، وسياستها نحو التربية والتعليم .

سألته يوماً عن هذه الواقعية التى امتزجت فى نفسه بالمثالية أهى طبيعة له فطره الله عليها منذ نشأته ؟ أم هى ثمرة تجاربه وثقافته ؟ فأجاب بقوله : قد

يكون هذا ، وقد يكون ذاك : إن كل ما أستطيع قوله هنا هو أننى ملأت وقت فراغى كله بالقراءة فى كتب الفلاسفة » .

قلت : ليس شك فى أن كتابة المرء وافد عقله ، وصورة من خلقه نفسه ، وأثر من آثار قراءته » .

قال : هو ذاك .

وقد رأينا كيف كان لطفى السيد من أكبر رواد الحرية على النحو الذى تشرحه المقدمة الثانية من مقدمات هذا البحث . وها نحن نرى فى هذه المقدمة الثالثة كيف أن لطفى السيد أكبر رائد من رواد حركة التعقيل فى مصر :

فلئن كان رفاعة الطهطاوى هو البطل الحقيقى لحركة التنوير ، وكان أحمد عرابى هو البطل الحقيقى لحركة الدستور ، وكان مصطفى كامل هو البطل الحقيقى للحركة الوطنية ، وهكذا ، فالذى لا شك فيه أن لطفى السيد هو البطل الحقيقى للحركتين اللتين أشرنا اليهما حتى الآن وهما : « حركة الجامعة المصرية أولا ، وحركة التعقيل المصرى بعد ذلك » .

قد يجوز لنا أن ننظر إلى رجال آخرين سبقوا لطفى السيد فى حركة التعقيل . ومنهم على سبيل التمثيل محمد عبده فى الميدان الدينى ، وعبد النديم وعلى مبارك فى الميدان الاجتماعى الخ . ولكن يخيل الينا أن أحداً من هؤلاء لم يستطع هذا الاتجاه أن يتخذ فى نفسه وعقله صورة (مذهب معين) كما كان الشأن مع لطفى السيد .

وهكذا أصبح (التعقيل) طابعاً خاصاً بهذا الرجل يوشك أن يميزه عن غيره من كتاب الصحف الذين ظهروا قبله . بل إن لطفى السيد الفيلسوف أصبح بهذا التعقيل رائداً وأستاذاً لجميع الكتاب الذين أتوا بعده — فإليه فيما نرى — يرجع الفضل كل الفضل فيما امتازت به الحركة الأدبية والفكرية فى مصر — وذلك فى النصف الأول من القرن العشرين — من ميل حقيقى إلى

التعقيل ، وإيثار لجانب التفكير ، وبعد عن مسايرة العواطف التى انغمس فيها شاب غيور جم العواطف والشعور كمصطفى كامل .

وهكذا كانت الفلسفة سبباً من أسباب هذا المذهب الذى امتاز به لطفى السيد . ثم هكذا كانت الفلسفة اليونانية — بوجه خاص — عنصراً هاماً من عناصر الثقافة التى عرف بها فى عصره . والباحثون متفقون على أن الفلسفة اليونانية تمتاز بالتفكير العقلى المنظم ، وأنها بلغت ذروتها من هذه الناحية على يد أرسطو . وقد أشرنا إلى جهود لطفى السيد فى ترجمة الكتب المنسوبة إلى ذلك الفيلسوف اليونانى القديم . ومهما قيل فى هذه الترجمة ، ومهما قيل فى الأصل الفرنسى الذى اعتمدت عليه هذه الترجمة ، وبالرغم من أن هذه الترجمة نفسها لم تظهر إلى الوجود إلا بعد اختفاء (الجريدة) فى سبتمبر سنة ١٩١٤ ، فالذى لا شك فيه أن لطفى السيد كان على اتصال دائم بفلسفة أرسطو ، وأنه أحسن الاتصال بها ، وأنه توج هذا الاتصال القديم بعمل جليل ، هو قيامه بنقل هذه الكتب المنسوبة إلى أرسطو من الفرنسية إلى العربية .

وليس شك فى أنه كان لهذا الاتصال المستمر بأرسطو من جانب لطفى السيد أكبر الأثر فى مذهب التعقيل الذى نادى به .

ولا يصح بعد هذا وذاك أن تقلل من شأن الأسباب الأخرى التى أفضت إلى مذهب التعقيل عند لطفى السيد . ومن أهمها التجارب السياسية التى مرت بها الأمة المصرية ، واعتقاد هذه الأمة أخيراً أن الخطأ كل الخطأ هو فى ارتباطها بعجلة الامبراطورية العثمانية . وذلك ما يعرفه كل من كان له اتصال بالتاريخ الحديث . ومن ثم اقتصرت عنايتنا هنا على السبب الأول فقط ، هو السبب الذى يتصل بثقافة لطفى السيد .

وأكبر الظن عندى أن هذه هى المرة الأولى لاتصال المصريين المحدثين بالفلسفة اليونانية القديمة . فلا تكاد ذاكرتى تعى اسم رجل من رجالات مصر فى

القرن التاسع عشر اتجه من تلقاء نفسه ، أو بدافع من أساتذته هذا الاتجاه ، أو عنى بأفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان مثل هذه العناية . إلا أن يكون ذلك عن طريق الفلسفة الإسلامية التى درست أرسطو دراسة قوية . ومع ذلك فإنى أشك حتى فى وجود رجل من رجالات مصر عرف الفلسفة اليونانية عن طريق الفلسفة الاسلامية ، وتوفر على فهمها وتحصيلها على هذا النحو .

ثم إن هذه الفلسفة اليونانية القديمة كانت من مقومات النهضة الأوروبية الحديثة . وقد نادت هذه النهضة بحرية العقل . وأثمرت هذه الحركة نوعين من الفلسفة فى ذلك الوقت : هما الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية .

وفى هذا الجو الفلسفى البحت ولدت المقالة الأدبية الأوربية . وكان ميلادها على يد (مونتانى) فى فرنسا ، (وبيكون) فى انجلترة . وهما فيلسوفان عقليان ، ومن أجلهما انشعبت المقالة الصحفية شعبتين هما : شعبة المقالة الذاتية كما يمثلها (مونتانى) ، وشعبة المقالة الموضوعية كما يمثلها (بيكون) . ولكل منهما تلاميذ وأتباع فى كل من انجلترة وفرنسا .

أفتثمر الثقافة اليونانية هذه النتائج كلها ، ولا يكون لها أثر واضح فى عقول كتابنا ؟

إن تعقيل الفكر ، وتعقيل البحث ، وتعقيل الأدب ، وتعقيل النهضة المصرية من جميع جوانبها إنما ظهر ظهوراً لا يقبل الشك منذ تأثير كتابنا ، وقادة الفكر فينا بهذه الثقافة اليونانية القديمة . إما بطريقة مباشرة كما يفعل الدارس لأرسطو ، أو المترجم لأرسطو ، أو بطريقة غير مباشرة كما يفعل الدارس للفلسفة الأوربية الحديثة ، أو الدارس للفلسفة الإسلامية المعروفة ، أو المترجم لبعض آثارهما .

ومهما يكن من شيء فتلك هي الطريقة التي سلكها لطفي السيد في تثقيف نفسه ، وتلك هي الآداب التي ملأ بها فراغ وقته . وذلك فضلا عن العلوم التي أوجبتها عليه المهنة — وأعني بها مهنة المحاماة . فقد تخرج الكاتب في مدرسة الحقوق ، واشتغل بدراسة القانون ، وقرأ كثيراً في كتب الأدب والتاريخ ثم اشتغل أخيراً بالصحافة ، بعد أن أعدّ نفسه لها ذلك الاعداد ، وتزود نفسه بتلك القوّة وذلك العتاد .

الفصل الأول

حياة لطفى السيد

أحسنت دار الهلال حين حملت الأستاذ لطفى السيد على كتابة بعض مذكرات له نشرت فى مجلة المصور، وبها وصف لبعض الحوادث السياسية التى شهدها بنفسه، أو كان له فيها مشاركة واضحة[1].

* * *

وقد استهل الأستاذ لطفى السيد هذه المذكرات بقوله :

« نشأت فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها وطناً إلا الوطن المصرى. ولا تعتز إلا بالمصرية، ولا تنتمى إلا إلى مصر — ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد.

وقد ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ بقرية « برقين » من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية. وهى قرية صغيرة كان تعدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس. وقد تضاعف سكانها فأصبح عددهم الآن نحو ألفين نفس. وقد اعتادوا أن ينطقوا القاف « جافاً »، والجيم « جيما معطشة » كسائر أهالى مركز السنبلاوين.

وما زالت هذه اللهجة تغلب على فى حديثى إلى يومنا هذا.

---

(١) مجلة المصور فى أربعة عشر عددا من أعدادها ابتداء من العدد رقم ١٣٥١ بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى العدد ١٣٧٠ بتاريخ أول ديسمبر ١٩٥٠.

« وكان والدى» السيد باشا أبو على « عمدة هذه القرية » . وقد كان يجيد حفظ القرآن الكريم وعرف بشخصيته المهيبة وقوة شكيمته ، وعدالة فى معاملته ، وعطف على أهل قريتـــه وغيرهم ، وأذكر أنه ما قسا يوماً علىَّ ولا وجه إلى كلمة نابية . أو عبارة تؤلم النفس . بل كان — طيب الله ثراه — عطوفاً حكيماً فى تربية أبنائه . يعنى بالقدوة الحسنة وحسن التوجيه والارشاد .

«ولما بلغت الرابعة من عمرى أدخلنى كتاب القرية وكانت صاحبته سيدة تدعى « الشيخة فاطمة » . فمكثت فيه ست سنوات تعلمت فيهـا القراءة والكتابة . وحفظت القرآن كله .

وكنت أجلس مع زملائى على الحصير ، ونصنع الحبر بأيدينا . وإلى هذه السيدة يرجع الفضل فى تنشئتى الأولى فى تلك السنين .

«وكنت فى العاشرة حين أتممت حفظ القرآن فى هذا الكتاب . فاشترى لى والدى مهرة من بادية الشام لم تألف رؤية قطار السكة الحديدية . فكنت أركبها للنزهة ، ولقضاء بعض الأعمال . وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسنى مكروه . وذات يوم امتطيت المهرة ، وذهبت إلى عزبة لنا فى«طرابلس الغرب»وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى، فسرت بها على طريق السكة الحديدية . وبينما أنا سائر بها فاجأنى القطار فوثبت من فوقها وتركتها وحدها فجرت مسرعة حتى عادت إلى برقين . فذعر أهلى ، وهاجت القرية ، وظن الجميع أنى أصبت بمكروه، وما كاد القطار يقترب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض ، فاطمأن بالهم .

«ثم جىء بى إلى والدى وأنا خائف أترقب . ولكنه كعادته معى — رحمه الله — ربت على كتفى قائلا :

لا تخالف أمرى يا ولدى ولا تسر مرة أخرى على السكة الحديد

«فأثر ذلك فى نفسى وازددت إعجاباً به وحباً له .

وبعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم رغب والدى فى أن يبعثنى للدراسة فى الأزهر . وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا ابراهيم باشا أدهم — مدير الدقهلية سابقاً — فدخلت لتحيته . فسأل والدى : إلى أين يبعث بى للدراسة؟ فأجاب: إلى الأزهر الشريف إن شاء الله . فأشار عليه أن يبعث بى إلى مدرسة المنصورة الابتدائية . وكانت إذ ذاك المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها . وقد كان المرحوم أمين سامى باشا ناظراً لها . وكان معروفا بالدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى أى تقصير يبدو من أحد التلاميذ . ومع ذلك كنا نحبه ونحترمه ونشعر بأبوته الرحيمة . وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت بالسنة الثانية بامتحان . لأنى كنت — عدا حفظى القرآن الكريم — أعرف قوعد الحساب الأربعة «وسورة الفدان» من صراف بلدنا المعلم حنين . . . . وكانت سنة ١٨٨٢ حينما التحقت بمدرسة المنصورة الابتدائية . ولما اختلطت بزملائى التلاميذ شعرت بعد أيام بشىء من القلق ، لأنهم كانوا يضحكون منى حينما كنت أنطق القاف جافا كأهل بلدتى. هذا إلى أن الضرب والحبس فى « الزنزانة » كان من أنواع العقاب فى هذه المدرسة .

«وكانت روح الجندية هى السائدة على نظام المدارس فى ذلك الحين وكنا نخرج كل يوم جمعة « طوابير » تطوف فى شوارع المدينة ، ثم نعود إلى « عنابرنا » .

« ولكن حبب إلى البقاء فى هذه المدرسة أستاذ اللغة العربية بها « سيد أفندى محمد » . وكان مشهوداً له بالقدرة والتفوق فى تربيته وتعليمه . وكان تلاميذه أقوى زملائهم فى اللغة العربية . وعلى يديه نبغ كثيرون .

أمضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية وأتممت تعليمى الابتدائى سنة ١٨٨٥ .

ثم اضطررت للسفر إلى مصر لألتحق بالمدرسة الخديوية . وقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصحبة صديق وأخى عبد العزيز فهمى من أول

يوم التقيت به فى عنبر المدرسة . وذلك فى مناقشة أثيرت بيننا وبين الطلبة فى النحو . فاتفق رأيه ورأيى ضد الآخرين . ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين . . . ولما انتظمنا بالمدرسة رتبونا بالطول : فقصار القامة فى السنة الأولى والأطول فى السنة الثانية وهكذا وكان وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقوب أرتين باشا . وناظر المدرسة صادق بك شنن . وكان هذا الناظر معروفاً بحبه لأهل البيت ، وإذا وبخ أحداً قال له : يا يزيد ! . . . وقد بقيت فى المدرسة الخديوية إلى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ . وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام وكانت مدرسة الخديوية فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز هى مدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف . وكان طلبة المهندسخانة يختلفون عنا بزيهم العسكرى الكامل ، ويحملون إلى جانبهم سيوفاً . فكانوا يشيعون بمنظرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الآخرين ، وبخاصة الغرباء .

« وكان مما يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان فقد كان فى كل حارة عصابة على رأسها «فتوة» . وكثيراً ما كانت تحدث معارك دامية بين هذه العصابات وقد امتدت عدوى الفتوة إلى الطلبة أنفسهم ، حتى ظهر بيننا طالب فتوة يدعى «منصور» كان يعلم زملاءه التحطيب. ولهذا كنت أوثر البقاء فى المدرسة أيام العطلة الأسبوعية .

«وقد مكثت فى أول عهدى بالمدرسة ثلاثة أشهر لا أخرج من الخديوية قرأت فيها كتاب «أصل الانسان» لداروين، وقد ترجمه المرحوم شبلى شميل. وحفظت كثيراً من المعلقات وأشعارا لبعض كبار الشعراء .

وكان من مدرسى اللغة العربية فى هذه المدرسة الشيخ حسين والى والشيخ محمد حسنين البولاقى والد المرحوم أحمد حسنين باشا . وكنا وقتئذ نقرأ كتاباً مطولا فى النحو لمؤلف يدعى الشيخ محمود العالم .

« وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شهر اختباراً لتلاميذها ، فرغب تلاميذ البكالوريا أن تعفيهم المدرسة من الاختبارات الشخصية لينصرفوا إلى المذاكرة للامتحان العام . وأجمع رأيهم على أن يطلبوا إلى وزير المعارف على باشا مبارك إعفاءهم منها . واختارونى للذهاب لمقابلته . فذهبت اليه . وكان من عادته أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة فى حاجة يريدها ، ولا يجيبه إلى حاجته إلا إذا أجاب إجابة صحيحة فيما يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية . فلما مثلت بين يديه طلب منى أقف أمام السبورة لأبرهن على النظرية الهندسية التى حاصلها «أن مربع وتر المثلث القائم الزواية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين » فأثبتها أمامه فأجابنى إلى الرغبة التى أوفدنى اليه زملائى من أجلها . ..

« وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا . فلم أكن من المتفوقين ولا من المتأخرين. غير أنى كنت متفوقا فى العلوم العربية والرياضيات،حتى لفت ذلك صابر باشا صبرى وأحمد كمال بك فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا فنصحانى أن أدخل المهندسخانة . فأجبتهما إلى ذلك غير أنى قرأت فى الأجازة أن المهندسخانة تقبل ساقطى البكالويا فلم أجد من كرامتى أن التحق بهذه المدرسة ! فالتحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ .وكانت هذه المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى «كلية حقوق» ، و «كلية آداب» معا . فقد كان الطلبة يدرسون فيها إلى جانب العلوم الثانوية علوما أدبية كآداب اللغة العربية وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى وتفسير القرآن الكريم وآداب البحث والمناظرة والمنطق . وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات . وكان وكيلها عمر لطفى بك . وكان من مدرسيها الشيخ حسونة النواوى وحفنى بك ناصف وسلطان بك محمد وأساتذة أوروبيون .

«وكنت فى ذلك الحين أسكن فى حارة «عمر شاه» التى يسكنها الشيخ حسونة

النواوى . وكنت أتردد على منزله ، وكثيراً مايبعث إلى لأقرأ له درس الفقه الذى كان يلقيه بالأزهر فى بكرة الغد .

« وفى مدرسة الحقوق عرفنى الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكانا مع الشيخ عبد الكريم سلمان فى لجنة امتحان العلوم العربية . وأذكر فى امتحان السنة الثالثة أنه طلب منا أن نكتب فى موضوع : حق الحكومة فى معاقبة الجانى . فتناولت الموضوع فى جميع كتب المذاهب الأربعة التى كتبها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون العقوبات . ثم نقضت كل مذهب منها ، وخلصت فى النهاية إلى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى . لأن كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق ، وإنما الذى يعطى الحق هو العقد فقط . وليس هناك أى عقد بين أية حكومة وبين الأمة ولما خرجت من الامتحان وذكرت ذلك لزميلى محمود عبد الغفار أسف جداً لما فعلت . وقال لى : يالطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينا فين ؟

« وقد ألقى فى روعى أنى أخطأت فى هذا العمل ، وأنى سآخذ صفراً على هذا الجواب . ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهى وجلست أمام اللجنة قال لى الشيخ محمد عبده :

« إنى أهنئك بما كتبت ، وقد أعطيناك أعلى درجة لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الإنشاء » .

« وأظن أن هذه الكلمات هى التى شجعتنى على أن أنشىء فيما بعد « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفور لهم : اسماعيل صدقى ، واسماعيل الحكيم ، وعبد الهادى الجندى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمود عبد الغفار .

« ولقد هويت منذ كنت طالباً فى الحقوق الكتابة فى الصحف ، فعاونت فى جريدة المؤيد بترجمة تلغرافاتها الخارجية عند ما كان الأستاذ محمد مسعود بك مريضا [1] .

(١) وشارك لطفى السيد فى مساجلات لغوية نشرت على صفحات المقطم ودارت بين الشيخ حمزة فتح الله والشيخ الشنقيطى والشيخ حسن الطويل وانتصر المترجم له لهذا الأخير .

لطفي في الآستانة :

«وفي صيف ١٨٩٣ سافرت إلى استانبول، وأنا طالب بالحقوق، فالتقيت بزميلي وصديقي اسماعيل صدقي. وكان الخديو عباس حلمي الثاني يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما نمثـــل الطلبة المصريين في الاحتفال بالخديو .

«ومررت بإحدى مقاهي الآستانة ، فلقيت فيها بعض المصريين ، ومنهم سعد زغلول والشيخ علي يوسف وحفني ناصف ، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الأفغاني ، فصحبتهم إلى منزله . وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكني لم أكن قد اجتمعت به من قبل ...

ولما ذهبت اليه مع إخواني لقيته رجلا مهيب الطلعة قوي الشخصية : ربعة ، ممتلىء البنية أسود العينين نافذ اللحظ مسترسل الشعر جذاب المنظر ، يلبس عمامة وجبة وسراويل على زي علماء الآستانة . . . . وفي اليوم التالي ذكرت لسعد زغلول رغبتي في التلمذة على السيد جمال الدين .. فأجاب سعد : اذهب اليه واطلب منه ذلك . فقصدت اليه . وما كدت أقبل عليه حتى قام يحييني كالمعتاد فقلت له : أنا لست زائراً ولكني تلميذ ، فسر رحمه الله بذلك وأخذ عليّ عهداً بأن ألازمه طول إقامتي بالآستانة وقد فعلت .

« وأهم ما أظن أني انتفعت به من السيد جمال الدين في تلك المدة أنه وسع في نفسي آفاق التفكير ، وهداني إلى أن المرء لا يستطيع أن يربي نفسه إلا إذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر ... الخ » .

* * *

لطفي في الوظائف الحكومية :

أتم الفتى دراسته القانونية سنة ١٨٩٤ . وعين كاتبا في النيابة بالقاهرة بمرتب قدره خمسة جنيهات مصرية ، ثم سكرتيراً للنائب العمومي وهو يومئذ



(حسن باشا عاسم) ثم منتدباً للنيـابة ببنى سويف حيث التقى بصديقه عبد العزيز فهمى وكيل النيابة. وهناك وفى تلك المدينة طفق الرجلان يفكران طويلا فى حالة مصر . وانتهى بهما التفكير إلى إنشاء « جمعية سرية » غرضها تحرير البلاد من الاحتلال البريطانى . وكان من أعضاء هذه الجمعية : أحمد طلعت ، وحامد رضوان ، ومحمد بدر الدين ، والدكتور عبد الحليم حلمى . وكلهم من رجال القضـاء . ثم انضم اليهم على بهجت (العالم الأثرى) ، ومحمد عبد اللطيف وكان صيدلياً .

أحمد لطفى والحزب الوطنى :

وفى ذات يوم كان لطفى بالقاهرة فلقيـه مصطفى كامل وقال له : « إن الخديو عباس يعلم كل شىء عن الجمعيـة السرية وأغراضها أيضا . وأظن أنه لاتنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو » فوافق لطفى على ذلك ، واستأذن له مصطفى كامل فى مقابلة الخديو ، وتحدثا معاً فى أغراض الحزب الذى يراد تأليفه ، وطلب منه الخديو السفر إلى سويسرا لكى يكتسب الجنسية السويسرية؛ لأنها لاتكلف الراغب فيها إلا إقامة سنة واحدة ؛ ثم يعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، فلا يستطيع الاحتلال أن يحول دون ذلك .

واجتمع لطفى السيد ومصطفى كامل وغيرهما بمنزل محمد فريد . وتم تأليف الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو وأعضاؤها مصطفى كامل ولطفى السيد ومحمد فريد وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق المهندس عثمان محرم) .

قال صاحب الترجمة : ومن طريف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخديو كان اسمه بيننا «الشيخ» ومصطفى كامل «أبو الفداء» وأنا «أبو مسلم» .

لطفى فى جنيف :

ثم سافر لطفى إلى سويسرا مزوداً بتوصيات من صديقه على بهجت لبعض

المستشرقين الأثريين فى مدينة جنيف . وجاء اليه فى الفندق بعد خمسة عشر يوما من وصوله إلى جنيف أحد أولئك العلماء واسمه (مسيو نافيل) وجرى بينهما حديث طويل ، قال العالم الأثرى فى نهايته لصاحب الترجمة :

« لا تظن أن أوربا تساعدكم على انجلترة فإنى أرى أنه لا يحرر المصريين غير المصريين» !

وفى صيف عام ١٨٩٧ حضر إلى جنيف كل من الشيخ محمد عبده وسعد زغلول، وقاسم أمين. وكان قاسم يومئذ يؤلف كتابه(تحرير المرأة)فقرأ فصولا منه على أصدقائه ، ثم سافر مع سعد إلى باريس. وبقى الشيخ محمد عبده مع صاحبيه. وكانت جامعة جنيف قد أعدت فصلا صيفياً لدراسة الآداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس . وعلم الشيخ محمد عبده بذلك ، فرغب إلى لطفى السيد أن يقدمه إلى مدير المعهد باعتباره قاضيا فى الاستئناف ومديراً للأزهر وتمكن الشيخ بذلك من الاشتراك فى هذه الدراسة . « وصار تلميذاً بعمامته وقفطانه الذى كان يفتن النساء . وذات يوم كنا فى درس من دروس أدب اللغة الفرنسية يقوم على قصة لفكتور هتجو . فطلب منا الأستاذ أن نبدى رأينا فيها وفى كاتبها . وأمهلنا فى ذلك أسبوعا . وفى اليوم المحدد قال كل منا — رجال ونساء — ما فتح الله به عليه . وخرجنا فرأيت الشيخ يترقرق الدمع فى عينيه ويقول : «يالطفى عندكم معلمون وليس عندنا معلمون »[1] .

لطفى يعود إلى مصر :

ثم عاد لطفى إلى مصر ووجد الخديو غاضباً عليه لاتصاله بالشيخ محمد عبده . ومع هذا قدم اليه لطفى تقريراً دون فيه أبحاثه السياسية . وتتلخص يومئذ فى أن مصر لايمكن أن تستقل إلا بمجهود أبنائها، وأن المصلحة الوطنية تقضى بأن يرأس الخديو حركة شاملة للتعليم العام الخ .

ورجع لطفى بعد ذلك إلى نيابة الفيوم فنيابة ميت غمر فنيابة المنيا. وفى سنة ١٩٠٥

(١) الفلسفة فى الأزهر — كلمة للمترجم — راجع المنتخبات ج ٢ ص ٥٢

استقال من النيابة لخلاف فى الرأى القانونى بينه وبين النائب العمومى (كوبيت بك). وكان الأستاذ عبد العزيز فهمى قد استقال أيضا من الأوقاف واشتغل بالمحاماة. فعرض على صاحب الترجمة أن يشتغل معه بها ففعل. ولم يزل مشتغلا بالمحاماة إلى أن تركها واشتغل بالتحرير فى «الجريدة».

لطفى السيد وحزب الأمة :

بعد ظهور (الجريدة) ببضعة أشهر تألف «حزب الأمة» وكان أسبق الأحزاب المصرية كلها إلى الظهور فى هذه الأمة. وكان ذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧. وأعلن الحزب برنامجه السياسى وفى رأسه المطالبة بالاستقلال التام وبالدستور، وأقل درجات هذا الأخير توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ومجالس المديريات تدرجا لإيجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطة الشعب على الوجه الأكمل.

وقد اختير محمود سليمان باشا رئيساً للحزب، وحسن عبد الرازق باشا الكبير وعلى شعراوى باشا وكيلين له. واختير صاحب الترجمة سكرتيراً عاما للحزب. وخطب حسن باشا عبد الرازق يومئذ خطبة حسنة فى موضوع الحالة السياسية والاجتماعية. وشرح حاجة مصر إلى الأحزاب؛ السياسة وهى حاجة سبق أن قال بها الشيخ محمد عبده. وبقيت الفكرة تنتقل فى الرؤوس حتى تم تكوين حزب الأمة على النحو المتقدم. وكان بذلك أول حزب ظهر على مسرح السياسة المصرية — كما قلنا — ودخل فيه الأعيان والكبراء أفواجا وبلغ عدد الأعضاء ٧٥٠ عضواً.

ثم قام بعد ذلك صاحب المؤيد فأعلن عن تأليف حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ثم تلاه مصطفى كامل بإعلانه تأليف الحزب الوطنى. وبذلك تمت عدة الأحزاب فى مصر ثلاثة، كان لكل واحد منها طريقته الخاصة فى الوصول إلى أهداف الوطن العليا.

ويخيل إلى من يتتبع تاريخ حزب الأمة أنه كان يتألف منذ نشأته من

فريقين أو مذهبين : فريق الأغنياء من أصحاب المصالح الحقيقية فى مصر — أو بلغة العصر الحاضر — من أصحاب الاقطاعيات . وفريق المفكرين والمثقفين من ذوى الرأى والعلم فى البلاد — ومن هذا الفريق الأخير الاستاذ احمد لطفى السيد .

أما الفريق الأول فكان يميل إلى الأخذ بأسباب اللين ، ويرى فى المطالبة بالدستور مايضمن اشتراك الحزب فى الحكم من جهة ، ويؤدى إلى الظفر بالاستقلال التام من جهة ثانية . وأما الفريق الثانى فكان لا يميل إلى المبالغة فى مسالمة القوم ومن ثم ألح فى طلب الدستور ، ودأب على المطالبة بالاستقلال التام ، وإن كان يؤمن فى الوقت نفسه بفكرة التدرج، أو الظفر بمطالب الأمة جزءاً جزءاً . ولكن ليس معنى ذلك مطلقا أن أحداً من رجال حزب الأمة — مهما كان مذهبه — عرف عنه أنه مالأ المحتل ، أو تقرب اليه على حساب الشعب ، أو انخدع بإظهار الانجليز الرضى عن هذا الحزب ؛ وذلك بسبب ماعنده من الآراء التى تتصف بالاتزان والتعقل . ومن هذه الآراء فكرته عن الجامعة المصرية بدل الجامعة العثمانية ، ثم إيمانه بفكرة التدرج فى تحقيق مطالب الأمة المصرية ونحو ذلك .

أما الخطبة التى خطبها يومئذ بنادى حزب الأمة[1] حسن عبد الرازق باشا نائبا عن محمود سليمان باشا فقد بدأها بقوله :

« إذا كان حل المسألة المصرية أو استقلال مصر أمراً أوروبيا محضا — كما قال لورد كرومر — فلا شك عندى فى أن جميع الأعمال التحضيرية التى تؤدى حتما إلى الاستقلال هى بين المصريين، ومن أعمالهم الذاتية التى لا دخل لأوروبا فيها . المصريون هم الذين يقومون بتعليم أنفسهم ، وترقية أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم لا يكون من عمل أوروبا بعد إلا الاعتراف لهم بالاستقلال . . . فعمل أوروبا لنا لا يمكن أن ينتظر مطلقا

---

(١) لسراى البارودى شارع غيط العدة بجوار باب الخلق

(٢) راجع الخطبة بالجريدة عدد ٣٦٢ بتاريخ ١٧ مايو ١٩٠٨ ، وصفحات مطوية ص ٧

قبل أن نفرغ نحن من القيام بواجبنا الوطنى الأقدس ، الذى هو استجماع لكل الأسباب المؤدية للاستقلال » .

ثم أفاض الخطيب فى بيان الحالة السياسية ، والرأى العام والجرائد ، والنظامات القائمة ، والحالة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية . وقال إنه ينبغى لنا « أن نسير فى ترقية الحالة الاجتماعية والاقتصادية بنفس الحدة ، وبمقدار الخطى التى نخطوها فى مطالبنا السياسية . ولا ييئسنا ما نشاهده من تصرف الإنكليز — ذلك التصرف المبنى فى ذاته على قاعدة إن الحق للقوة . وإن كان لا يجرؤ أحد من ساسة القرن العشرين أن يعضد هذه النظرية التى ظهر فسادها » .

والخطبة التى ألقيت يومئذ تقع فى خمسين صفحة وتعتبر برنامجا مسهبا للخطة التى وضعها حزب الأمة ، ومن ثم تناولت موضوعات كثيرة ومسائل شتى « منها نظام الإدارة، ونظام القضاء ، وسياسة الوفاق ، وفكرة الحكومة الشخصية ، وعلاقة مصر بالدستور العثمانى ، ومقاومة الحكومة لطلب الدستور ، وأهلية مصر للحكم النيابى ، والحريات العامة والخاصة .

ولخص الخطيب كلامه فى هذه الخطبة فى غرضين هما » :

أولا — إن الحكومة النيابية هى الحكومة الوحيدة اللازمة لترقية الأمة . وأن الأمة تعضد مجلس شورى القوانين فى طلب الدستور .

ثانيا — إن الحكومة بمقاومتها للحركة الدستورية ، وتعديها على الحرية الشخصية تتجاوز حدود القانون، وحدود رضاء الأمة. ولذلك يجب الاحتجاج عليها . فهل أنتم لطلب الشورى معضدون ، وعلى تصرفات الحكومة محتجون ؟

وعلى هذا النهج سارت « الجريدة » التى ترك تحريرها للطفى السيد . فهدفت هذه الصحيفة إلى الدعوة بجميع الأعمال المؤدية إلى الاستقلال . ودأبت على المطالبة لمصر بحياة دستورية صحيحة . ودارت مقالاتها منذ بدايتها إلى نهايتها حول هذا الهدف .

لطفى السيد وامتياز قناة السويس :

غضب حزب الأمة كما غضبت الأحزاب المصرية الأخرى من الحكومة المصرية لموقفها من قانون المطبوعات ، وموقفها من امتياز قناة السويس . أما قانون المطبوعات فقد بحثته الحكومة المصرية من جديد فى سنة ١٩٠٩ . ومن أجله فكر لطفى السيد فى السفر إلى لندن ومقابلة السير ادوارد جراى وزير الخارجية الانكليزية . ولكن الوزير أحاله إلى وكيل الوزارة — مستر ماليت — فأخذ المذكرة التى كتبها لطفى فى ذلك ووعده خيراً !

وأما مد امتياز قناة السويس فقد كان ذلك فى سنة ١٩٠٩ . وقد أرادت الشركة مده أربعين سنة أخرى وذلك فى مقابل أربعة ملايين من الجنيهات . وكان سير ألدون غورست وبطرس غالى يعضدان الفكرة . فتحدث لطفى السيد فى أمرها مع رشدى وسعد زغلول . فأحالاه على بطرس غالى وعلى المستشار المالى ، فبدأ بالأخير . وطلب منه أن يعرض الأمر على الجمعية العمومية ، فلم يوافقه على طلبه . فتركه وذهب إلى رئيس الوزراء بطرس غالى وفاوضه ، فى الأمر باسم حزب الأمة .

فأجابه الرئيس بقوله :

يا لطفى — أما تنزل من السحاب لتكون معنا على الأرض !

حينئذ لم يجد الرجل بداً من الالتجاء إلى الصحافة . فكتب مقالات فى الجريدة . وهاج الرأى العام المصرى لهذه المقالات ، واضطرت شركة القناة أن تشترط أخذ الرأى فى الجمعية العمومية . فعرض الموضوع عليها فقررت رفضه رفضاً تاماً .

لطفى وفكرة الجامعة المصرية بدل الجامعة العثمانية

شرحنا فكرة الجامعة المصرية من قبل . ونشير هنا مرة أخرى إلى الظروف التى اقترنت بهذه الفكرة فنقول :

فى عام ١٩١١ نشبت الحرب التركية الإيطالية فى ليبيا ،وأغارت ايطاليا على طرابلس . فرأى لطفى السيد أن الفرصة سانحة لتحقيق ما كان يفكر فيه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ، ولا تدفع عنها مضره .

ثم جاءه خطاب من تاجر بدمياط لا يعرفه وفيه يقول التاجر إن الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز فى عرض البحر ، لأنها تحمل العلم التركى الذى هو علم مصر .

فذهب لطفى إلى حسين رشدى — وزير الخارجية يومئذ — وأطلعه على الخطاب ، وطلب اليه التوسط للافراج عن السفينة . ففعل وأفرج عنها .

ثم فى عام ١٩١٢ ذهب لطفى مرة أخرى إلى حسين رشدى وطلب اليه أن يبدل بالعلم العثمانى علماً مصرياً يرفعه المصريون على بواخرهم . فقال له بعض الحاضرين : إن هذا العمل سابق لأوانه . ثم رجع لطفى إلى رشدى مرة أخرى يطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية . وتنصيب الخديو ملكا عليها . وسر الخديو لذلك بمقدار ما غضب له اللورد كتشنر . صرح هذا الأخير بأن انجلتره لا تريد ذلك اعتقاداً منها أن فى هذا العمل مضايقة لتركيا . فذهب لطفى بنفسه إلى كتشنر وحادثه فى الأمر فأجابه كتشنر قائلا :

«لقد بسطنا يدنا لتركيا فبصقت عليها،وولت وجهها شطر المانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيراً . ومع هذا فإنى لا أجد الوقت مناسبا لقبول فكرتك التى تدعو إليها» .

رجع لطفى بعد ذلك إلى رشدى وكان يعلم أنه قابل الخديو . فقال له : إن الخديو يرى أن يؤلف وفداً من عدلى باشا ، وسعد باشا ، ومنك للسعى لتحقيق هذه الفكرة مباشرة مع الحكومة الانكليزية والرأى العام الانجليزى .

وفى هذه الأثناء كان الأمير عمر طوسون وبعض الكبراء والأعيان

يقومون بجمع تبرعات لمساعدة تركيا فى الحرب بينها وبين ايطاليا . وكانت الصحف المصرية — عدا الجريدة — تشجع هذه الحركة . فانتهز الكاتب هذه الفرصة أيضا ، ولفت الرأى العام المصرى إلى هذا الخطأ ، وجاءت مقالاته كالقذيفة التى طاحت بالفكرة العثمانية كما رأينا .

لطفى والحرب العالمية الكبرى :

وقع مايخشاه العالم بأسره ، وأعلنت الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤ . وتبع ذلك اعلان الأحكام العرفية فى مصر من جانب انجلتره . فخف لطفى لمقابلة حسين رشدى رئيس الوزراء يومئذ وقال له :

أتدخل الحرب مجانا ياباشا ؟ إذا كانت انجلترة تريد أن تجرنا معها إلى هذه الحرب فلتعترف أولا باستقلال بلادنا ! !

فأجاب رشدى : من رأيى أنه لم يحن وقت ذلك بعد !

ولم يقتنع لطفى بهذه الاجابة ، حتى سعى فى تأليف وفد منه ومن رشدى وعدلى . وقابل الجميع (سير ونجت) وعرضوا عليه الأمر . وبعد لأى وعدهم هذا بأنه سيعمل على اثارة المسألة عند الحكومة البريطانية .

ثم ما زال الرجل يعد لطفى واخوانه ، ويمنيهم ، ويعبث بوعوده ومواثيقه حتى يئسوا منه جميعا ، وبلغ هذا اليأس بصاحب الترجمة أن قال : « سأكسر قلبى وأذهب إلى بلدى وأعتزل السياسة » وبالفعل قدم لطفى استقالته من رياسة الجريدة لرئيسها محمود سليمان باشا وسافر إلى قريته (برقين) وكان هذا آخر عهده بالصحافة المصرية .

قال صاحب الترجمة أيضاً :

« وما كادت تمضى على اقامتى فى (برقين) مدة طويلة حتى أعلن عزل الخديو عباس ، وأعلنت الحماية على مصر ونصب الأمير حسين كامل سلطاناً عليها .

وشاع بعد ذلك فى الهيئات السياسية فى مصر أن تركيا حكمت بالاعدام

على السلطان حسين وأعضاء وزارة رشدى باشا باعتبار أنهم قبلوا الحماية ، وحكمت علىّ أنا أيضاً باعتبار أنى قمت بحركة الجامعة المصرية سنة ١٩١١ .

لطفى يعود إلى الوظائف الحكومية:

وفى سنة ١٩١٥ كان لطفى فى القاهرة حين جاءه أبوه من برقين مذعوراً وهو يقول : « إنه قد أشيع عندنا أن سعد زغلول قبض عليه وأنا أخشى أن يكون قد قبض عليك أيضاً » . ثم ذهبا معاً إلى منزل على شعراوى فقال للطفى السيد : «إن السلطان حسين يرغب فى أن تدخل وظائف الحكومة» . فتنفس الوالد الصعداء وحث ولده على قبول الدخول فى الحكومة ، حتى لا يقبض عليه الانجليز . فقبل لطفى ذلك ارضاء لوالده ، وعين رئيساً لنيابة بنى سويف . ثم أوصى السلطان بتعيينه مديراً لدار الكتب المصرية خلفاً للدكتور شاده المدير الألمانى لها قبل ذلك .

وفى دار الكتب كان له متسع من الوقت لأن يترجم مؤلفات أرسطو ولأن يدعو من يثق بهم لترجمة بعض الكتب الأخرى . لأن النهضة العلمية والأدبية يجب أن تقوم فى مبدأ أمرها على الترجمة .

لطفى وثورة سنة ١٩١٩ :

منذ أعلن ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة المبادىء الأربعة عشر التى نصت فى جملتها على أن كل أمة مهما صغرت لها الحق فى اختيار مصيرها وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض إرادتها — طفق سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود يفكرون فى كيفية الاستفادة من هذه المبادىء .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ استقال لطفى السيد من دار الكتب ليشترك فى تأليف (الوفد المصرى) الذى تولى قيادة البلاد فى تلك الفترة .

وانتهى الأمر بنفى الزعماء إلى مالطة وهم : سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل . فاندلعت نار الثورة المصرية، واضطربت

أحوال الأمة. حتى لقد ألفت فى مديرية المنيا جمهورية برياسة الطبيب محمود عبد الرازق بك . وقطعت أسلاك البرق والسكة الحديدية .

وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات فى بعض مديريات الوجه البحرى وكان لطفى السيد يعنى بكتابة يوميات دقيقة عن الوفد المصرى والثورة . ثم أشيع أن السلطة العسكرية الانجليزية ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين . وتقبض عليهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى . وما كاد الخبر يصل إلى سمع الأستاذ لطفى السيد حتى خف إلى منزله بالمطرية ، وأحرق كل أوراقه السياسية التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى وعدلى وثروت — أحرقها يومئذ خوفاً على هؤلاء أن يصيبهم ما سيصيبه من الموت رمياً بالرصاص كما توقع .

وبقى لطفى ينتظر تفتيش منزله ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث فى تلك الفترة ، ثم اشترك أعضاء الوفد الباقين فى كتابة تقرير عن الثورة المصرية رفعوه إلى الماريشال اللنبى . وعلى أثر وصول التقرير استدعى الماريشال لطفى وصحبه وناقشهم واقتنع بحجتهم . فصدر الأمر بالافراج عن الزعماء المنفيين . وأبيح لأعضاء الوفد الباقين السفر إلى انجلترة على باخرة عسكرية انجليزية ذهبت بهم إلى مالطة ، واصطحبوا زملاءهم سعداً وصدقى ومحمد محمود وحمد الباسل . حتى إذ ما وصلوا مرسيليا جاءهم البرق بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر ! !

« فكانت صدمة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب وأعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم أجمع بالغبطة والاعجاب ، وبخاصة عند الشعوب المهضومة . »

ومع ذلك فقد ذهب الوفد إلى باريس وتقدم لمؤتمر السلام .

ولكن المؤتمر أغلق دونه الأبواب !

لطفى والجامعة :

وقع الخلاف بعد ذلك بين سعد زغلول وعدلى يكن على رياسة المفاوضات وانتقل الأمر إلى خصومة كان مظهرها التلاحى بينهما فرأى لطفى يومئذ أن يعتزل السياسة . ثم عرض عليه الرجوع إلى دار الكتب المصرية . فرجع اليها وأخذ يشتغل بها وبالجامعة المصرية القديمة التى كان وكيلا لها كما كان حسين رشدى رئيسها . وفى سنة ١٩٢٢ وضع لطفى منهاجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وقابل الملك فؤاد بشأنها ، وطلب منه أن تعتبر الحكومة شهادتها كشهادة المدارس العليا . فكان جواب الملك فؤاد :

«إن الحكومة عازمة على إنشاء جامعة. فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها » .

وعلى ذلك دعى مجلس ادارة الجامعة القديمة للانعقاد فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة إلى وزارة المعارف . وكتب لطفى بذلك عقداً أمضاه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وحسين رشدى رئيس الجامعة . ومنذ ذلك الحين أصبحت الجامعة المصرية القديمة التى أنشئت سنة ١٩٠٨ جامعة حكومية .

قال الأستاذ لطفى السيد :

«وعنيت بأن أذكر فى شروط هذا العقد بأن يكون الدكتور طه حسين أستاذاً فى الجامعة الجديدة » .

وبقى لطفى بدار الكتب المصرية إلى سنة ١٩٢٥ حين صدر مرسوم بتعيينه مديراً للجامعة الجديدة

لطفى السيد ورسالة الجامعة :

منذ ذلك الوقت والجامعة المصرية مصدر اشعاع كبير يشع منه التضامن القومى فى شتى الميادين . ومنذ يومئذ والجامعة المصرية صاحبة الأثر الكبير فى التطور الاجتماعى الذى أصاب المصريين . بل منذ يومئذ وللجامعة المصرية

رسـالة ذات أهداف كثيرة : منها تربية الأجيال المتعاقبة تربية تهيء للبلاد قادتها فى جميع المرافق الحيوية .

ومنها تشجيع البحوث الأدبية والعلمية ، ونشر الثقافة الأدبية والعلمية فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك بإباحة الانتساب للجامعة بمعاهدها المختلفة من غير قيد ولا شرط ، أم بالقاء المحاضرات العامة فى كل وقت ، أم بنشر الـكتب والمؤلفات فى كل مادة .

أما التطور الاجتماعى فتسعى إليه الجامعة بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة نثرها وشعرها ، والتجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة ، والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها . ومنها الموسيقى والغناء لما لها من الأثر الطيب فى الأخلاق .

وفى غفلة من الرجعيين والمحافظين فيها على العرف والتقاليد قبلت الجامعة الجديدة الفتيات المصريات طالبات فيها مع الطلبة . وحرص لطفى ومؤيدوه على ألا تثار هذه المسألة فى الصحف أو الخطب حتى يضعوا الحـكومة والرأى العام المصرى أمام الأمر الواقع (١) .

لطفى السيد وزيراً للمعارف العمومية :

أسند الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونيه سـنة ١٩٢٨ فدعا لطفى السيد للاشتراك معه فاعتذر له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيـداً عن السياسة ومشاكلها . فألح عليـه محمد محمود فقبل أن يكون وزيرا للمعارف العمومية . وهى الوزارة التى تتفق وميوله الشخصية وما يهدف إليه من خدمة الأمة عن طريق العلم والتربية .

---

(١) هكذا مرت الجامعة المصرية — كما قال ذلك لطفى السيد فى خطبة الاحتفال بوضع الحجر الأساس فى ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ بثلاثة أدوار هى : دور الدعاية ، ودور التنفيذ ، ودور التمام . بدأ الأول فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ حين اجتمعت لجنة من صفوة المصريين فى منزل سعد زغلول وتعاهدوا على الدعوة لانشاء الجامعة . وبدأ الدور الثانى بمحاضرات ثقافية عامة كان الأمير فؤاد رئيس الجامعة يشرف عليها يوميا . وبارسال البعوث الى أوربا وقد بلغ عدد المبعوثين أربعة وعشرين . وأما دور الحكم فكان بنقل الجامعة القديمة إلى الجامعة الجديدة .

غير أن وزارة محمد محمود لم تلبث أن استقالت فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرسون . فاعتكف لطفى فى بيته بين أوراقه وكتبه .

لطفى يعود لإدارة الجامعة :

وفى أوائل سنة ١٩٣٠ استدعى للعودة مديراً للجامعة المصرية . فارتاح لاستئنافه العمل بها . وحرص لطفى السيد منذ توليه إدارة الجامعة على أن يكون استقلالها محل الاحترام والتقديس .

« ولكن حدث فى مارس سنة ١٩٣٢ أن وزارة المعارف اعتدت على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته لكلية الآداب إلى إحدى الوظائف بالديوان دون أخذ رأى الجامعة متجاوزة فى ذلك حدود التقاليد الجامعية ولا أقول القانون » .

فغضب لطفى لهذا الاعتداء وخف لمقابلة رئيس الوزراء — وهو يومئذ اسماعيل صدقى باشا — وشرح له الموقف وقال له : « إن الجامعة لا تستغنى عن طه حسين » .

واقترح عليه تفاديا للضرر واحتراماً لرأى وزير المعارف — حلمى عيسى باشا — أن يعود طه حسين أستاذا بكلية الآداب لا عميدا لها . فوافقه الرئيس على ذلك .

ولكن شاع فى اليوم الثانى أن الوزارة رفضت اقتراح لطفى السيد فكف عن الذهاب إلى الجامعة وحرر استقالته منها . وكان ذلك فى ٩ مارس سنة ١٩٣٢ وبقى لطفى بعيداً عن الجامعة حتى أبريل سنة ١٩٣٥ حين كان نجيب الهلالى وزيرا للمعارف العمومية فى وزارة نسيم باشا الثانية . فطلب من لطفى أن يعود إلى الجامعة فاشترط تعديل القانون الجامعى بحيث ينص على أنه لا ينقل أستاذ فيها إلا بعد موافقة مجلس الجامعة .

وظل لطفى السيد مديرا للجامعة حتى أوائل سنة ١٩٣٧ حين اشتد الخصام

بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لأن الأحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالاخاء الجامعي . وتسقط فيه قيمة الشمائل الجامعية . فطلب لطفى من وزارة الداخلية تعيين (كونستبلات) لحفظ النظام ، لأن البوليس لايجوز له دخول الحرم الجامعي . ولما لم يجب إلى طلبه إستقال للمرة الثانية . وبعد ثلاثة أشهر أى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى فكان لطفى السيد وزير دولة . ثم أجريت الانتخابات وكلف محمد محمود باشا تأليف الوزارة للمرة الثانية فكان لطفى كذلك وزير دولة ثم وزيرا للداخلية . ثم ترك الوزارة ليفسح الطريق للسعديين وكان يرى أن المصلحة السياسية يومئذ تقضى باشتراكهم فى الوزارة .

وبعد ذلك بقليل اتصل به الدكتور حسين هيكل وزير المعارف وطلب إليه الرجوع إلى الجامعة فاعتذر ثم ألح عليه مراراً فقبل بشرط واحد فقط هو أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة فى الجامعة لأن اتصالهم بهم كان يفضى دائما إلى فقدان الإخاء الجامعى بينهم . وبقى فى الجامعة إلى سنة ١٩٤١ حين عرض عليه حسين سرى رئيس الوزارة أن يكون عضوا فى مجلس الشيوخ فقبل ذلك ليستمتع بالراحة بعض الشيء من أعباء الجامعة بعد أن خدمها فى عهدها القديم والجديد زمناً طويلا .

لطفى ومجمع اللغة العربية

نعود بالقارىء إلى سنة ١٩١٦ حين اجتمع لطفى السيد وعدلى يكن وحسين رشدى ويعقوب صروف واسماعيل عاصم المحامى وتحدثوا فى ضرورة إيجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعاً لوزارة المعارف العمومية . ويكون مقره مؤقتاً بدار الكتب المصرية. ثم اجتمع لطفى مرة أخرى بحفنى ناصف وعاطف بركات واشترك الثلاثة فى وضع قانون المجمع وتركوا رياسته للشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر. واقترحوا من أعضائه : الشيخ عبدالرحمن قراعة والشيخ محمد بخيت والشيخ السكندرى وحفنى ناصف وحلمى عيسى (باشا) .

ومن ألطف ما يذكره لطفى السيد عن هذا المجمع أنهم مكثوا سنة كاملة يتناقشون فى جواز التعريب . ثم انطوى هذا المجمع الأول ولم يعمر طويلا — إلى أن بعث من جديد . . . . ولم يزل لطفى مديراً لهذه المؤسسة العلمية الكبيرة إلى اليوم .

الرجال الذين عرفهم لطفى :

رزق لطفى حاسة تمتاز بالدقة فى تقدير الصداقة أو الأصدقاء . وكان له بصر بنفوسهم وطباعهم ، وبمقدار ماينفعون الأمة بمواهبهم وآرائهم وتجاربهم فى الحياة .

أضف إلى ذلك أن الرجل كان رئيساً لتحرير « الجريدة » . وسنرى أنها كانت الصحيفة المصرية الأولى فى فترة من فترات التاريخ المصرى الحديث ، هى الفترة التى وقعت بعدها الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . ولرئيس التحرير فى الأمم الراقية مكانة ممتازة بين سادة هذه الأمم وكبرائها وساستها . وآية ذلك أنك لا تعرف فى انجلترة إلا ثلاثة رجال ، وهم رئيس الوزراء ، ورئيس البنك الأهلى ، ورئيس تحرير التيمس .

ولطفى السيد من أولئك الرجال الذين كانوا يدركوا هذا المعنى ادراكا عميقاً ، وكان يزن الرجال من أمثاله وزناً دقيقاً كما رأينا .

عرف لطفى كثيرين منهم السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وحسين عاصم ، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول وسعد زغلول ، ورشدى ، وعدلى ، وثروت ، ومحمد محمود ، وعبد العزيز فهمى وغيرهم .

ولكن حين جلس إلى نفسه منذ أعوام قليلة عاودته ذكرى تلك الصداقات القديمة فخص خمسة رجال بالكتابة عنهم فى المذكرات وهم حسين عاصم . ومصطفى كامل ، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول ، وعبد العزيز فهمى .

قال فى حسين عاصم :

عرفته رئيسا (يوم كان يشغل وظيفة أفوكاتو عمومى) وعرفته صديقا

ثم عرفته مستشارا ثم سر تشريفاتى الخديو عباس حلمى الثانى ، ثم رئيسا للديوان الخديوى . فما وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبادىء ، وأقوى تمسكا بنهج الاستقامة من هـذا الرجل . فمن عرفه عرف خلقا صريحا لا يتلون ، وسيراً قويما لايعوج ، ومبادىء راسخة لاتتغير . حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطرف وشدة التمسك بالحق . ويعدون ذلك عليه جفاء فى الأخلاق ، وما به جفاء . ولـكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش فى ميدان القتال .

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق أنه كان فى فترة ما بين الفصل من عمله وعدم الفصل فوضع مشروعا يقضى بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتبا باليومية من محكمة الاستئناف التى غصت بالـكتبة إلى المحاكم الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة إلى الموظفين فدخل عليه باشكاتب المحكمة بخطاب نقل هذا الجم الفقير من الموظفين وقال : مالك ولهذا العمل والأمر بفصلك تحت الختم ؟ فأجاب : إنى لا أشتغل إلا للأمة . وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى فلا مندوحة لى عن القيام بواجبى[1] » .

وقال عن (مصطفى كامل) :

كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية . وإذا قلت الوطنية فإن أول مايتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل . كأنما هو الوطنية والوطنية هو .

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هـذه المظاهرة التى لم نعرف لهـا فى ذلك الزمان مثيلا . فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه . فدل هذا على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسياً بل هو أعلى من ذلك هو التضامن القومى والجامعة الوطنيه .

---

(١) المصور فى ٢٩ سبتمبر ١٩٥٠

وكتب عن (قاسم أمين) :

فسرد تاريخ حياته ثم قال : « من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث . وعلى الرغم من ذلك فان نفسه كانت مستعدة لأن تتعلم من الملاحظة الذاتية والتجارب . فان قاسما قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الأشياء والناس . . .

ولقد بحث قاسم فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائماً لقوانين الطبيعة ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى والانتقال ، وبحث فى المسألة الاجتماعية فى مصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية .

ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة . فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية وأطال فى ذلك التفكير » الخ .

وقال عن (فتحى زغلول) :

أرى من الوفاء لمبادىء الحرية وخادميها أن أذكر فى هـذه الصفحات صديقاً عظيماً عمل على نشر هذه المبادىء ؛ هو المرحوم محمد فتحى زغلول باشا . فقد نظر نظرة صادقة إلى حال الأمة المصرية وحكومتها ، فرأى أنها أحوج ماتكون إلى معرفة المثل الأعلى الذى تبغى الوصول إليه من نظمها السياسية والاجتماعية ، حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة . ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلماء هى نقل العلم إلى أوطانهم بالترجمة . إن هذه الطريقة هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان.

وفى سنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب (العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك (أصول الشرائع) لبنتام و (خواطر

وسوانح فى الإسلام) للكونت هنرى دى كاترى ، و (سر تقدم الإنجليز السكسون) لريمون ديمولان . و (روح الاجتماع) و (سر تطور الأمم) لجوستاف لوبون . وقد نشرت هذه الكتب كلها . وله فوق ذلك كتاب (بورجار) فى الاقتصاد السياسى ، و (تمدن العرب) لجوستاف لوبون أيضاً و (جمهورية أفلاطون) ، و (الفرد ضد المملكة) لسبنسر . وهذه الكتب الأربعة لم تطبع . . ومترجمات فتحى زغلول تقرأ فيها المعانى والأغراض كأنك تقرأ مؤلفها من غير فرق ، وكان غرضه منها نشر مبادىء الحرية ، حرية الفرد ، وحرية الأمة، وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعاً إلى اتخاذ مثل أعلى ليكون قبلة لهم فى آمالهم الوطنية . .

وأن توفيق فتحى زغلول فى اختيار مترجماته يدل على أنه كان يعتنق مذهب الديمقراطيين ، سواء كان ذلك فى التربية والتعليم ، أم فى الأصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضاً . لأنه لو كان اشتراكياً فى الاقتصاد لما عمد إلى ترجمة بورجار فى الاقتصاد السياسى؛ بل يكون قد عمد إلى ترجمة أحد الاقتصاديين الاشتراكيين مثل (جيد)[1]

(اختيار الرجل وافد من عقله) إذا صدق ذلك على ترجمات فتحى زغلول فإنه يصدق أيضاً على كتابات لطفى السيد . فقد اختار أن يكتب عن حسن عاصم لقوته فى الحق ، وقاسم أمين لميله إلى التجديد ، ولأنه رسم الطرق المؤدية إلى تطور الأمة ، ومصطفى كامل لأنه نبى الوطنية ، وفتحى زغلول لأنه كان رجل تقدم تطورى لا رجل ثورة . وكل هؤلاء الرجال ليسوا من أرباب المناصب . ولكنهم من أصحاب المذاهب . وكاتبنا الفيلسوف إنما يقدر هذا الصنف الممتاز وحده من الرجال ممن يرون أن حياة الفرد إنما تقدر بما يتم فيها من عمل صالح .

---

(١) المصور فى ٣ نوفمبر ١٩٥٠

وأما (عبد العزيز فهمى)(١) وكان من ألصق الناس به فكتب عنه فى الجريدة يقول :

« قد يجد المرء ذو الطعم على نفسه غضاضة أن يعلن عن صديقه فضائله الشخصية أو محامده العامة . لأن هذا يمسه عن قريب ، وينعكس لمعابة عليه على كل حال . فأوشك بالكاتب عن ذاته أو صديقه أن يبتسم له القارىء فيقول : مادح نفسه يقرئك السلام ! .

غير أن للواجب مآزق تلجىء إليها ضرورة القيام به . وعلى الصحفى ألا يدع صغيرة ولا كبيرة من الحوادث النافعة فى التنبيه على خلق كريم أو الدلالة على مشاعر عاليات ، لتتم للناس القدوة الحسنة ، وليكون آية للأعقاب يهتدون بها ، وتسكن أنفسهم إلى إيثار المنافع العامة على المنافع الشخصية — عليها جميعاً حتى على الصحة التى هى أنفس متاع فى الحياة . بهذه المثابة يجب علينا الحرص فى مسألة الأستاذ عبد العزيز — تلك المسألة التى اشتغل بها الرأى العام منذ أسبوع .. اللهم لك الحمد والمنة على أن جعلتنا نسمع بآذاننا ، ونرى بأعيننا أن يقف الرأى العام لعبد العزيز موقف الذى يعتقد أن هذا الرجل الحر ليس له التصرف فى نفسه وملكاته ، بل هى وقف على خدمة الأمة فيما تشاء الأمة . غبطة تسيل لها الدموع الباردة فرحاً بأن زمن الهدم قد تولى — لارده الله — وقد جاء بدله زمن بناء الرجال إلخ .

ثم شرح الكاتب الظرف الذى حمله على كتابة هذا المقال ، ويتلخص فى أن الحكومة طلبت إليه أن يقبل القضاء فى محكمة الاستئناف ، ويترك الجمعية التشريعية .. فثار لذلك الرأى العام . « حتى قال لى يوماً كبير الحريين : تلك جناية على الجمعية تبوء أنت بشطر من المسؤولية عليها . وإذا كان هذا هو رأى سعد زغلول ، فما عسى أن يكون رأى الباقين ؟ وماذا عساك تسأل عما ورد علينا من الاحتجاجات من قبل الشبيبة المتعلمة فى القاهرة ، ومن أعماق القرى والكفور ؟ . »

(١) الجريدة فى ١٥ إبريل ١٩١٤

إن عبد العزيز بتواضعه المشهور لعله لم يقدر ضرورة بقائه فى الجمعية بالقياس الذى قدره به جميع أعضائها والرأى العام . إنه رجل قانون طلب إليه خدمة القانون بمحكمة الاستئناف ، فكان حاله كالجندى طلب منه أن يحمل سلاحه محل جندى آخر فى ميدان الجهاد . . شغل بشغل، وخدمة للحق هنا وهناك . خدمة للأمة فى الحالين . فما يكون من التفضيل فى نظره إلا اعتبارات شخصية . وليس لديه من طمع إلا العفاف بالكفاف . فلا مفضل إلا مايتفق مع مزاجه ويتمشى مع حال صحته . ولقد علم أصحابه أن طبيبه نصحه غير مرة بعدم استمراره فى الجمعية التشريعية . . قالها وقوله حجة فكان ذلك هو المرجح عند الأستاذ عبد العزيز واخصائه . فلما رأى أن الأمة التى أنابته تحرص على نيابته ، وأصحابه فى المجلس يحرصون على الاحتفاظ به بينهم قال : وصحتى أيضاً فداء .

* * *

أخلاق لطفى السيد :

تلك حياة رجل من رجالات مصر أنعم الله به عليها . فكان عقلها المفكر ، ورأسها المدبر ، ومثلها الأعلى فى سعة الأفق ومتانة الخلق . كان أبوه من باشوات الريف ، فنشأ فى بيت نعمة وثروة ، بعيداً فى أول أمره عن زحمة الحياة إذ عاش فى قرية لا يزيد عدد سكانها فى طفولته عن المائة . فلم يكن عجيبا أن ينشأ الفتى رضىء النفس ، سليم القلب ، رقيق الجانب ، وديعا ، ظريفا ، مؤثرا للمسالمة والمحاسنة ، يألف الناس ، ويألفه الناس ، يرى (الفتوة) الحقيقية هى فتوة الفعل ، والكمال الحقيقى هو كمال الروح . ولعل أهم ما يميز الفتى منذ نشأته صفات ثلاث : صراحة صادرة عن شعور بالكرامة ، وتقدير دقيق للأصدقاء والصداقة ، وسمو حقيق فى الإدراك والعواطف .

أما الصراحة فلازمة له ملازمة تامة فى جميع مراحل حياته إلى أن إشتغل بالصحافة . ومن ثم كان الفرق بعيدا بينه وبين رجل كالشيخ على يوسف ،

كان لمكره ودهائه معروفاً بين رصفائه وزملائه باسم (ثعبان الصحافة) .
غير أن الفرق بين لطفى السيد ومصطفى كامل جاء من خلاف آخر . فقد كان مصطفى كامل ثائراً ، يحمل نفسه وصدره ودمه وأعصابه ما لا تطيق . بينما كان لطفى مسالما مؤثرا للوادعة واللين ، وللرفق فى معالجة الأمور .

وأما تقدير لطفى للأصدقاء والصداقة فقد بلغ من ذلك حظاً يعز على الكثيرين حيث يقول :

« صديقى الذى أذكره كلما لمعت أمام عينى لامعة من السعادة . أذكره كلما طابت نفسى ، ورضيت بمركزها الخاص والعام فى الحياة ، أذكره كلما نعمت بشىء من نعيم الحياة . أذكره عند الضائقة النفسية . أذكره عند الشدة الخاصة والعامة . أذكره عند الرجاء وعند اليأس . أذكره عفوا لا عن طريق التفكير ، بل كأنه لازم من لوازم النفس ، وأعتقد أنه كذلك ... الخ[1] .

وأما سعة عقله ، وسمو عاطفته ففيما ترك لنا من آثار أكبر دليل عليهما.

غير أنه كلما اتسعت ثقافة الرجل اتسع أفقه ، وضعفت مع ذلك إرادته نوعاً ما . ومن هنا كان الفرق عظيما بين الفيلسوف والقائد العسكرى . أما القائد فاذا عرضت له مشكلة من المشاكل لم يجد أمامه إلا حلا واحدا . وأما الفيلسوف فإن عقله يهديه إلى حلول كثيرة فى وقت واحد ، يحار بينها ، ويفقد جزءا عظيما من عزيمته بسببها . ومن أجل ذلك ما برح الناس يفكرون دائما فى هذه المشكلة ؛ وهى هل يصلح المجتمع إذا ولى الفلاسفة أمره ؛ أى إذا أصبحوا حكاما حقيقيين للشعب ؟

وصاحب الترجمة قد عاشر كثيرا من زعماء هذه الأمة ، وكان عنصراً هاما من عناصر الأحداث السياسية الهامة ، وكان خليقا بأن يكون القائد الأول للثورة المصرية الكبرى فى سنة ١٩١٩ . ولكن قائد تلك الثورة ؛ وهو صديقه (سعد زغلول) كان أكثر منه صلاحية : وكل ميسر لما خلق له ،

---

(١) الجريدة فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٠

وسبحان من قسم المواهب بين عباده ، وخالف بينهم فى الطباع الانسانية . فرجل كلف بالكفاح ، يرى فى الصلابة والأصرار طريقا إلى النجاح ، وآخر يرى فى الملاينة والمصابرة وسيلة من وسائل الظفر بأمانى البلاد .

على أن لطفى إن عابه أن يكون الزعيم الأول للثورة المصرية ، فلم يزل إلى يومنا هذا الزعيم الروحى الأول لهذه الأمة . جاهد جهاده من أجلها غير ناظر لنوازع الشهرة الكاذبة ، ولا لبريق المناصب العالية .

وحين اختلف الأحزاب من حوله أبت عليه نفسه الطاهرة ، وأخلاقه الشريفة أن يغمس يده فى آثام الحزبية ، أو يناله شىء من مساوئها المتعددة . فآثر اعتزال السياسة — كما رأينا — لا ليضن على قومه ووطنه بقلبه وعقله وقلمه . ولكن ليقدم لهذا الوطن خدمات من نوع آخر .

الحق أن الدين الذى له فى عنق مصر لا يقل فى نظرنا عن الدين الذى لأمثاله من زعماء مصر ممن أشرنا إليهم فى كتبنا ، أو أشاد بهم غيرنا . فالله يحفظه ويمد فى أجله السعيد .

لقد أطلت فى الحديث عن حياة لطفى السيد ، لأن حياته فى الواقع حياة مصر فى تلك الفتره ، ولأنى استغنيت بهذا الحديث عن الكتابة فى الحالة السياسية أو الحالة الفكرية أو الحالة الاجتماعية وحركة الأحزاب المصرية . ولولا ذلك لوجدت من واجبى أن أخص كلا من هذه الجوانب الأربعة بفصل من فصول هذا الكتاب .

الفصل الثانى

لطفى السيد والجريدة

اختلفت الحكومتان التركية والمصرية حول مشكلة « العقبة » كل تدعيها لنفسها وترى أنها أحق بها من الأخرى. ووقف الثعلب البريطانى بينهما للصيد فى الماء العكر، فانتصر لمصر ضد تركيا . ولكن الصحف الوطنية المصرية تنبهت لهذه الخدعة السياسية ، ونصرت الأتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما فعلت من قبل فى مشكلة (فاشودة) التى انحاز فيها المصريون لفرنسا ضد انجلترة . وهذا معنى لا يمكن تفسيره إلا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال ، فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر .

وشاع خبر العقبة فى جميع الأوساط المصرية ، وأصبح حديث الخاصة والعامة . وأنشأ المفكرون فى الأمة يفكرون كعادتهم فى الحالة السياسية . أما لطفى السيد فبعد أن تحدث طويلا مع أصدقائه فى هذه المسألة خرج بنتيجة واحدة ، هى أنه لا بد لهم من « إنشاء جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو إلى إحدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد » . وقد رأى أن تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من أعيان البلاد أصحاب المصالح الحقيقية فيها ، وهم الذين وصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال ، ساكتون عن حقوق مصر ، وأن الحركة المعارضة للاحتلال إنما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشبان الأفندية والباشوات الأتراك ونحوهم .

يقول لطفى السيد :

« لهذا الغرض دعوت فى الكونتنتال أصدقاءنا محمد محمود، وعمر سلطان،

وأحمد حجازى ، ومحمود عبدالغفار . وتحادثنا فى الأمر ، ولاحظنا فى حديثنا وأبحاثنا أن الأمل الذى كان المصريون يعقدونه على فرنسا فى المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترة فى أبريل سنة ١٩٠٤ . وأنه لا يمكن الاعتماد على أية دولة أخرى فى المسألة المصرية » .

وفى منزل محمد محمود باشا اجتمع أولئك الأصدقاء مرة أخرى وألّفوا بينهم شركة تسمى شركة (الجريدة) ، وانتخبوا لطفى السيد مديراً ورئيساً لتحريرها ، وذلك لمدة عشر سنوات ، براتب شهرى قدره خمسون جنيها مصريا . وكان لنبأ هذا الراتب الشهرى دهشة كبيرة فى المجتمع المصرى الذى بدا ينظر باحترام كبير إلى مهنة الصحفى ؛ بعد أن كان لا ينظر إليها هذه النظرة !

يقول الأستاذ لطفى فى مذكراته :

« وعلى أثر تأليف هذه الشركة أخذت الجرائد المتصلة بالخديو تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، وأننا نمالئهم ضد الخديو . وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ؛ لأنه كان بين شركائنا فى الجريدة — عدا الأعيان — طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة . ومن هؤلاء أحمد فتحى زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر ، وأحمد عفيفى (باشا) المستشار بالاستئناف ، وعبد الخالق ثروت (باشا) عضو لجنة المراقبة وصاحب الأثر الكبير فى وزارة العدل إلخ » .

نعم — كانت الحاجة ماسة إلى ظهور الجريدة كما قلنا . وكان من رأى الصفوة المهذبة فى الأمة — وفيهم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ — أنه مادامت هناك صحف تنصر الخديو كصحيفة المؤيد ، وأخرى تنصر المعتمد البريطانى كصحيفة المقطم ، فلا بد من ظهور صحيفة تحاسب الجهتين معا وتنصر الأمة . وإذ ذاك دعت الضرورة إلى تأليف (حزب الأمة) من جهة ، وإلى إصدار (الجريدة) من جهة ثانية . ثم سرعان ما حيكت المؤامرات التى

أشرنا إليها ، واندس الواشون إلى الخديو بتلك التهمة ، وبقى الخديو مصدقا لها حتى بعث مرة إلى لطفى السيد يدعوه لزيارته فى قصره . فاعتذر لطفى على ذلك بقوله :

« إننى لا أرى من حق الكاتب أن يزور السلطان فى بيته ! » .

فما كان من الخديو إلا أن زار والد الأستاذ لطفى فى قريته (برقين) . ثم أمر بعد ذلك أن يشخص إليه الكاتب فى (عابدين) وخصص موعداً لذلك هو فى العاشرة صباحا من كل يوم جمعة . ومع هذا وذاك فما غير الكاتب من سياسة (الجريدة) ، ولا بدل من خطتها .

* * *

وصدر العدد الأول من (الجريدة) فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ — أعنى فى اليوم التاسع من خروج اللورد كرومر من الديار المصرية — وبه مقال افتتاحى هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الجريدة

ما الجريدة إلا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح . ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الأخذ بها وإخلاص النصح للحكومة والأمة . بتبيين ما هو خير وأولى . تنقد أعمال الفرد وأعمال الحكومة بحرية تامة ؛ أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم ؛ وهو الأمة .

ولقد اختلف القوم فى أمر الجريدة منذ وضع مشروعها . وقدر بعضهم لها مذهبا ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم

لكان خيراً لهم ، وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفت فى أعضاد الجامعة الوطنية . ولكنهم لايصبرون .

ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان . ولكن بعض الكتاب أبى إلا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها ، فخلق لها نسبا لا تعرفه . إذ يقول إنها متحيزة إلى طرف دون آخر . على أنها من كل ذلك براء .

ومهما يكن من الأمر فإنا نمر بتلك المغامز مرا ؛ إذ لانقصد درء شبهة ، ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهرنا فيه على صاحبه أخسرنا لوقته . وكل فى حل مما قال :

هنيئا مريئا غير داء مخامر (١)

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها ، واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات فى حال الأمة السياسى هو التشابه فى الرأى بين الأفراد . وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

وعلى هذا تكون الصحافة هى الآلة الكبرى للارشاد والرقابة ، تتبعها فى فى طورهما الاجتماعى ، وتترقى برقى الأمة حتى تنتقل — كغالب الأعمال العامة — من يد الفرد الذى قد يعرض له الميل أو الوهن إلى أيدى الجماعات . لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً ، وأثبت رأياً ، وآمن هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث متقلبا .

« وأن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ، ومراقبة الأحوال العامة ، وأقدرها على العمل لتكوين الرأى العام جماعة أولى الرأى . وهم الذين نبهوا ذكرا بعلو النسب أو بالعلم أو الفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة من نشر التعليم العام والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة ،

---

(١) تكملة البيت (لعزة من أعراضنا ما استحلت)

والأخذ بنصيب من الرقابة العامة وقفت الأمة عن التدرج فى مراقى المدنية الصحيحة ، خصوصا فى حالها النظامى . وصار الأمر فيها مفوضاً إلى رغائب الحكام يميلون بها إلى حيث يشاءون .

« وما كان أعضاء شركة « الجريدة » المصرية لينشئوها إلا لتحقيق هذه المبادىء الراسخة . ولأنهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم واشتراكهم معها فى كثير من الأعمال العامة ، ولأن أمثالهم لايجتمعون لعمل ذى أثر سياسى إلا أحاطت بهم الشكوك رأوا أن يكاشفوا الحكومة فى أمر المشروع دفعاً لتلك الشكوك المحتملة ، وأخذاً بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ . لأن الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها إذا اقتنعت بأنها لمصلحة الأمة .

« وإن أسهل سبل الاقناع وأكثرها للوصول إلى الغرض هو سبيل المحاسنة التى لاتجر إلى ترك حق ، أو تزيين باطل . وهى أجلى مظاهر الاعتدال الذى يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ، كلتاهما فى طور التكون لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على موطن المصلحة وآمال الأمة ، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتعطل بذلك أسباب الرقى التى يتوقف حلها على اشتراك الطرفين .

أما خطة الجريدة فإنها مرسومة بأدق مما ذكرنا بياناً فى المادة الثالثة من قانون الشركة ونصها :—

« الجريدة مصرية بحته . غرضها الدفاع عن الصوالح المصرية على اختلاف أنواعها وارشاد الأمة بأسرها إلى منافعها الحيوية الصحيحة ، ونشر مافيه فائدة مادية أو أدبية ، ونقد كل عمل له مساس من أى جهة كانت بتلك المنافع والصوالح ، سواء كان ذلك العمل عاماً أو خاصاً ، مهما كان مصدره ، ومهما كانت صفة القائم أو الآمر به ، وبيان صالح ذلك العمل من فاسده ، وقول

الحق فى الحالتين . حتى يتكون بهذا رأى عام على أساس متين من صدق النظر وحسن التفكير : يقول قوله بلسانها ، ولا تنطق هى إلاّ عنه . فيتأيد حينئذ جانب المنفعة للأمة كلها ، ويصل هـذا الصوت الصادر من نظر مجرد عن كل غرض إلى الهيئة الحاكمة ، فيحل محل الثقة فيها ، وتتضافر الهيئتان على خدمة تلك الصوالح والمنافع . لا فرق فى ذلك بين الأديان ، ولا تمييز بين الأجناس . هذا مع نبذ الشخصيات ، وعدم الخوض فى المنازعات الدينية المحضة ، وألا تستأجر فى غرض ، وألا تستخدم لأحد ، مع التزام الاعتدال فى جميع الأحوال » .

وليحيط القراء علماً بجميع ما يتعلق بمشروع الجريدة ، ولكى لا نضطر إلى العودة إليه ننشر لهم أسماء أعضاء الجريدة المصرية وهم :
(ثم ذكر الأسماء وعددهم مائة[1]) .

والله المسئول أن يثبت أقدامنا فى طريق الحق ، وأن يلهمنا الصواب فيما نحاول من الخدمة العامة . إنه الهادى المعين ».

احمد لطفى السيد

يقول لطفى السيد فى مذكراته :

« وكان من عادتى أن أكتب افتتاحيات الجريدة ولم يمض على صدورها غير أيام حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر . وخطب خطبته المشهورة فى دار الأوبرا ، وعلقت الجريدة عليها تعليقاً لا يقل عنفاً عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقها وعلى مبادئها ؛ تنقد أعمال السلطة

---

(١) منهم على سبيل المثال :
ابراهيم بك رمزى — واحمد فتحى بك زغلول — والسيد محمد خشبه بك — وحسن بك صبرى — ومحمد بك الباسل — وراغب بك عطية — وسليمان بك أباظه — وعبد الخالق بك ثروت — وعبدالعزيز بك فهمى — وعلى شعراوى باشا — وعمر بك سلطان — والحفنى بك الطرزى — وعلوى بك الجزار — ومحمد محب باشا — ومحمود بك عبد الغفار — ومصطفى بك رشيد — ومصطفى بك كامل الغمراوى .

الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد أعمال السلطة الشرعية — سلطة سمو الخديو ».

وإذ ذاك فقط آمن الناس أن « الجريدة » ظهرت لتسد حاجة البلاد الماسة إلى هذه الغاية الشريفة . وأحست الأمة المصرية احساساً عميقاً بأنه لا معنى فى الحقيقة لأن يكون للسلطة الشرعية صحفها التى من أولها (المؤيد)، وأن تكون للسلطة الفعلية صحفها التى من أخطرها (المقطم) ثم لا يكون للشعب المصرى الواقع بينهما صحيفة تنطق باسمه وتدافع عنه ، وتضع فى الوقت نفسه حداً للتلاعب من جانب إحدى هاتين السلطتين ضد الأخرى .

أسرة الجريدة

أما أسرة الجريدة فكانت تتألف من كتاب ومترجمين نذكر منهم الأساتذة :

يوسف البستانى ، ونجيب شاهين (وهما الترجمة البرقيات الأجنبية وكتابة المقالات السياسية) ، وعبد الحميد الزهراوى ، ورشيد رضا ، وعبد القادر حمزة ، ومحمد السباعى ، وعبد الحميد حمدى ، وابراهيم رمزى ، وأحمد زكى ، وعبد الرحمن شكرى ، وعبد السلام ذهنى لكتابة المقالات الاجتماعية ، والعلمية ، والأدبية ونحو ذلك .

وكان يتصل بالجريدة من آن لآخر عدد من شباب مصر الممتازين بالثقافة العالية ومنهم على سبيل المثال :

طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد حسين هيكل ، وتوفيق دياب ، وعباس العقاد ، وغيرهم .

ومن الشعراء الناشئين أيضا :

حافظ ابراهيم، ومصطفى صادق الرافعى، ومراد فرج ، واسماعيل صبرى وعبد الحليم المصرى ، ونقولا الحداد ، ورشيد مصوبع ، ونقولا رزق الله

وغيرهم ممن سنعرض لهم مرة أخرى إن شاء الله فى الفصل الذى عنوانه (الجريدة فى الميدان الأدبى) .

* * *

فى ذلك الوقت كانت مساوىء الاحتلال البريطانى قد استشرت وتبين أثرها فى كل من الحالة الحكومية والإدارية والحالة الاجتماعية والخلقية والحالة الاقتصادية بما لا يدع مجالا للشك فى أن المصريين إذا أصبحوا يرضون بهذه النتائج فقد حكموا على أنفسهم بالموت الأبدى .

(فأما الحكومة والإدارة) فقد فسدتا فساداً تاما . ألا ترى أنها كانت حكومة مزدوجة ؟ وأن السلطة فيها أصبحت موزعة بين شريكين لا توافق بينهما ، هما الخديو من جهة والانجليز من جهة ثانية ؟ وعلى الرغم من أن القانون الإدارى لسنة ١٨٨٣ ينص على أن الاحتلال ليس له سلطان على النظار ، وعلى أن كل سلطة توخذ من الحاكم الإدارى وتعطى للحاكم القضائى تعتبر كسباً للأمة ، وعلى أن كل توسع فى مجال الانتخابات يعتبر تقدماً نحو الحكومة الذاتية — على الرغم من كل ذلك نرى الاحتلال يعين فى كل نظارة مستشاراً انجليزياً له السلطة الحقيقية ، وللناظر السلطة الإسمية . ثم لم يقف التعدى على الأمة عند هذا الحد ، بل تعداه إلى أمور أخرى . منها فرض الرقابة الشديدة على القضاة من جانب الإداريين الذين أصبح لهم حق الإشراف على التحقيق الجنائى . كما أصبح لنظارة الحقانية الحق فى فصل قضاة الاستئناف فى المحاكم الجنائية . ومنها أى من تلك الأمور جعل انتخاب العمد بمحض إرادة الداخلية بوساطة لجنة إدارية . . « وكل ذلك يظهر لنا أننا فى جميع نظاماتنا وتشريعاتنا نتقهقر إلى الوراء ، وأن العنصر الوطنى فى الحكومة ينزل عن السلطة شيئاً فشيئاً ، والعنصر الانكليزى يأخذ السلطة شيئاً فشيئاً ، والنظام البيروقراطى يميل إلى تركيز السلطة أو حصرها فى شخص الرئيس الانجليزى دون الأهلى » .

و (أما الحالة الاجتماعيــة والخلقية) فقد نالها التقهقر من نواح شتى. أهمها ثلاث :

ناحية التعليم وطريقته وهدفه . وناحية العلاقات بين الأسر التى تألف منها المجتمع المصرى ، وناحية الفضائل العامة .

وطريقة التعليم هى (الكتّاب) التى لاتنمى من الملكات إلاملكة الحافظة . والهدف من التعليم هو إخراج القطع التى تحتاج اليها الآلة الكبرى ؛ وهى الحكومة .

وقد حمّل الأستاذ لطفى السيد الاحتلال البريطانى نتائج الفساد الذى أصاب التعليم ، والروابط العائلية ، والفضائل العامة فى الشعب المصرى [١] .

أما (الحالة الاقتصادية) فقد اعترف لطفى السيد بما لكرومر من فضل فى هذه الناحية . وذلك بإنشائه البنك الزراعى ، والبنك الأهلى ، وتشجيع المصارف والشركات الأجنبية . ولكنه رأى فى قيام الأجانب بهذه الجهود وصرف الوطنيين عنها مساساً بالاستقلال الفعلى للبلاد ؛ إذ أن المصريين إنما يشاركون فى هذه الحركة المالية كما يقول صاحب الجريدة « على الوجه الانفعالى لا على الوجه الفاعلى . يتأثرون بحركة السوق ولا يؤثرون فيها . لا يملكون التصرف فى الأمور المالية ، ولكنهم موضع التصرف فيها . كأنما أموالهم وأعمالهم ليست إلا محلا للاستغلال الأجنبى الخ »

ولو كان لأهل البلاد بنوك أهلية لما أمكن أن تغلو الشركات فى العبث بحقوق المساهمين ولما أصيبت البلاد بهذه الأزمة المالية التى طال أمرها »[٢].

ثم إن الانجليز قامت قيامتهم وثارت ثائرتهم لنضوج هذا الوعى القومى وجعلوا يرمون المصريين بشتى التهم . فمرة يتهمونهم بنكران الجميل . وأخرى

---

(١) وذلك فى الخطب التى القاها فى نادى حزب الأمة ونشرت بالجريدة بتاريخ ١٧ مايو ١٩٠٨ .

(٢) من أجل هذا كان تأسيس بنك مصر أول عمل قومى لناهضة هذه السياسة .

يدعون أن الحركة الوطنية موجهة ضد الخديو . وفى ثالثة يدعون أن التعليم أفسد الخلق الشرقى . وفى رابعة يصادرون بعض الصحف .

ومعنى هذا كله أن الانكليز أصبحوا يبالغون فى الخوف من الحركة الوطنية من ناحية ، ويبالغون فى إظهار احتقارهم للمصريين وقله الثقة بهم والطعن فى كفاياتهم من جهة ثانية . ومن ثم نشر الاحتلال رجاله فى كل وزارة وكل إدارة . فكنت ترى فى كل محكمة قاضياً انكليزياً ، والمفتش فى الداخلية انكليزياً ، والحكمدار انكليزيا ، والمستشار انكليزيا ، ومفتش الرى انكليزيا ، وناظر المدرسة انكليزيا ، ومستشار المعارف انكليزيا وهكذا ...

وتكلم الناس فى كل ذلك حتى شاع أن أحد رؤساء المحاكم المصرية قال مرة لقاضيه الانكليزى «أنا فى حمايتك ياسيدى»[1] .

على أن إهانة الشرف المصرى لم يقتصر مظهرها على الأفراد أو الموظفين فى دور الحكومة . ولكنه تناول الأمة بأسرها فى ظروف كثيرة ؛ من أهمها الظرف الذى طالبت فيه الجمعية العمومية بمجلس نيابى ، واتبعت ذلك بمطلب آخر أكثر تواضعا منه ؛ هو توسيع اختصاص المجالس القائمة . فرفضت الحكومة كل ذلك . وجاء رفضها بتلك الصورة إهانة لإرادة الشعب المصرى .

* * *

تلك هى الظروف التى نشأت فيها هذه الصحيفة الوطنية الجديدة ونعنى بها (الجريدة)؛ لا لتنصر السلطة الشرعية، ولا لتنصر السلطة الفعلية ، ولكن لتعبر عن رأى الأمة فى كل مطلب من مطالبها . ونستطيع أن نلخص أهداف هذه الصحيفة فيما يلى :

(أولا) نشر عقيدة الاستقلال بين أفراد الأمة المصرية ودحض الفكرة القائلة بأن مصر يمكن أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا أو تركيا . فلا سبيل إلى حرية المصريين إلا بجهود المصريين .

---

(١) أنظر صفحات مطوية ص ٢٧ .

(ثانيا) السعى لإزالة الفروق فى الرأى بين المصريين ، وإحلال التشابه فى العقيدة محل الخلاف فيها . وبعبارة أخرى تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى من جديد . وبذلك يتحد المصريون فى أهدافهم مهما اختلفت آراؤهم .

(ثالثا) إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع . والنظر فى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها ، مستقلة عن غيرها من الدول ، ومنها الدولة العثمانية نفسها .

(رابعا) توجيه النقد إلى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد ، والنظر فى هذا النقد لمصلحة المصريين وحدهم من غير تحيز لأحد الجانبين السابقين فى حال اختلافهما ، أو فى حال اتفاقهما ، أو فى الحال التى يكونان عليها بين بين .

(خامسا) المطالبة بالدستور والدأب على هذه المطالبة (بعد إذ تبين للمصريين أنه يستحيل عليهم التقدم فى سبيل المدنية خطوة إلى الأمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة فى الأعمال العامة) . ولن يكون ذلك إلا بحصول الأمة على الدستور ولو بالتدريج ، عن طريق الدفاع عن مجالس المديريات ، ومجلس شورى القوانين ، وتوسيع اختصاصهما تمهيداً للوصول إلى حياة نيابية أقرب إلى الكمال .

(سادسا) الرد على مزاعم الانجليز ، وبخاصة ما جاء منها فى تقارير كرومر وألدون غورست ودحض هذه المزاعم بمنتهى القوة ، حتى يثبت للعالم الحر أن مصر خليقة بالكمال الذى تنشده ، وأن الانجليز ظالمون فى نظرتهم للدين الإسلامى ، ظالمون فى تقديرهم للموظف المصرى والكفاية المصرية .

(سابعا) الدعوة لمذهب الحريين ليكون أساسا لتربية الأمة المصرية ، ولحرية التعليم وحرية القضاء وحرية الكلام وحرية الكتابة وحرية الاجتماع وسائر أنواع الحريات الأخرى . مع العناية الخاصة ببرامج التعليم حتى تصبح ملائمة لأغراض الأمة والجيل الجديد .

(ثامنا) النهوض بالحركة العقلية والحركة الأدبية وإفساح المجال للشبيبة

المصرية لكى تظهر مواهبها المختلفة ، وتدعو كل طائفة إلى الاتجاه الجديد الذى آمنت به .

(تاسعاً) العمل على تشجيع الصناعة والتجارة والزراعة والنهوض بها جميعا حتى تبلغ الحد الذى يتفق وأطماع البلاد .

(عاشراً) العمل على تقوية الوحدة القومية مع اليقظة التامة لتوحيد عنصرى الأمة المصرية . وهما المسلمون والأقباط حتى لايجد المحتل ثغرة ينفذ منها إلى تحطيم الحركة الوطنية .

والحق — لقد كان لطفى السيد خير من يمثل هذه الأهداف ، وكان قد روض قلمه على الكتابة فى هذه المعانى حتى قبل اشتغاله بالتحرير فى الجريدة . فقد كتب لطفى السيد فى ذلك وهو طالب فى مدرسة الحقوق فى صحف المؤيد والأهرام والمقطم .

وحين أنشأ المرحوم محمد فريد مجلة (الموسوعات) اشترك معه لطفى السيد فى تحرير هذه المجله . وكان من أشهر ما كتبه مقالة له بعنوان (شخصيات الأمة) داعيا فيها إلى إصلاح الحروف العربية ، حتى يتمكن جميع الناس من قراءتها دون حاجة إلى الصرف أو النحو .

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما عرفناه عن نشأة الرجل الاستقراطية ، ونشأته العلمية الأدبية ، ثم طبيعته التى تميل إلى التأمل العميق والانغماس فى المجتمع ، ثم تقديره لما للصداقة والأصدقاء من حسن الأثر فى القيام بالمشروعات النافعة للأمة — إذا فعلنا ذلك عرفنا إلى أى حد وفق أعضاء الشركة التى قامت لتأسيس الجريدة فى اختيار الرجل الكفء لهذه الرسالة .

* * *

بقى أن تعرف شيئا عن نظام هذه الصحيفة :

إذا وقع فى يدك عدد من أعداد (الجريدة) وجدته مصدرا بالتاريخ الهجرى ، والتاريخ الأوربى مكتوبين فى سطر واحد بأعلى الصفحة الأولى .

ثم وجدت تحتهما عنوان (الجريدة) بالخط الثلث . ثم على يمين العنوان لافتة صغيرة بالاشتراكات (وهي ١٢٠ قرشا عن سنة كاملة داخل القطر ، ٧٥ قرشا عن ستة أشهر ، ١٥٠ قرشا عن سنة خارج القطر) . وفي الجهة اليمنى اسم مدير الجريدة (أحمد لطفي السيد) وباسمه ترد رسائل الصحيفة وتحت العنوان مباشرة تقرأ هذه العبارة :

« من حقق النظر ، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق — وإن آلمته في أول صدمة — كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه » .

« ابن حزم »

أما عدد صفحات (الجريدة) فأربع ، زيدت فيما بعد إلى ست ، ثم عادت إلى أربع ، ثم زيدت نهائيا إلى ست :

في الأولى من صفحات العدد الأول — على سبيل المثال — نجد المقال الافتتاحي بقلم لطفي السيد . ونجد مقالا بعنوان (الوطنية في مصر) .

وفي الثانية نجد بحثا ماليا ،اجتماعيا ، ومقالا بعنوان —(مقابله بين أمريكا ومصر) وآخر بعنوان (غنى الطبقة الوسطى بأمريكا) ، وكلمة بعنوان (ألمانيافي مؤتمر الجزيرة) أو نشر صحائف مطوية وأذاعة أسرار مكتوبة) .

وفي الثالثة نجد أخبار الإسكندرية ، وملاحظات تجارية .

وفي الرابعة تلغرافات عمومية (روتر وهافاس) — السفر إلى القمر في ٩٨ ساعة للعلامة جول فرن ترجمة أحمد زكي (بك) .

وأما الاعلانات فكانها الصفحة الأخيرة .

وعلى هذا فقد كانت العناية بالمقال هي الغاية الأولى والأخيرة من هذه الصحيفة ، ثم تأتي بعد ذلك العناية بالخبر . وإن كان لا يصح مطلقاً أن نقيس هذا بذاك . لأن الصحف المصرية إلى قيام الحرب العظمى كانت صحف رأي

ومقال .. ولم تكن —كما أصبح الحال بعد الحرب العظمى — صحف أخبار قبل أى اعتبار .

وإلى القارىء طائفة يسيرة من عنوانات المقالات التى كانت تنشرها الجريدة فى أعدادها الأولى على سبيل المثال :

الوطنية المصرية — مقابلة بين أمريكا ومصر — الدول العظمى وأهم ما يقال فى أحوالها — رقى الحاكمين والمحكومين (لرشيد رضا) ، الصحافة المصرية (ليوسف البستانى) — المرأة المسلمة فى روسيا — قبل الاعدام (قصة لهيجو ترجمة أحمد زكى) — الإنسان والحنين إلى الوطن — التنويم المغناطيسى والوجدان — حالة التعليم فى مصر (لمحمد السباعى) — المسلمون فى روسيا — مياه الشرب — اصلاح المحاكم الشرعية — الرياضة البدنية والعقلية — الأوقاف الخيرية الاسلامية — الشركات والمضاربات — الحرب العقلية — منافع الأوربيين ومضارهم فى الشرق (لرشيد رضا) — شبابنا (خطبهم فى حديقة الأزبكية وآراؤهم فى المجلس النيابى وفى الوطنية) — الفلاح المصرى — ما للسياسة والعلم — إلى النساء (لتولستوى) — حديث ابن البلد (محادثات فى حفلة عرس) — كلمة فى خطة الجريدة (العدد العشرون) — تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ — إلى الشبان الراشدين — زراعة القطن المصرى واهتمام الانجليز بها — إحدى الأغانى — بماذا يكون الرجل عظيماً — مصر فى عالم السياسة — الوطنية الانكليزية (للورد ملنر) — دعوة إلى أبناء اللغة العربية (ليوسف البستانى) . الخ .

وهكذا وقفت الجريدة فى مقدمة الصحف الأهلية فى البلاد ، حتى توقفت عن الاصدار . فقد كان آخر عدد لها بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٤ .

* * *

أجل — كان المقال هو الهدف الأول (للجريدة) منذ ظهورها . كما كان

المقال الهدف الأول للصحف الوطنية الأخرى : كالمؤيد ، واللواء ، وغيرهما .
وكان لهذه المقالات التى كتبها لطفى السيد بنوع خاص اتجاهات كثيرة : من أهمها الاتجاهات الخمسة التالية ، وهى :—

١ — الاتجاه السياسى .
٢ — الاتجاه الاجتماعى .
٣ — اتجاه فى التربية والتعليم .
٤ — الاتجاه اللغوى .
٥ — الاتجاه الأوربى .

وللجريدة فوق هذا وذاك بعض المساجلات التى كانت بينها وبين الصحف الوطنية تارة ، والأوربية تارة ، وصحف الوكالة البريطانية وتقاريرها وتآليفها آخر الأمر .

ولا بأس من أن نلم يسيراً بهذه المساجلات ،قبل أن نخوض فى الحديث عن كل واحد من لاتجاهات الخمسة السابقة .

الفصل الثالث

مساجلات الجريدة

لم يكن الخديو عباس راضياً عن ظهور (الجريدة) . وكان في الوقت نفسه يتوجس من (حزب الأمة) خيفة . وكثيراً ما سأل حاشيته أن يتتبعوا أخبار هذا الحزب ويزودوه بها ، وبأنباء المتصلين به من الشخصيات الكبيرة ، كسعد زغلول ، ومحمود سليمان بالصعيد ، وآل عبد الرازق ؛ كما يؤخذ ذلك من مواضع كثيرة من مذكرات أحمد شفيق باشا .

وكانت المؤيد — وهي لسان حال الخديو — تتأثر دائماً بآرائه وأهدافه ونوازعه ، وتتوخى التعبير عن هذه الآراء والأهداف والنوازع .

وكانت اللواء تصطنع العنف والشدة في قيادة الأمة ، وما أيسر ما كان مصطفى كامل يتهم عظماء المصريين كعرابي ، وفتحي زغلول ، وعلي يوسف بالتقصير أو الخيانة ، وذلك لأقل خطأ يبدو منهم ، أو انحراف يصدر عنهم ، أو مخالفة له في الرأي .

من أجل هذا كان طبيعياً أن تصطدم (الجريدة) دائماً بكل من هاتين الصحيفتين السابقتين وبالوكالة البريطانية أيضا . وأهم من ذلك موقف المعارضة الشديدة من جانب (الجريدة) في طائفة من المسائل الجوهرية . ومن أهمها مسألة الجامعة المصرية لا العثمانية ، وقد كان للجريدة فيها رأي يخالف كل جهة من الجهات السابقة كل المخالفة . فلا (اللواء) راضية — بوجه ما — عن هذه النزعة المصرية الصريحة ، ولا (المؤيد) يخفي جزعه منها وخوفه من نتائجها ، ولا الوكالة البريطانية — بطبيعة الحال — تحب أن ترى ظلا لهذه النزعة في مجال الفكر السياسي المصري .

من أجل ذلك وقعت (الجريدة) فى مساجلات كثيرة بينها وبين تلك الصحف. وكانت أولاها يومئذ صحيفة (المؤيد) لعلى يوسف.

ونشرت (المؤيد) طائفة من المقالات الطويلة فى هذا المعنى. وردت عليها (الجريدة) بمقالات تشبهها، وجعلت عنوانها جميعاً «سوء نية المؤيد فى المناقشات»[1].

وعرض كاتب من كتاب الجريدة لجميع التهم (أو الجنايات) التى أخذها المؤيد عليها: فإذا هى فضائل للجريدة لأنها تتلخص فى خمس تهم وهى:

الأولى — تريد الجريدة تقديم مصر على كل بلد من البلاد الأخرى فيما يتصل بالمصالح المصرية أو السياسة المصرية.

الثانية — تدعو الجريدة إلى كف الحكومة عن تقديم أية مساعدة مالية، مادامت مصر على حالها من الارتباك المالى، والارتباك السياسى. إذ لا يصح لنا أن نخدع أنفسنا، ونخدع رجال المال والسياسة من الافرنج.

الثالثة — تريد الجريدة أن يكون التبرع حراً؛ سواء كان لإعانة مصر أو الدولة العلية. وإلا ظلمنا أبناء وطننا، وانقلب التبرع ضريبة قهرية تتعهد بها.

الرابعة — تحتم الجريدة أن تكون مصر ذات حدود وتخوم معلومة، وإلا تكون ضائعة فى العالم الإسلامى كله. كما تدعو إلى ذلك أصحاب النزعة العثمانية القديمة.

الخامسة — لا ترى الجريده بأساً من مساعدة المصريين لإخوانهم الطرابلسيين ضد الطليانيين، على ألا تأخذ هذه المساعدة شكل الجهاد الدينى؛ لأن هذا الشكل الأخير لا يتفق ومصلحة مصر فى الوقت الحاضر.

وفى إحدى المقالات السابقة التى ردت فيها (الجريدة) على صحيفة (المؤيد) قال الكاتب[2]:

---

(١) الجريدة فى ٢٦ أكتوبر ١٩١١، ٢٨ أكتوبر ١٩١١ الخ

(٢) الجريدة فى ٢٦ أكتوبر ١٩١١.

« نشر المؤيد أمس مقالة ثالثة فى سبعة أنهر اتهم فيها مدير الجريدة بالجمود لأنه ينصح أمته باتباع (سياسة المنافع) . ثم تكرم عليه بدرس عال فقال :

« إن الفيلسوف الحقيقى لا يجهل أن عواطف البشر أكبر قوة فى حياة هذا العالم متى كانت صحيحة . فشعور الرابطة بين الأب والابن عاطفة صحيحة تجعل أحدهما يفدى الآخر بنفسه ، ويكون عمله شريفاً . وشعور الرابطة بين الزوج والزوجة يجعل النفس الغالية فدى للعرض الغالى . ومن هذا وذاك تتركب العواطف القومية من العائلة للفخذ للقبيلة إلخ .

فمن هذا الكلام يفهم القارىء اللبيب أن المؤيد يرد على رجل يريد محض العواطف بمعناها المطلق من البشر . والحقيقة التى يفهمها كل عاقل مدرك من مقالات مدير الجريدة أنه يريد مانهض بالدول الأوروبية العظمى ، وهو ألا تكون الأعمال السياسية ألعوبة بين أيدى العواطف ؛ بدليل قوله الذى ذكره المؤيد (أعمالنا السياسية يجب أن تكون قاعدتها المنفعة ، لأننا فى زمان هو كذلك) .

فأى مدرك صحيح النية يستنتج من هذا القول أن مدير الجريدة يريد ؛ وهو أن يدوس على العواطف بمعناها المطلق ، وأن ينكر شعور الرابطة بين الأب والابن ، والزوج والزوجة) .

نعم — بل ألف نعم — إن السياسة التى يتوقف عملها على نجاح أمة عظيمة كالأمة المصرية يجب أن تكون قاعدتها المنفعة إلخ .

* * *

وقبل ذلك تعرضت (المؤيد) لنقد (الجريدة) حين غمزت هذه الأخيرة عباساً بأنه حاول (باسم الإرادات المستنيرة) أن يؤثر فى قرارات الجمعية العمومية .

وردت الجريدة على ذلك بأنها حرة فى نقد تصرفات الامير ، وتصرفات حاشيته ، وإن وجد المؤيد هذا غريباً كل الغرابة . لأن له مذهباً جديداً فى

الإسلام « يصف الامارة بالعصمة » . ثم مضى لطفى السيد يقول فى كلمته هذه بعنوان :

دفاع عن الجريدة[1]

وإن الجريدة لم تنشأ لأن تحابى السلطة الشرعية ، أو السلطة الفعلية ، ولا أن تعادى واحدة منهما ، ولا أن تنتصر لإحداهما على الأخرى . بل أنشئت لأمر أرفع من ذلك وأسمى . أنشئت لتنصر الحق الذى خذله كثير من الكتاب خدمة لأغراضهم الذاتية ، ولتبين للناس الحقيقة التى يجتهد أغلبهم فى سترها عن الأمة ، طمعاً فى نعمة تتدلى إليهم ، أو تهيباً من قوة يتوقعونها ، أو جرياً على عادة رسخت فيهم ، ولكى توضح أن هناك مصلحة يجب أن تضحى فى سبيلها كل المصالح ، ومقاما يلزم أن يكون أرفع المقامات وأقدسها ؛ وهى مصلحة الأمة ومقامها ، وأن فيها قوماً يألمون لكل تصرف يضر بهذه المصلحة ، أو يحط من ذلك المقام ، ويعملون على منعه والانتقام له مهما كان مصدره بكل الوسائل الشرعية التى أباحها القانون إلخ » .

* * *

وانتهت مدة اللورد كرومر فى مصر واستعد لمغادرة البلاد فى صيف عام ١٩٠٧ . وإذ ذاك فكرت الحكومة المصرية وبعض الأعيان أيضا فى إقامة حفل لتوديعه قبل سفره . وخطب اللورد كرومر خطبته المشهورة (بدار الأوبرا) . ونشر السيد على يوسف رده المشهور عليها أيضا . وكان لطفى السيد من المؤيدين يومئذ لفكرة توديع اللورد كرومر ، فكتب فى الجريدة مقالا يرد به على المؤيد — وذلك بعنوان :

المسالمة لا المعاندة[2]

جاء فيه :

« الانكليز بالأمس هم الانكليز اليوم وهم الانكليز غدا ... ومازال أصحاب

(١) الجريدة فى ٦ إبريل ١٩٠٧

(٢) الجريدة — العدد ٤٤ بتاريخ ٣٠ إبريل ١٩٠٧ .

الحاجات يؤمون قصر الدوبارة ، ومازالت الجرائد تنشر الكتب المفتوحة ، والمقالات الضافية فيها مطالب الأمة لعميد الاحتلال . فلا يقع فى الوهم أن وراء الأكمة ماوراءها من تبدل الأحوال وإحياء الآمال وبوارق الاستقلال .. وسياستنا مع الانكليز لا تخلو من أحد وصفين : إما سياسة عناد وعداء . وإما سياسة مسالمة لا استسلام . ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة[1] . إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حسابا على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو أصلا صالحا له ؟ فلم تبق إذن إلا سياسة المسالمة ، والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة . وأول مظاهرها المجاملة فى المعاملة . ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء بالاحتفال بوداع اللورد كرومر » .

وبعد فقرات طوال اندفع الكاتب فى لهجة خطابية قائلا :

«رحماكم يا أرباب الأقلام — لا تغرروا بهذه الأمة التعيسة ، ولا تكونوا للزمان عوناً عليها ، واخلصوا لها النصح ، وذروها فى هذه الفترة هادئة تكون قوتها من الباقيات الصالحات ، لا من الكلمات الطائحات . واعطوا العقول حقها من حرية التفكير ، والألسن قسطها من حرية القول ، والنفوس قسطها من الجرأة . وبينوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ، ومواطن التكريم ، وبين انتقاص الأشخاص وانتقاد الأعمال . ولا تكن الأقلام فى أيديكم كالمعادن يهدم بها بناء الأخلاق ، أو كالحجب تستر وراءها ضياء الحق ، أو السهام تهلهل بها أغراض الأشخاص . وإلا فما بال بعض الجرائد (يريد المؤيد)[2] أخذت تشهد ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال . وتغمزهم كل يوم بضروب من ألفاظ السخرية غير اللائقة ؟

قال بعض علماء الاجتماع : إن الاعتراف بالجميل هو الإحساس بانتظار جميل آخر فى المستقبل . فاذا كانت الجرائد تريد من الناس ألا يحتفلوا بوداع

---

(١) صحتها عظيم لأنه يستوى فيها المؤنث والمذكر .

(٢) أدب المقالة الصحفية الجزء الرابع ص

اللورد كرومر إظهاراً لعدم رضاهم عن الإدارة الانكليزية فى عهده . وكان الناس فى بلدنا على مذهب ذلك العالم من علماء الاجتماع . وأنهم لا يعملون العرف لذاته بل للاتجار به . أفليس من المصلحة أن يحتفلوا باللورد لينتظروا بذلك خيراً من خلفه ؟.

استقال اللورد كرومر فكنا أول من نشر على الملأ الانتقاد المر على أعماله التى لا توافق مصلحتنا مقرونة بالاعتراف له بأعماله التى فيها صلاح لمصر . ولكن شخص اللورد كرومر والرابطة التى بين الأمة المصرية وبين أمته ، ووجوب صفاء العلاقات بين الأمتين لمصلحة الطرفين ، كل ذلك يلوى بنا عن أن تكون من المعوقين فى الاحتفال بوداعه، وإكرام ضيافته، وتشييعه بما شاءت المحاسنة القومية ، والكرامة العربية الخ » .

تلك أمثلة مع المساجلات التى وقعت بين الجريدة والمؤيد . ومع هذا بقى الصدام بينهما على هذا الوجه حتى اعتزل السيد على يوسف الصحافة والسياسة فى الظروف التى شرحناها فى الجزء الرابع من كتابنا أدب المقالة الصحفية[1].

* * *

أما «اللواء» فالاختلاف بينها وبين « الجريدة » كالاختلاف بين صاحب أولاهما وصاحب الأخرى . أولهما — وهو مصطفى كامل — يميل للمحافظة على التقاليد ؟ ويعالج الأمور بطريقة واحدة ؟ هى طريقة العاطفة . وثانيهما — وهو — لطفى السيد — يميل إلى التجديد ؟ ويعالج الأمور بطريقة واحدة هى طريقة العقل . ولو عاشت الصحيفتان معاً أكثر من ذلك لبقيت الحرب سجالا بينهما على الرغم من الصداقة التى ربطت بين الرجلين غير أن المنية عاجلت صاحب اللواء . فبقى صاحب الجريدة ينشر فى صحيفته طائفة من الآراء التى خالف فيها صاحب اللواء . وبحسبنا هنا أن نشير إشارة عابرة إلى بعض وجوه الخلاف بينهما :

---

(١) راجع الجريدة فى ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ من أكتوبر

من ذلك اختلافهما فى مسألة « الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ». وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى موضعه من هذا البحث.

ومن ذلك اختلافهما فى « الحجاب والسفور ». فقد كان مُصطفى كامل من القائلين بحجاب المرأة المصرية. وكان لطفى يرى فى ذلك رأى صديقه قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة ». وستأتى الاشارة إلى مذهب لطفى السيد فى ذلك عند الكلام عن « الجريدة والمجتمع ».

ومن ذلك أيضاً الحكم على الحوادث والرجال الذين كان لهم أثر فى توجيه السياسة المصرية. ومن أوضح الأمثلة هنا الحكم على عرابى. فقد رأى صاحب اللواء فى عرابى أنه خائن لبلاده. ورأى لطفى السيد فى هذا القائد أنه بطل من أبطال مصر، ولكن خانه الحظ:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

ويقيس لطفى السيد هـذا القائد بغيره من عظماء الرجال قائلا[1] « لقوا نجاحاً فعظموا؟ ولقى عرابى فشلا فصغر. وجرد؟ وأصبح متهماً بخيانة الوطن ».

ولم يكتف لطفى بذلك. بل طفق يعرض حسنات عرابى وسيئاته.

وخلص من ذلك إلى أن عرابى له حسنة كبرى؟ هى الدستور فلولا عرابى لم يكن الدستور. الدستور المصرى من عمله وصنع يده؟ وأثر من آثار جرأته. « طلبه عرابى لا بوصف أنه عسكرى ثائر ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك. فإن عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الأمة ومشايخها. فعرابى حقق آمال الأمة بالدستور ولم يرتكب فى ذلك جريمة، ولم يسفك دماً. بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاماً لا باكورة جريمة »[2] ثم قال:

---

(١) الجريدة فى ٢١ سبتمبر ١٩١١.

(٢) سبق دستور سنة ١٨٨٢ — وهو دستور الثورة العرابيـة — محاولتان هامتان. تنبغى الاشارة إليهما:

« مع ذلك إذا كان عرابى فى أخريات الأمر أو فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس النيابى وضغط عليه بقوة السيف . فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور » .

ثم تحدث لطفى عن سيئات عرابى فلخصها فى عدم تقديره حالة أمته من القوة والضعف تقديراً صحيحاً وذلك بالقياس إلى قوة انكلترة . ثم قال :

« الخيانة فذلك أمر لا نعرفه فى قوادنا المصريين المحسنين والمسيئين منهم على السواء . وإن كان من شأن السيئة التى ارتكبها عرابى والتى أعقبت الاحتلال البريطانى أن أكلت ثمرة الحسنة التى له ، ونعنى بها الدستور . فيصبح عرابى بعد ذلك على الأقل إنساناً لا له ولا عليه » .

* * *

وندع المؤيد واللواء جانباً ونصل إلى تقارير اللورد كرومر وكتبه . وقد عرفتنا كيف عنى السيد على يوسف من جهة والزعيم الشاب مصطفى كامل من أخرى بالرد على هذا الرجل .

كان أولهما هادئاً ولكنه كان ماكراً ، وكان الثانى ثائراً ولكنه كان كارهاً للإنجليز أكثر من صاحبه . أما لطفى السيد فكان على الدوام مفكراً ، وكان يكتب عن السياسة الانكليزية كما لو أنه يؤلف كتاباً فى الفنون السياسية . ومن ثم اصطنع لطفى السيد فى ردوده على كرومر أناة العقلاء ، وحكمة الحكماء وحلم العلماء . وجاءت مقالاته كما قلنا بحوثاً فى السياسة أكبر الظن أنها لم ترض

= الأولى : الدستور الذى ظفر به المصريون من عهد اسماعيل وأنشىء به مجلس شورى النواب سنة ١٨٧٦ وكان رأيه استشاريا محضا .

الثانية : الدستور الذى وضعته حكومة شريف سنة ١٨٧٩ وذلك على أحدث المبادىء الدستورية وقتئذ . وبه أصبح للنواب حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية العامة ، والمسؤولية الوزارية أمام النواب الخ .

ثم أتت الثورة العرابية بعد ذلك بدستور سنة ١٨٨٢ وهو تعديل للدستور السابق وتهذيب له .

الشباب المصرى الذى ألهب عواطفه مصطفى كامل ، ولا الشيوخ المصريين الذين أثار عقولهم الشيخ على يوسف ولكنها مع هذا وذاك معبرة عن رأى فريق من المصريين لهم خطرهم وأثرهم فى الحياة المصرية ونعنى بهم « حزب الأمة » .

تعرضت الجريدة لأعمال اللورد كرومر فى مصر ؟ فقسمتها قسمين : مالية وسياسية . وأثبتت الجريدة لهذا اللورد عنايته بالرى ؟ واعترفت بفضله فى إلغاء صندوق الدين ؟ وبفضله فى رفع الربا الفاحش عن كواهل الفلاحين ؟ وبفضله كذلك فى إنشاء البنك الأهلى . والبنك الزراعى الخ . .

ثم أخذت فى الحديث على اللورد تقصيره فى إنماء الحرية الشخصية للأفراد ، وإهماله حق مصر فى الدستور وفى الحصول على حكومة ذاتية ، وطعنه فى كفاءة المصريين ، واغفاله التعليم الصالح لتزويد الأمة بطائفة من المواطنين الصالحين ، وغضه النظر عن الشبان المصريين فى أعمال بلادهم . ورغبته فى محو الجنسية المصرية . وجعلها دولية . وتلك سيئات اللورد كرومر التى رجحت رجحاناً مبيناً على حسناته[1] .

وفى بداية رد من ردود صاحب الجريدة على كرومر أتى بعبارة للأستاذ (سايس) صدر بها اللورد تقريره وهى : « إن الذين قاموا فى الشرق ، وحاولوا الإختلاط بأهله . يعلمون حق العلم أنه يستحيل مطلقاً على الأوربى أن يتحد فى النظر مع الشرقى . ومن المحقق أن الأوربى يظن أول الأمر أنه هو والشرقى يتفاهمان . ولكن يأتى وقت عاجلا أو آجلا ترى الأوربى نفسه فيه يحس بجأة أن ذلك كان حلم نائم ، ويجد نفسه أمام انسان ذى ملكات عقلية غريبة عنه كل الغرابة حتى ليظنه من سكان زحل » .

---

(١) راجع مقالا بعنوان لورد كرومر أمام التاريخ الجريدة بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٠٧ .

يعلق كاتب الجريدة على هذه العبارة فيقول :

صدق (سايس) إذا كان قوله منصرفاً إلى أن الأخوين الشرقى والغربى مختلفان فى المنظر جداً فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية عند الأوربى . أما الشرقى فإنه يجعل للفضائل الأدبية كالإحسان والكرم والوفاء والاخلاص الدينى المقام الأول .

ثم قال :

ولكن لايظن المطلع على تقرير اللورد كرومر أنه أراد الإشارة إلى تلك الفضائل خصوصاً أنه ليس فى مقام مدح الشرقى . إنما المطلع على هذا التقرير يرى أنه يريد بيان سلسلتين من الأفكار:

الأولى : أن عقول المصريين عقيمة غير منتجة إلى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم . وآمالهم السياسة . وهم لذلك يرضون عن مناهج الاحتلال ولا يرضون عن الاحتلال.

وردت الجريدة على ذلك بأنه أمر طبيعى حتى يثبت للمصريين أن للإحتلال غرضاً خفياً غير إعدا دالمصريين للحكم الذاتى .

والثانية : هى أنهم يسعون لتحقيق الجامعة الإسلامية (پابنسلامزم) .

وترد الجريدة على ذلك . بأنه ليس هناك ما يسمى (الجامعة المسيحية). فلو داعى هناك لما يسمى بالجامعة الاسلامية . ولكن السياسة تخلق ما تشاء من الأسماء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدى إلى اعتداء من جانب المصريين أو تسبب هلعاً للمستعمرين الأوربيين .

وهكذا تصور التقارير الكرومرية المصريين بأنهم غير قابلين للرقى ؟

(١) الجريدة عدد ٥٠ بتاريخ ٨ يناير ١٩٠٧

ولا يستعدون للحضارة . ليسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية . ومن ثم قصد إلى تجسيم فكرة الجامعة الإسلامية ؟ وعزا اليها مهمة أخرى . ألصقها بالمصريين ؟ وهى تهمة التعصب الدينى .

وقد عنيت الجريدة بالرد على هذه التهمة أيضاً حيث تقول :

يقصد الأربيون بكلمة التعصب الدينى . لا الجاذبية الدينية التى توجد بين أهل دين واحد . ولكن التحرش بغير المسلمين والتربص بهم وهذا المعنى لا أهل له فى الدين الإسلامى . كما لا أصل له فى نفوس المسلمين الذين كل جنايتهم فى نظر أوربا . أنهم أخذوا يفكرون فى ترقية عقولهم بالتعليم الخ .

وانتهز لطفى السيد فرصة ظهور كتاب لكرومر بعنوان «مصر الحديثة» فدعا الكتاب للدفاع فى الجريدة عن الاسلام ضد التهم التى رماه بها كرومر فى كتابه هذا . وجعله أقساماً ثلاثة :

قسم خاص بالاسلام .

وقسم خاص بالحالة الاجتماعية فى مصر .

وقسم خاص بسياسة الانجليز فى مصر والسودان .

فأما رد كاتبنا على القسم الأول خاصا بالإسلام فقد أظهر فيه العجب من ذلك السياسى المحنك . الذى وضع التعصب الدينى من جانبه عصابة على عينيه ؟ فتعذر عليه رؤية الاسلام على حقيقته ؟ وعجز حتى أن يبلغ فى ذلك بعض ما بلغه الكاتب الفرنسى (جان جاك روسو) حيث قال فى وصف محمد :

« إن قانون بن اسماعيل (يعنى محمدا) الذى يسير عليه نصف العالم منذ عشرة قرون ، يشف إلى الآن عن عظم واضعه . فى حين أن الفلسفة المتكبرة . أو التعصب الأعمى لا ترى فيه أكثر من أن واضعه ماكر حسن الطالع . ولكن

السياسى الحقيق . يعجب بما فى ذلك الشرع من القوة الهائلة . والملكة القادرة التى توجد دائماً فى الشروع الخالدة» .

ثم التمس الكاتب للورد عذراً فى قلة فهمه . لأنه لم يعرف عن الدين الإسلامى إلا ماشاع بين الأوربيين . ومن ذلك — على سبيل المثال — أن جندياً فرنسياً التقى بكاتب الجريدة «أعنى لطفى السيد» فى أحد الفنادق العامة . وتجاذبا معاً أطراف الحديث عن المسلمين بالجزائر .

فقال الجندى الفرنسى : إن المسلمين فيما بينهم يعملون بهذه القاعدة . وهى : أيما مسلم قابل غير مسلم فى مفازة ما فله حق قتله وسلبه ! ولما جادله كاتب الجريدة فى ذلك أكد له الجندى الفرنسى أن هذه آية من آيات القرآن !

بل التمس الكاتب لكرومر عذراً فى ذلك مادام أنه لم يقرأ عن الدين الإسلامى إلا ماكتبه كل من : (ستانلى لين پول) ، (ومنتسكيو) ، (وغلادستون) . « وعلم هؤلاء بالإسلام ليس إلا نتفاً يتلقونها من أفواه الجهلة ، أو من كتب الرحالة الذين يتخذون من عمل فرد من أفراد المسلمين دليلا على دينهم ؛ كما اتخذ اللورد عمل واحد من (العطاشجية) — أى عمال السكة الحديدية — بمصر دليلا على عقول الشرقيين على العموم » .

هكذا مضى لطفى السيد يفند أقوال كرومر وأقوال فلاسفة الأوربيين واحداً بعد آخر . فرماهم جميعاً بالجهل الفاضح . وسخر منهم جميعاً فى مهارة فائقة ولباقة ظاهرة . ولطف وحسن أدب . ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العباره : « إن صح قول هيجو : « أن اللورد عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون ، فإنه لا يصح أن يكون اللورد عالماً بالشريعة الإسلامية بقوة القانون أيضاً ! »

* * *

وانتهى عهد اللورد كرومر فى مصر ، وخلفه فى منصبه السير ألدون غورست . وكانت سياسته تقوم على التفرقة بين الخديوى والشعب من

جهة ، وبين الأحزاب المصرية بعضها وبعض من جهة ثانية ، وبين المسلمين والأقباط من جهة ثالثة . فأخـــذت « الجريدة » على عاتقها مساجلة هذا العميد الجديد ، ومحاربة آرائه وأفكاره . و أخذت تفضح سياسته فى مصر منذ تولى فيها منصبه .

ونحن نعلم أن لطفى أتعب نفسه فى الذود عن وحدة الأمة المصرية ، وكتب كثيراً فى صباه داعياً الى هذه الوحدة . وقال فى إحدى المرات :

« حسب المسلمين والأقباط تفرقاً — وهم جسم أمة واحدة — أنهم لا يجمعهم فى الصلاة معبد واحد ، وأنهم لا يتصاهرون » .

«فما بالنا نتصدى لتجسيم هذه الفروق التى لا تضر ، و تضيف إليها فروقاً تهدم جامعتنا القومية . »

« إن اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام أديان توحيد . لا خوف على أمة دانت بها جميعاً إذا تأصل الاعتقاد الصحيح فى نفوس الأفراد ، وانتبذ التعصب والخلاف مكاناً قصياً . »

« على المنفعة تكونت الأمم ، وانقسمت الأوطان . فهل من يقول إن هناك قبطياً يفضل منفعة الجنسية على منفعة مصر ؟ أى على منفعته هو ؟ وهل من يقول بأن مسلماً مصرياً يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر ؟ أى على منفعته هو ؟ . لقد نزلت الأديان لمنفعة الناس . فلا يحل لنا أن نجعلها تناقض هذه المنفعة . بل يجب علينا أن نوفق بينهما ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وإنا — إذا أردنا — لمستطيعون . »

« لا أريد أن أدخل فى تفاصيل تلك الحركة فإنها معروفة . ولكنى أنصح الذين اكتسبت أيديهم من تبعتها — مهما حسن قصدهم — أن يستغفروا الأمة ، وأن يعملوا لتـــلافى ما عساه ينجم عن تلك الحركة . وإنهم سيعملون[١] » .

(١) محاضرة ألقيت فى ٣ اغسطس ١٩٠٨ — انظر صفحات مطويه ص ٣٣ ، ٤٣ .

الفصل الرابع

الجريدة فى الميدان السياسى

كان الدستور من أعز أمانى الأمة ، وكان الاحتلال يكره أن يرفل المصريون فى ثياب هذه النعمة .

وأعجب من هذا كله أن ولى الأمر فى مصر كان لا يتحمس — إلا مضطراً — لتحقيق الرغبة . وبقى الشعب المصرى حائراً بين هاتين السلطتين لا يدرى كيف يظفر منهما بحقه الطبيعى فى الظفر بأمنيته ، واختيار الشكل الذى يرضاه لحكومته . ومن ثم كان الدستور أول الأهداف التى من أجلها ظهرت الجريدة من جهة ، وتم تأليف حزب الأمة من جهة ثانية .

وإن كان من الحق أن يقال أن جهاد الجريدة فى هذا الميدان لم يكن بأعظم من جهاد الصحف المصرية الأخرى ؛ ومن أهمها وقتئذ صحيفتا المؤيد واللواء . غير أن صحيفة المؤيد كانت قد فترت وبدت عليها علائم الشيخوخة ؛ وذلك بعد مرور سنوات قليلة جداً من ظهور « الجريدة » .

ولا غرابة فى ذلك فإنها كانت لسان الخديو عباس . فكان من الطبيعى أنها تقوى بقوته وتضعف بضعفه .

وأما (اللواء) فقد بقيت تحمل عبء الحركة الوطنية . وحين دهم الموت صاحبها ، فقدت قوتها ، وتعرضت هى الأخرى للمحن التى عصفت بها .

وحين ظهرت (الجريدة) فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ كانت الصحيفتان السابقتان فى أوجهما . ولكنهما ما لبثتا بعد ذلك مباشرة أن انحدرتا إلى السفح الآخر من تلال العظمة ، وأفسحتا الطريق يومئذ (للجريدة) التى

حلت محلهما . وحملت الشعلة بعــــدهما ، وبقيت تحملها إلى أن شبت نار الحرب العظمى .

المهم أنه بينما كانت اللواء تميل إلى العنف والثورة ، إذا (بالجريدة) — بتأثير كاتبها الفيلسوف — كانت على غير ذلك .

وانظر إلى لطفى السيد إذ يقول :

« إن الثورة إن خابت كان من نتيجتها زيادة القهر والاستعباد للأمة . وإن نجحت وهى تقطر دماً والأهواء والشهوات هائجة كان حظ الأمة من تلك الثورة هو الفوضى » .

ومن هنا كان لطفى ممن لا يؤمنون بالطفرة . وكان يرى أن الإصلاح التدريجى فى متناول كل أمة ، وأنه فضلا عن ذلك مأمون المغبة . وربما كان هذا كله أثراً من آثار (الواقعية) التى سيطرت على تفكير هذا الرجل ، وعنها صدر فى جميع أعماله وآرائه المختلفة .

مهما يكن من شىء فإن مسألة الدستور وشكل الحكومة المصرية هما المشكلتان اللتان شغلتا حيزاً كبيراً من صفحات (الجريدة) فى السنوات السبع التى عاشتها .

كان لطفى السيد يحاضر الناس فى مقر حزب الأمة يوما .فأوضح للسامعين هذه المسألة،وهى أن المصريين منذظهور الدستور العثمانى سنة ١٨٧٧ انتبهوا إلى حقهم فى الدستور ، وأن الثورة العرابية إنما كانت ثورة دستورية ، وأن المجالس النيابية فى مصر كانت لا تقوم بواجبها لأمور ، منها حداثة عهدها بالسياسة (حينا) ، والخلاف الشديد الذى كان بين عابدين وقصر الدوبارة (حينا آخر) والدسائس الكثيرة التى ما فتىء يدبرها الاحتلال البريطانى (حينا ثالثا) وسوء القصد الذى كان يشوب ولاة الأمر فى مصر منذ دأبت على السعى فى الحصول على هـذا الحق آخر الأمر . وفى حديث للخديو

عباس مع الكاتب المعروف بالمستر ديسى ، وفيه يصرح الخديو « بأن الأمة المصرية كبقية الشعوب الشرقية لا تقدر إلا الحكم الشخصى » .

ولكن الرأى العام المصرى هاج لهذا التصريح فبادر الخديو بالاعتذار عنه على لسان بعض رجال الحاشية . ثم زاد الطين بلة أن السير غورست طفق يضرب على هذه النغمة ، ومضى يقول « إن المصريين ليسوا أهلا للدستور فى الوقت الحاضر » . ومنذ ذلك الحين أخذ الانجليز يفكرون فى أمر يصرفون به المصريين عن التفكير فى حركتهم . فأخرجوا من حقيبتهم السياسية موضوع كفاءة الأمة المصرية فشغلوهم بها . وقد كانت هذه الفكرة إحدى مغالطات الاحتلال البريطانى التى أراد أن يكسب بها الوقت لا أكثر ولا أقل. فانبرى لطفى السيد فى محاضراته ومقالاته — كما فعل من قبل على يوسف ومصطفى كامل — لدحض حجج الاحتلال واحدة بعد أخرى ، وأخذ يوضح للمصريين أن حق الأمة فى الدستور كحق الفرد فى الحرية ، وحرمان الأمة المتخلفة من الدستور كحرمان الفرد من الحرية بحجة أنه زنجى ، أو أنه لا يقرأ ولا يكتب ، أو أنه لم يتخرج فى العلم على الغزالى أو ابن رشد وغيرهما . إن سلطة الأمة ليست كبقية الحقوق . فلا يجوز لها أن تتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرفات . ليس لها أن تتصرف فيها ولا فى بعضها بغير مقابل . لأن كل عقد من هذا القبيل باطل بطلاناً أساسيا »[1] .

هذا من حيث الدستور وحق الأمة فيه :

أما شكل الحكومة — فقد صرح الكاتب مراراً « بأن الحكومة المطلقة حكومة ضرورية . فاذا انتظمت الروابط الاجتماعية بين الأفراد حتى صار لفيفهم أمة تكون قد زالت الضرورة التى أوجدت الحكومة المطلقة ، فتزول الحكومة وراءها . . . ومهما جاز أن يكون الحاكم المطلق هو أحسن الناس فإنى أقول إن هذه الحكومة شر . لا ، لأن الحكومة النيابية هى خير واسطة

(١) صفحات مطوية ص ٤٤ .

لتربية الأمة فقط . بل لأنه لا يوجد إنسان من بنى آدم مهما كان حظه من العقل والحكمة قادر أن يسوس بمفرده أمور جمعية مدنية معقدة التركيب ، فإنه معرض أن يجر على أمته أكبر المصائب التى ما كانت تقع بغير وجوده»[١].

هكذا راح لطفى السيد يندد بهذا الشكل من أشكال الحكومة ، بل أخذ يسخر منه سخرية مريرة ومن ذلك أيضا ما كتبه بعنوان :

روضوا أنفسكم على الاستقلال [٢]

جاء فيه :

« لبعض الهنود تمثال يصنعه بيده. فإذا هب من نومه فى الصباح لا ينطلق إلى عمله إلا إذا قدم لذلك الآله الذى صنعه بيده آيات الحمد والشكر ... فهكذا يصنع المصريون بالحكومة التى هى من صنع أيديهم ... فهل يمكن بعد هذا أن تضحك من الذى يقدس ماصنعت يداه ... ! » الى آخر ماجاء من المقال .

* * *

غير أن الصحافة المصرية فى ذلك الوقت كانت كلما ازدادت مطالبة بحق الأمة فى الحكم النيابى ، ومراقبة الحكومة ، ازداد الاحتلال إمعاناً فى حرمانها من هذه الحقوق . وبلغ من جرأة اللورد كرومر وظلمه وعسفه أن حاول إقناع المصريين والنزلاء الأجانب فى مصر بإنشاء ما سماه « بمجلس التشريع الدولى » . وقصده من ذلك أن يجعل للحقوق الاستثنائية صفة الأصلية بحيث لا يكون من السهل على حكومة مصرية إقناع الأوربيين فى مصر بالتنازل عن هذه الحقوق وبذلك يعفى النزلاء الأجانب من الضرائب، ويحاكم الوطنيون أمام محاكم (القنصولاتو) بمقتضى قانون أجنبى عن البلاد . وبهذه الطريقة يعلو مركز الأجانب فى مصر فوق مركز الوطنيين فيها ، وتخضع الأمة لقانون أجنبى تقوم على تنفيذه محاكم أجنبية، وبوليس أجنبى، فى حين أن مجلس شورى

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) الجريدة عدد ٤٥٤ بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٠٨ .

القوانين باق على حاله من الحرمان من كل سلطة تشريعية !

« وزيد على هذه الفكرة أن المجلس التشريعي الدولى متى شب وترعرع ، وتقدم المصريون — إن قدر لهم التقدم — انقلب إلى برلمان مختلط يكون من شأنه أن يثبت بالبرهان الحسّى إثباتاً جديداً أن الأوربيين فى مصر هم أهلها الحقيقيون ، وأن المصريين فيها فضلة لاقيمة لها ، على طريقة الاستعمار الأمريكانى القديم » .

ثم مضى صاحب الجريدة يقول فى سخرية :

«ولا ندرى هل يكون الأمر وقتئذ فى هذا البلد — بلد العجائب — أن يسوى بين المصرى والأوروبى فى الحقوق ، أو تنقلب الامتيازات الأجنبية من كونها امتيازات للأوروبيين إلى كونها امتيازات للمصريين البيض على المصريين السمر ! »

« تلك نتيجة لازمة لهذا المجلس التشريعى الذى يجعل الأجانب — على مرور الزمان — تتأصل فى نفوسهم عادة التقنين (أى عمل القوانين) والحكم على المصريين. كما تتأصل فى نفوس هؤلاء المصريين عادة الرضى بهذه القوانين التى يقال أنها محلية ، ولا يسنها إلا الأجانب . وعلى هذا فمشروع المجلس التشريعى ليس مشروعا للإصلاح السياسى . ولكنه مشروع للتأخير السياسى » (١) .

إلى هذا الحد أهمل كرومر ما يسمى بالجنسية المصرية . وإلى هذا الحد عمل خلفه غورست لما سمى بدولية هذه الجنسية . فما كان أحوج مصر والمصريين فى ذلك الحين إلى مثل هذا القلم الذى حمله لطفى السيد فى وجه أولئك الطغاة الظالمين ، يبادلهم الحجة بأقوى منها ، والبرهان بأسطع منه ، ويخاطبهم باللغة التى يفهمونها ، وهى لغة السخرية بهم ، والنيل من خلقهم وطريقتهم فى إذلال الشعوب !

---

(١) الجريدة فى ١٤ مايو سنة ١٩٠٧ . وانظر صفحات مطوية ص ١٩٥ .

ومنذ ذلك الحين ومقالات الجريدة كالسيل المنهمر، تتدفق كلها على باب السير الدن غورست مطالبة إياه بالعدول عن فكرة سلفه من ناحية وبالمجلس النيابي من ناحية ثانية . ولذلك نراه فى إحدى هذه المقالات يقول :

المجالس النيابية

أو مطالب الأمة من السير غورست [1]

« لسنا نقول مع القائلين بطلب غير الممكن لنعطى الممكن . أننا لانوافق الذين يقولون إن المصريين لم يبلغوا من الرقى الأدبى شيئاً يؤهلهم إلى درجة من درجات التقدم السياسى . فإن هؤلاء وهؤلاء لنا ظالمون .

« وقد يعجبنا فى الرد على منكرى تقدمنا — تذرعا لحرماننا من السلطة التشريعية — ما قاله تين فى سنة ١٨٥٣ : إن كان فى فرنسا سبعة ملايين من الخيل، فإن لهذه الخيل الحق فى التصرف فيما تملك. ومثل هذه الأمة — مهما كان مقدار انحطاطها — خير نظام للحكومة فيها هو النظام الذى يناسب درجة الأمة من التمدن » .

ثم عرض الكاتب مطالب الأمة فى هذه الناحية . وتتلخص فيما يلى :

(أولا) تعديل طريقة الانتخاب .

(ثانياً) تجديد مجلس شورى الحكومة .

(ثالثاً) توسيع اختصاص المجالس القائمة .

وفرغ الكاتب من شرح هذه المطالب الثلاثة ؛ ثم قال للسير غورست :

«إن منح الأمة سلطة التشريع الأهلى والإدارة المصرية أصبح ضرورياً تدعو اليه مصلحة (انجلترة) لكسب صداقة المصريين ، ومصلحة (الخديو) ليساعدهم على نموهم السياسى ، ومصلحة (الأمة) لتخرج من حال الوصاية .»

«وأما من حيث (مجلس شورى القوانين) فإن مايوجد فى البلد الآن من

---

(١) الجريدة فى ١٨ مايو ١٩٠٨ . صفحات مطوية ص ١٩٧ .

شبه الدستور ، أو رائحة الدستور فإنما هو محض هبة قابلة ـ قانونا ـ للرجوع فيها . لأنه لم يقيد السلطة التشريعية التى يملكها الخديو إلا تقييداً وهمياً . فليس فيه مايدل على أن الخديو قد تنازل عن جزء من سلطته هذه للأمة » .

ثم عرض الكاتب فى مقاله صورة للدستور الانجليزى وللأصول التى بنى عليها وللإخلاص الذى يبديه الشعب الانجليزى للمحافظة على هذه الأصول ثم تساءل :

« فهل نحن نطالب بتوسيع اختصاص هيئاتنا النيابية على هذا النحو ؟ كلا — إنما نطلب الجزء الذى يمس حاجتنا من السلطة التشريعية وهو أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً فى القوانين التى تطبق على المصريين وحدهم دون غيرهم » .

وذلك أضعف الايمان .

وطالبت الجريدة فى تلك الآونة بحق المرأة فى الانتخاب . وعجبت مع هذا من زهد النساء المصريات فى هذا الحق قائلة :

« فنحن وإن كنا لانعترف بوجود نص شرعى فى نصوص الشريعة الاسلامية يحرم المرأة هذا الحق ؛ إلا أن السيدات المصريات يظهر أنهن لايرين الاعتراف لأنفسهن بهذا الحق المدنى ، لأنهن لم يظهرن إلى الآن رغبتهن فى أن يتحللن من ربقة الاستعباد إلى الحرية المخولة لهن شرعاً بنصوص الشريعة الاسلامية . ولم يبرهن حتى الآن على حبهن للاستقلال الذاتى فى القول وفى العمل[1] » .

وانتقل الكاتب بعد ذلك إلى (مجالس المديريات) فكتب عنها بعنوان (مسألة اليوم[2]) قال :

« أحق المسائل بهذا الاسم هى مسألة توسع اختصاص مجالس المديريات

---

(١) نفس المصدر المتقدم .

(٢) الجريدة فى ٢٨ مايو ١٩٠٨ .

وإنه ليندر أن توجد مسألة ما يمكن أن تكون موضوع اتفاق جميع الناس على منفعتها مثل هذه المسألة . ولكن الحكومة تقولها كلمة ناعمة الملمس : إن جرى الحكومة وراء إرادة الرأى العام فى مصر مجلبة للفشل ، ومدعاة للفوضى وافلاس . وكأنى بهم يقولونها أيضاً فيما يتعلق بطلب الأمة توسيع اختصاص مجالس المديريات ويدعون وهم خمسة ستة فى مصر وفى انجلترا أنهم يعلمون مصلحة الأمة أكثر مما تعلمها هى » .

ثم قال :

«من الخطر أن تسن القوانين على غير مايقتضيه العقل . ولكن من الخيانة أن تسن قوانين على غير مايريده الرأى العام . ذلك أن الأولى تضر بسعادة الأفراد وتقدمهم. ولكن الثانية تنكر الحرية وتخنقها، بل تذهب بفكرتها التى هى الأصل الأول لكل رقى وسعادة » .

ثم لخص الكاتب مطالب الجريدة لصالح هذه المجالس فيما يلى :

أولا — جعل إدارة التعليم الأهلى بأيدى هذه المجالس . وعدم الخوف من أنه إذا أعطيت مجالس المديريات حق إدارة التعليم الابتدائى والثانوى وحق الانفاق عليها من الضريبة المقترضة أن يكون معنى ذلك إيجاد (برلمان صغير) فى كل مديرية .

ثانياً — جعل الجمعية العمومية صاحبة الحق فى التصديق على قرارات مجالس المديريات ، فيما يتصل بالضرائب الاضافية .

ثالثاً — الثقة فى أعضاء مجالس المديريات والاطمئنان إلى أنهم لن يكونوا آلة فى يد مدير المديرية . والأمل أنه لن يكون تحت عمامة الشيخ الجليل منهم مجموع أغراض صغيرة ترمى بأسرها إلى المنفعة الشخصية . وأنهم لا يأتون بمصلحة عامة إلا مسوقين لها بشىء كثير من الظهور ، وقليل من الإخلاص وحب المصلحة العامة[1] » .

---

(١) الجريدة بتاريخ ٣١ مايو ١٩٠٨ .

رابعاً — عدم التأثر بالأمثلة الفردية المأخوذة من حوادث شخصية بين عمدة ومأمور مركز ونحو ذلك .

وختم الكاتب هذا المقال بقوله :

« إن إعطاء مجالس المديريات حقوقاً ليس لمجلس الشورى نظيرها إنما هو ابتداء لتغيير صورة الحكم يستتبع حتما تغيير نظام مجلس الشورى » .

ومع هذا وذاك فقد شاع بين المصريين فى ذلك الحين أن الحكومة إنما تضع مشروع مجالس المديريات ذراً للرماد فى الأعين . حتى تهدأ ثائرة الرأى العام فى المطالبة بالدستور والحرية . فما زال الكاتب بالحكومة يقنعها ، وبالرأى العام يهيجه . ومن ذلك قوله :

« إن الحكومة الاستبدادية الصريحة العداء للدستور إنما تستمد قوتها دائماً من ضعف الرأى العام فى الأمة . . وأن تنازل الحكومة للأمة عن حق من حقوق الحكم هو أصعب عليها من خلع الضرس . لأن آخر مايخرج من النفوس من الرذائل إنما هى رذيلة الاستبداد » .

وفى أول ديسمبر سنة ١٩٠٨ قرر النواب المصريون فى مجلس شورى القوانين باجماع الآراء المطالبة الصريحة بالمجلس النيابى . وجاء عملهم هذا رداً على الحكومة التى رفضت الجمعية العمومية من قبل نفس هذا المطلب ، ونعنى به المجلس النيابى . إذ ذاك هللت الجريدة وكبرت ، وكتبت فى هذا المعنى تقول:

« إن أول ديسمبر كان الحد الفاصل بين فناء الأمة فى شخص حكومتها وبين عصر جديد هو عصر الارتقاء السياسى الحقيقى الذى فيه تعتمد الأمة على نفسها ، وتعمل لنفسها . وتعتبر أن لها وجوداً ذاتياً مستقلا تمام الاستقلال . . » إلى آخر ماقال .

* * *

وفى الميدان السياسى كان لكاتب الجريدة جهد من نوع آخر ، هو كفاحه باسم الأمة المصرية ضد السلطتين الفعلية والشرعية . وقد حار الشعب المصرى

بينهما كما قلنا فمرة تتفق وجهة النظر عندهما فيظهر مايسمى (بسياسة الوفاق) ، ومرة تختلف فيظهر مايسمى بسياسة الخلاف وفى ثالثة يكون بينهما ما يسمى بسياسة (بين بين) وهكذا . والجريدة بين السلطتين تقف دائماً فى صف الأمة . لايعنيها أن تكون فى وقفتها هذه ضد الخديو ، أو ضد الوكالة البريطانية أو ضد حزب من الأحزاب المصرية ، أو صحيفة من الصحف الأهلية .

« وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديو توفيق . فقد دخل الإنجليز مصر على اتفاق بينه وبينهم . فألغوا الجيش المصرى ، واستبدلوا به جيشاً صغيراً ، ضباطه من الانكليز . ثم محوا العلوم الحربية العالية فى المدرسة الحربية ، فبدلا من أن يرقوها حتى تخرج ضباطاً كالذين يتخرجون فى مدارس انجلترة وفرنسا قصروها على تخريج ضباط بدرجة تجعل الضابط المصرى مرؤوساً دائماً . وقد دل هذا التصرف فى الجيش على أن الغرض منه إضعاف مصر لاتقويتها. وتلك إحدى نتائج سياسية الوفاق والتسليم للإنجليز بعمل مايريدون .

« لقد جاء الإنجليز مصر فوجدوا بها جيشا ثائراً ومجلس نواب . فألغوا الجيش الثائر ، واستعاضوا به غيره . وألغوا كذلك مجلس النواب ، وكان حقهم أن يبقوه فلم يفعلوا . بل ولم يستعيضوا به غيره . . . وذلك يدل أيضا على أنهم كرهوا لمصر أن تتدرج فى الحكم الدستورى .

« وإذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية ، وعملوا لتقوية الحكومة بأى شكل من أشكالها فكان من مقتضى ذلك أنهم حين أضعفوا الحكومة الدستورية أن يقووا الحكومة الشخصية أى الخديوية . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل أضعفوها هى أيضا . ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحقانية وقتذاك (فخرى باشا) رفع تقريراً إلى مجلس النظار باستغناء النظارة عن المستشار القضائى (مستر سكوت) . فانعقد مجلس النظار وقرر عدم استمرار مستر سكوت مستشاراً فى الحقانية ، وأرسل تلغرافا بذلك إلى الخديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتياح .

« فلم يكن إلا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على إلغاء ذلك القرار .

ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قلوب النظار المصريين . وزيادة الاستسلام من جانب الخديو . ووقعت الحكومة كلها فى يد المعتمد البريطانى يفعل بها مايشاء .. وكانت السياسة العالية تجرى على هذا النحو فى مجراها أيضا . وأكبر الأمثلة على هذه السياسة التخلى عن السودان وتركه . وكان ما كان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا . ولكنه لما لم ينجح بل استقال وجاءت وزارة نوبار باشا فأخلت السودان !

« هكذا جردت الأمة من سلطتها والحكومة الأهلية من هيبتها . فآمن المصريون بأن الإنجليز طامعون لامصلحون . وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى . وأخذ العمد والأعيان يستعينون فى قضاء أعمالهم التى لاتنتهى بالتقرب من الانجليز .

« فنتج عن سياسة الوفاق الأولى فتور عام فى فكرة الاستقلال ، وتراخ فى مفاصل الوطنية الصحيحة . وانصرفت النفوس عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل تصرف سىء إلى الانجليز »[١] .

وانتهى عهد (سياسة الوفاق) هذه بوفاة الخديو توفيق . ثم أتى عهد (سياسة الخلاف) منذ تولية الخديو عباس حلمى الثانى . وتناولت الجريدة هذه السياسة بالنقد كما فعلت بالأولى تماما . ومن ذلك ما كتبه لطفى السيد بعنوان :

(نتائج سياسة الخلاف)[٢]

فيه أثنى على عباس انكاره على الانجليز سياستهم معه ومع والده من قبل . فنبه بذلك الشعور الوطنى فى الأمة . ثم اتبع ذلك باقالة الوزارة الفهمية ، واقامة وزارة أخرى ، ومضى فى أمثال هذه التصرفات التى أفضت إلى سياسة الخلاف . ثم تجدد الوفاق أو (شبه الوفاق) بتنصيب وزارة نوبار سنة ١٨٩٤ . ولكن هذا الوفاق الأخير لم يكن مبنياً على المنفعة المتبادلة ،

---

(١) مذكرات لطفى السيد : مجلة المصور : بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٥٠ .

(٢) الجريدة فى ٥ يوليه ١٩٠٨ .

بل كان مبنيا على الاستسلام للقوة . ثم لم تلبث أن توترت العلاقات بين عباس وكرومر . وبقى الحال على ذلك حتى جاء الدون غورست . وفى عهده عادت (سياسة الوفاق) للمرة الثانية أو الثالثة ، وكان من نتائجها التدخل من جانب المعتمد البريطانى بأكثر مما كان عليه قبل ذلك . وضاق المصريون بكل ذلك ، وعبرت عنه جرائدهم ومجالسهم ، وأدركوا يومئذ أنه أصبح عليهم أن يناضلوا من أجل دستورهم سلطتين ، وأن يحاربوا فى جبهتين . وفى هذا المعنى كذلك نشرت الجريدة مقالا لها بعنوان : (الغرض من سياسة الوفاق)[1] .

جاء فيه : « نظلم أنفسنا جدا إذا نحن اعترفنا بأن الانكليز منذ سنة ١٨٨٧[2] قد عملوا فى البلاد عملا واحداً يدل على أن لهذا الاحتلال آخرا ينتهى عنده .. وقد ادعى الانجليز على المصريين أنهم يحملون على أميرهم كما يحملون الانكليز أنفسهم ليقولوا بأن الاحتلال قد عاد إلى غرضه الأول ، وهو تأمين العرش الخديوى » .

« هكذا بقيت سياسة الوفاق تنتج فى نفوس المصريين نتيجة واحدة لاتتغير أبدا ، وهى اعتقادهم بأن السلطتين الشرعية والفعلية تهدفان إلى توسيع السلطة الشرعية بعض الشيء فى مقابل أن يرضى الخديو عن تصرفات الانجليز فى مصر . فى حين أن سياسة الخلاف كانت تنتج فى نفوس المصريين نتيجة واحدة لا تتغير كذلك ، وهى اعتقادهم بأن كلتا السلطتين الشرعية والفعلية لا تريدان توسيع سلطة الأمة ، وبعبارة أخرى لاتريدان بمصر خيرا من ناحية الدستور » .

وحين استقر فى نفوس المصريين هذا المعنى أدركوا أن مؤامرة خطيرة تدبر بين عابدين وقصر الدوبارة على الدستور المصرى . فاشتدت مطالبتهم به ، وكانت للجريدة وكاتبها لطفى السيد القدح العلى فى هذه المطالبة .

---

(١) الجريدة فى ٢ يوليه ١٩٠٨ .

(٢) فيها عقدت معاهدة لتحديد شروط الجلاء كان للانجليز فيها الغنم وعلى المصريين الغرم

وفى المجال السياسى كذلك رأينا لكاتب الجريدة جهدا من نوع ثالث وجه فيه الكلام للوزراء المصريين ، كما وجه الكلام من قبل للنواب فى مجلس الشورى والجمعية العمومية ومجالس المديريات ونحوها . فأفهم الوزير يومئذ واجبه نحو أمته فى ظل الحكومة المطلقة التى هو منها . وطلب إلى الوزارة أن تقوم مقام المجالس النيابية الصحيحة ما دامت مصر محرومة منها . وفى هذا المعنى يقول :

« إن الدستور لا يخلق للأمة نظاما ديموقراطياً من العدم ، ولا يهبها قدرة على مواجهة حكومتها . ولكن الدستور هو تدوين الواقع من قدرة الأمة على أمرها ، وأخذها بزمام مصالحها . الدستور لا يخلق فى نفوس الأفراد والموظفين صفات الحرية والاستقلال . ولكن الدستور يحمى كل الصفات وينميها ، ولا يجعل بعد ذلك للاستبداد عليها سبيلا . الدستور لا يخلق حق مراقبة الأمة على حكومتها . لأن هذا الحق طبعى صرف موجود فى طبائع الأمم وفى طبائع الحكومات . ولكن الدستور يقرّ هذا الحق ويجعل الحكومة تعترف به اعترافاً صريحاً . علينا أن نفهم أنه إذا أعوزنا الدستور المكتوب لا يعوزنا العمل على قواعد الدستور . وإذا نقصنا أن يكون لنا نواب يسألون الوزراء عن تصرفهم فى نظاراتهم فلا نعدم أن نسألهم على صفحات جرائدنا . وكما تكون الوزارة رهينة ثقة النواب بها كذلك نسعى أن يكون الوزراء رهينة ثقة الرأى العام . ويكفى فى ذلك أن يحترم الوزراء أمتهم ، ويطأطئوا رؤوسهم أمام ارادتها . إنا إذا سرنا على هذا النحو من العمل اختصرنا الطريق إلى الدستور ، وكان أخذه من أقرب ما يكون[١] » .

ثم فى مقال له بعنوان (مسئولية الوزارة[٢]) قال :

« مجلس النظار جزء من الحكومة . ولكنه من الحكومة المطلقة يعتبر الممثل الأول لسلطة الأمة . وإن كان تمثيله لتلك السلطة ضعيفاً جداً . إلا

---

(١) الجريدة فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٨ لعنوان : (علينا وعلى الوزراء)

(٢) الجريدة فى ١٢ نوفبر ١٩٠٨ .

أن النظار إذا رشدوا استخدموا هذا المركز الوطنى للقيام للأمة بما يقوم به المجلس النيابى فى كثير من الأمور ».

ثم فى مقال له بعنوان : (الوزاوة فى شهرين[١]) قال :

« قرر مجلس شورى القوانين بأن لوائح التعليم هى اللوائح التى يجب عرضها عليه . فانظر ماذا عملت الوزارة الوطنية المسئولة؟

عوضاً عن أن تحترم رغبة المجلس ، بل تحترم رغبات الأمة فى شخصه ، أبلغت مجلس شورى القوانين بأنه بأنه غير محق فى طلب تلك اللوائح . ولكن الحكومة تعرض عليه اللوائح مؤقتاً مع حفظ الحق فى أنها صاحبة السلطة المطلقة فى عرضها عليه ، أو عدم عرضها مرة أخرى . . ضحك على المجلس وعلى الأمة ! »

ثم ضرب الكاتب أمثلة سبعة صارخة فى الدلالة على عدم احترام الوزراء للأمة ، مع أنهم من أبناء هذه الأمة . وراح الكاتب يعلم الوزراء كيف يحترمون أنفسهم . وباختصار طالب الكاتب الوزارة التى تأتى الحكم أن يكون لها خطة واضحة فى تحقيق مطالب البلاد ، وأن يتوخى رئيسها اختيار الوزراء القادرين على تنفيذ هذه الخطة ، وأن يسأل الوزير نفسه عند قبوله الوزارة : هل أنا قادر على ما يرد منى أم لا ؟

* * *

تلك هى الامور الثلاثة التى اشتغلت بها الجريدة فى الميدان السياسى ، أو تلك هى المعانى الثلاثة التى قامت الجريدة بتلقينها للشعب المصرى والحكومة المصرية وقتئذ . وحسبها فى الحقيقة ذلك المقدار . غير أنه كان لكاتب الجريدة اختفائها جولة أخرى فى مجال الفكر السياسى دارت حول فكرتين . إحداهما قديمة وهى (فكرة الاستعمار الاوربى) ، و الاخرى حديثة ظهرت عقب الحرب العالميـة الثالثة ، وهى (فكرة ميثاق الأطلنطى). وسنكتفى بالإشارة إلى الاخيرة منهما ، وهى فكرة ميثاق الأطلنطى :

(١) الجريدة فى ١٨ يناير ١٩٠٩ .

ألقى الأستاذ الفيلسوف محاضرة فى هذا المعنى عنوانها : (الأخلاق وكيف ينبغى أن تكون لتحقيق تعاون عالمى) وذلك بقاعة يورت التذكارية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٤٣ جاء فيها :

« التعاون العام بين أمم العالم موجود على وجه ما . وليس خاضعا لنظام معين . غير أن هذا ليس هو التعاون الذى يقصد إليه (ميثاق الأطلنطى) . بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذى يمنع الاعتداء ويؤدى إلى السلام الدائم .

ونحن إذا رجونا الخير وقدرنا مانحن فيه اليوم من الضرورات الاجتماعية والحرج السياسى ، وقدرنا أن العالم أصبح لايطيق بعد الآن حروباً على غرار الحروب الحاضرة ، وقدرنا حق قدره الارتقاء الاجتماعى فى العالم . ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة ، بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجربة القاسية للأخطاء الماضية ستقمع العالم فى تسديد خطأه إلى الجد متى قدرنا كل ذلك وجب أن تتقبل مشروع السلام الدائم بغاية الارتياح . فقد آن لضمير العالم أن يتنبه ويجعل الأخاء الإنسانى حقيقة واقعة بعد إن لم يكن إلى الآن إلا لفظاً ليس له ما يدل عليه .

ثم شرح المحاضر كيف أن الناس بوازع من قانون الأخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة — أى بوازع من سلطان البوليس والقضاء تركوا عاداتهم الأولى فى العدوان والجرى على أحكام « حق الأقوى » .

أما الحكومات فلم نجد كما وجـــد الأفراد (محاكم) تفض النزاع بينها ولا (بوليساً) يمنع الحكومات من اعتداء بعضها على بعض ، فيبقى فيها روح الفرد الأولى — روح القبيلة وروح الاعتداء على الغير استعلاء عليه واستعباداً له ، وطمعاً فى أرضه ومرافقه . وإذن فقد ظفرنا من المدنيات القديمة بأدب للأفراد ، ولم نظفر بأدب للحكومات يمنعها من الاعتداء والطغيان .

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع أنها استوعبت بحث الأشياء الانسانية لم تتعرض — ولو عن طريق التخيل — إلى امكان القضاء على الحرب بين الأمم ، ولم تفكر فى تحقيق الأخاء الإنسانى العام . ولا فى السلام الدائم . وكذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية .

« الحرب الهية فى ذاتها لأنها قانون العالم » كذا قال بعض الصوفية .

وقال أيضاً « الحرب آلهية بنتائجها التى تغرب عن تقديرات الناس » الخ .

والذى يراه دعاة السلام أن الحرب ليست من طبع الإنسان بل هى عادة تأصلت فيه لم يتمكن من القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية

خطر أول فى موضوع السلام الدائم (لولسلى) وزير هنرى الرابع . ثم خطر للأب سان بيير فى أوائل القرن الثامن عشر . وفى أواخر ذلك القرن انبعث صوت الأخاء الإنسانى من جامعة (كونسبرج) حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها (إيمانويل كانت) إنشاء حكومة أمم لمنع اعتداء بعضها على بعض !.

وبقيت هذه الفكرة خيالا يداعب الساسة لم يفكر واحد منهم فى تحقيقه . ومن هؤلاء (ميترنيخ) الذى صرح فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ بأن هذه الكلمات الضخمة مثل « إعادة النظام الاجتماعى » ، « تحديد المذهب السياسى لأوربا » « والسلام الدائم المؤسس على توزيع عادل للسلطان » إنما نطق بها السياسة لطمأنة الناس ، ولتفيض على المؤتمر كرمة وعظمة . لكن الغرض الحقيقى للمؤتمر هو توزيع أسلاب المقهورين على القاهرين » .

وعشية هذه الحرب الحاضرة قال المعروف « ألدس هكسلى[١] :

---

(١) الدس هكسلى هو صاحب كتاب (الغاية والوسائل) بى فكرته فيه على تربية الجيل على صورة تتدرج بنتائجها للوصول الى الانسان المثالى أو « الانسان اللا مرتبط » وشعر الكاتب باستحالة الوصول الى ذلك فقال فى نهاية كتابه :

« لا شك أن هذه المهمة قد نفذت على وجه ناقص . على أنى لا أعبر عن محاولتى اياها . فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلى » .

« إن أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان ، أدب الخداع : ولم يتغير هذا الأدب منذ عشرين ! » بل كما قال الفيلسوف سينك :

هذا هو قانون الانسانية : كل ما هو محرم عليك إتيانه وأنت فرد مطلوب منك إتيانه وأنت مدافع عن الدولة » !

وتلقاء هذه التجارب القاسية صـــدر (ميثاق الاطلنطى) فى أغسطس سنة ١٩٤١ . وبه حق لأنصار السلام أن يشعروا بأن السياسة الدولية صادقة هذه المرة . وكفيلنا بذلك الضرورة العالمية . وكفى بالضرورة كفيلا .

ورحب الكاتب بعد ذلك بالميثاق . وهو يرجو الخير من تدخل أمريكا فى السياسة العالمية لتنصر الشعوب الصغيرة قائلا : « إن الديموقراطيتين العظيمتين أمريكا وانجلترة هما الكفيلتان ببقاء العالم ينعم بنعمة الحرية الشخصية » .

ثم أشار المحاضر إلى الادارة التى تنفذ الميثاق فقال أنها الإدارة التى ذكرها (مستر ايدن) ، وهى إيجاد قوة تنفيذية تكل إليها الأمم تنفيذ قرارات الميثاق .

ثم عاد المحاضر فتوجس خيفة من هذه الادارة التى كمل نظامها وقال عنها (ألدس هكسلى) :

« والعنف لا يولد إلا العنف وهذه الادارة تشبه أن تكون عصبة مؤلفة للحرب لا السلام » . إلى آخر ما قال

الاستعمار الأدبى والميثاق الاطلنطى :

واستطرد المحاضر فى فكرته فقال بعد ذلك

غير أن هذه الوسيلة لا توصل إلى الغاية إلا إذا اقترن بها أبطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه ، حتى يمكن القضاء على التنافس الحاد بين الأمم الكبرى ، ويمكن أن تستل من نفوس الأمم الصغيرة تلك الأحقاد التى ولدها استعلاء قوم على قوم .

وكما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام الدائم كذلك لم تتعرض لفكرة استنكار الإستعمار . ولعل أول من يتعرض لها من الفلاسفة هو الفيلسوف (بنتام) الذى رأى أن الاستعمار غير نافع للأمم المستعمرة : فضلا عن كونه مفسدا لأخلاق الأمم المستعمرة . ومن أجل هذا كتب (بنتام) رسالة إلى (تاليران) عنوانها « حرروا مستعمراتكم » . ثم أتى عهد جمعية الأمم السابقة فعرض على الأمم المستعمرة فى فرض عدة أن تنزل عن مستعمراتها وتضمها تحت السيادة الدولية ، فرفضت جميعاً بلا استثناء !

بقى أن نشير إلى أن بعض الكتاب السياسيين يرون أن الاستعمار والوطنية شيئان متلازمان . ولكن من اليسير أن يحب قوم وطنهم دون أن يقترن ذلك بميل إلى الاستيلاء على غير من الأمم الضعيفة .

وقد يكون ذلك صائراً من الوطنية الجامحة . أما الوطنية العاقلة — وطنية المتقبل — فإنها لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء ، كالرجل الفاضل — مع حبه لنفسه — يسعى إلى سعادة غيره .

والنتيجة التى حرص الأستاذ على الوصول إليها هى أن التعاون العالمى ممكن متى اقترن به إلغاء الاستعمار ، وأن أدب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف إلى الآن بعيد عن أن يحقق التعاون العالمى المطلوب ، بل لا بد لهذا التعاون من سياسة دولية أخرى غير السياسة التى جرى عليها .

الفصل الخامس

الجريدة فى الميدان الاجتماعى

لم تر لصحيفة مصرية من الصحف حتى قيام الحرب العظمى عناية كبرى بالمجتمع المصرى ما رأينا (للجريدة) منذ قام على تحريرها لطفى السيد . فلا (مصباح الشرق) للمويلحى ، ولا (المؤيد) لعلى يوسف ولا (اللواء) لمصطفى كامل قد بلغت فى هذا المجال بعض ما بلغته الجريدة فى السنوات السبع التى عاشتها .

ومصدر ذلك أن العقل الذى صدرت عنه (الجريدة) كان يميل إلى التحليل والتعليل ، ويميل إلى التفكير الفلسفى المنظم .

والمجتمع فى ذاته مجال من مجالات الفلسفة والتأمل . والمجتمع فى ذاته كذلك يتألف من الأفراد الذين تتألف منهم الأسرة ، ومن مجموع الأسر تتكون الأمة . ولهذه الأمة جماعة تحكمها باسمها وبرغبة منها وهى الحكومة .

وعلى هذا الأساس توجهت عناية (الجريدة) إلى الفرد رجلا كان أوامرأة ، وإلى الأخلاق الشخصية للأفراد والأخلاق العامة للجماعات ، ثم إلى الأسرة المصرية فى المدينة أو القرية ، ثم إلى المجتمع المصرى كله لوحدة مستقلة ، ثم إلى الأداة التى تتولى حكم هذا المجتمع المعقد التركيب وهو الحكومة . كما عنى الكاتب فى أثناء ذلك بالمشكلات التى تواجهها الأمة المصرية ، والمعانى التى يجب أن تتعلمها حتى تضمن لنفسها الرقى المطرد .

الجريدة والموظف المصرى :

بدأت الجريدة (بالأداة الحكومية) التى هى على رأس المجتمع المصرى : فساءها أولا أنها أداة تتألف من قطع لا يقع التجانس بينها ، وفى هذا يقول كاتبها فى مقال له بعنوان :

حفت الجنة بالمكاره[1]

« كذلك حفت الحقيقة غالباً بمؤثرات تجعلها مكروهة غير سائغة ينفر منها الإنسان لأول وهلة حتى يروض نفسه على السكون إليها .

... أنظر نظرة عامة إلى أية وزارة من وزاراتنا تجد الآلات أو القطع المكونة منها تلك (الماكينة) الادارية قطعاً متنافرة بطبيعتها لا تتفق أجزاؤها فى الشبه ، ولا فى المعانى النفسية ، ولا فى تقدير قيم الحوادث التى تقع كل يوم فى جوف الإدارة المشتركة . بل نجد الانجليزى يحتقر المصرى بطبعه ، ويراه أنقص منه فى درجة الإنسانية . وترى المصرى زميل ذلك الانجليزى يضمر له السوء إذا كان ضعيفاً أو يجهر له بالعداء إذا كان قوياً . . . .

ثم قال :

« إن المصريين مصيبون جداً حين يطلبون أن تكون أجزاء الادارة الواحدة متجانسة تمام المجانسة . فإما انكليز لا مصرى بينهم ، وإما مصريون لا انكليزى بينهم . وما دام الأول غير مستطاع وجب على الحكومة أن تبدأ منذ الآن بالاكثار من عدد المصريين فى الادارة المصرية » .

ثم تحدثت الجريدة عن هذه الفكرة التى دعت الانجليزى إلى حشو الوزارات بموظفين منهم . وقالت إن الغرض الأول من تنفيذها كان هو تعليم المصريين الادارة ، وترويضهم على الحكم .

---

(١) الجريدة فى ٩ يولية ١٩٠٨ .

ولكنه ثبت للناس أن أكثر هؤلاء الانجليز من الشباب الذين لا يعلمون شيئاً ، ولم يظهروا فى عملهم كفاءة ما ، ولم يتعلم المصريون منهم شيئاً ما ، بل أخذوا يعلمونهم أموراً كثيرة يجهلونها فى الادارة .

ولكن هذه التى أصابت الحكومة وسببت كل هذه العيوب قابلة للشفاء . وشفاؤها ينحصر فى « حرية العمل » .

فكما أن الوزير يجب أن يكون هو الوزير ، والمستشار هو المستشار . يجب كذلك أن يكون الرئيس هو الرئيس ، والمرؤوس هو المرؤوس ، والمدير هو المدير ، والمفتش هو المفتش وهكذا . ولن يكون ذلك أولا إلا بحسن الانتقاء .

ثم تعرضت الجريدة إلى (خلق الموظف المصرى) وجعلت تحلله من هذه الناحية وبيان الأسباب التى من أجلها مال إلى هذا النوع أو ذاك من أنواع الخلق .

فى أخلاق الموظف المصرى (التملق والزلفى والخوف من الرؤساء) فما علة هذه الأخلاق يا ترى ؟

علتها الوحيدة هى انعدام الثقة . ذلك أن الموظف المصرى (منذ تخرجه فى المدرسة واشتغاله بوظيفته وارتقائه فى المناصب إلى نهايتها ، وهو لايستطيع أن يكسب ثقة اخوانه ولا ثقة أمته . بل لا يعقب الناس على كل ترقية ينالها إلا بقولهم (فدان حظ ولا قيراط شطارة) . ثم إذا خرج من وظيفته انزوى فى عقر داره فلا يرى إلا فى الأفراح والمآتم . وهكذا يموت فى نفس الموظف شعوره بالاستقلال الذاتى فى أثناء عمله[١] .

ثم وصف الكاتب كيف ينزلق الموظف المصرى شيئا فشيئا إلى مهاوى الملق والزلفى وكيف يدعى مع ذلك أنه كان لا يرى ذلك رأيا لولا أن الوسط

---

(١) الجريدة فى ٢١ يناير سنة ١٩٠٩

الذى يعيش فيه قد اتجه به إلى هذه الفكرة ، والحكومة التى يعمل لها تخشى عاقبة الموظف المستقل برأيه ، لأنها حكومة مطلقة .

ولكن الكاتب يرد على هذا الموظف قائلا :

« تكرر كل يوم أن النفس الواحدة إذا علت إلى معرفة قيمة الحياة ، وصبرت على احتمال غضب الوسط وانتقاصه إياها تشعشعت فى الأمة بأسرها . فعلى هذا الموظف أن يتمسك بمبادئه . وإلا كان جهله خير من علمه الذى قضى فيه أكثر حياته . . الخ .

ومن خلق الموظف المصرى (عدم الشعور بالمسئولية) . ومرجع ذلك سوء فهمه للوظيفة الحكومية . وسوء فهمه كذلك للغاية منها .

فالخطأ الأول ناجم عن نظر الكثيرين إلى أن الحكومة إنما جعلت لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين . والخطأ الثانى ناجم عن نظر الكثيرين أيضا إلى الوظيفة على أنها ضرب من ضروب الامتياز أو الغنيمة . والحقيقة أن الوظيفة — مهما كان نوعها — ضريبة على الموظف وليست منحة له . فإذا عجز لأى سبب عن أن يؤدى لأمته أكثر ما يستطيع أداءه من خدمة الحق أو العدل ، وتحقيق المبادىء التى يعتقد فى صلاحها فالواجب عليه أن يستقيل من وظيفته .

ثم ضرب الكاتب فى مقاله مثلا بسعد زغلول فى نظارة المعارف ، وبسعد زغلول فى نظارة الحقانية كذلك . وقد استقال من هاتين النظارتين حين لم يتمكن من التوفيق بين آرائه وارضاء السلطة القائمة [١] .

ومن عيوب الموظف المصرى أنه (لا يفهم حدود وظيفته) .

والسبب فى ذلك أنه ينظر إليها كمورد من موارد الرزق كالتجارة أو الزراعة ونحوهما . وليست الوظيفة كما قدمت إلا نوعا من الضريبة التى

---

(١) استقالة سعد زغلول الجريدة فى ١٤ أبريل سنة ١٩١٢

يؤديها كل كفء فى الأمة . فإذا كان القاضى غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأخذ كفايته من بيت المال . بهذا قضت نصوص الشريعة الإسلامية . فليس من الصواب إذن أن يظن الناس أن التوظف فى الحكومة مورد رزق ثابت ، يسعى إليه المرتزق كما يسعى فى التجارة والزراعة . بل يجب على الموظف الحكومى أو الحاكم ألا يرى فى الوظيفة إلا شيئاً واحداً هو امكان القيام بها من حيث العلم اللازم لها ومن حيث الاستقلال الواجب له فى عمله .

ومن عيوب الموظف المصرى (أنه لا يفهم حدود الطاعة[1]) ، وقد كتبت الجريدة فى هذا المعنى مقالا بدأه المحرر بحوار دار بينه وبين ثلاثة أشخاص فى ثلاث صور مختلفة . أولاه كانت بينه وبين مأمور ، والثانية بينه وبين حكمدار ، والثالثة بينه وبين أحد الأعيان .

وفى الحالات الثلاث شكا الموظف المصرى من أن رئيسه الانكليزى أهانه وشتمه فغضب الموظف المصرى لذلك واشتد بكاؤه . واستمر على ذلك حتى إذا قيل له (استقل إذن من الوظيفة إيثا آ لكرامتك) ، وسكت عنه الغضب ، وصمت عن البكاء والشكوى ، وكأن شيئاً لم يكن . فإذا ناقشه أحد العقلاء فى ذلك ، وفى عدوله عن الاستقالة أو الاحتجاج على الاهانة ، أجاب بقوله :

« وماذا أعمل وحدى ، وما جدوى عملى ؟ فإ ا قلت له : وما الذى يضرك أن تكون المصرى الوحيد المحافظ على كرامته بشرفه ؟ سكت أيضاً وكف عن الشكوى ، ثم اتبع ذلك بقوله على سبيل المغالطة : إن نظام الحكومة شىء ، ولكن الذى يدخلها تجب عليه الطاعة .

والطاعة معنى له حدود معينة بالقانون الأصلى ، أو بقانون الأدب

(١) الجريدة فى ٣ نوفبر سنة ١٩٠٨

والعرف ولكن هذا المعنى لاحد له مطلقاً فى نفس الضعيف .

كما أن السلطة معنى لاحد له مطلقاً فى نفس القوى .

وبلادنا قد تعاقبت عليها عصور الاستبداد التى جعلت خروج معنى الطاعة عن حدوده هو القاعدة — لا الاستثناء — كما فى البلاد الحرة .

فأول ما يجب علينا فى التربية السياسية أن نلاحظ استقلال الفرد قبل استقلال الأمة . لأن استقلال الفرد فى ذاته وفى عمله لا يتوقف مطلقاً على الاستقلال العام . بدليل أنه يوجد فى كل أمة مستعبدة أفراد أحرار مستقلون .

* * *

الجريدة والمجتمع :

ولندع الأداة الحكومية التى هى رأس المجتمع إلى هذا المجتمع لنرى كيف عالج الكاتب مشكلاته الخلقية بعد أن فرغ من علاج المشاكل السياسية

ولعل أول ما عابه الكاتب على هذا المجتمع المصرى أنه مجتمع (فاقد الشخصية) . وفى هذا يقول لطفى السيد[١] :

« صاحبك الذى يجفوك — لا لأنه غضبان منك — ولكن بالوكالة عن غيره لا تلمه بل اندب شخصيته ، فإنه ميت فى ثوب حى ، ومفقود فى زى موجود . وإنما هو امرؤ إمّعة لا ينفعك تقربه منك ، ولا يضرك تخلفه عنك . لأنه فاقد الشخصية ، لا يزيد نصراء مذهب بعبثه قوة ، ولا عددهم واحداً .

رحمة الله على السيد جمال الدين الأفغانى . لزمته فى الآستانة شهراً وبعض شهر ، وكلما جاء الكلام عن مصر كان يقول :

ما رأيت قوماً أقل استمساكا بشخصيتهم القومية من المصريين .

صدق السيد فإن منا من لا ينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين .

---

(١) الجريدة فى ١٩١٣/١٢/٢٤

كأن انتسابه إلى الجنس المصرى نقص وعيب . ولا يزال بعضنا ممن دست فيه الأعراق التركية . كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على الروابط الجنسية والوطنية . . . الخ .

واتجه الكاتب إلى عيب آخر من أخطر عيوب المجتمع المصرى . وهو (عبادة البسالة[١]) .

حيث قال :

« تسحر العوام قدرة بطل من أبطال الحروب فَتَعْنُو له وجوههم ، ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها . وإنهم بذلك ليشركون بالله أرباباً جدداً من دونه وهم لا يشعرون » .

والطريف أن الكاتب إنما ضرب المثل هنا بالأغانى المصرية فى عهد الحملة الفرنسية . وعرضها على قرائه ووجد أنها مقطوعات كلها اطراء لنابليون وتودد اليه وأعجاب به وبجيشه ، واظهار للتلذذ الكاذب بفتك العساكر الفاتحة بطوائف الغزو العرب ونحوهما[٢] .

ثم مضى الكاتب يقول :

« فانظر كيف أن عبارة البسالة أفسدت على العوام شعورهم الطبيعى . أفسدت عليهم حب بلادهم . أفسدت عليهم تقديرهم للحوادث الواقعة تحت نظرهم ؛ حتى سمحوا لأنفسهم أن يتغنوا بمثل هذه المقطوعات . وغنوا فى عبادة البسالة حتى نسوا أن العرب والغز اخوانهم والمدافعون عنهم وأخذوا يترنمون بذكر انهزامهم أمام الجيش الفرنسى ! !

ثم ذكر الكاتب أنه لحب البسالة فى الشعب المصرى مظاهر شتى . منها على سبيل المثال :

حب المصريين للحكومة الفردية الاستبدادية ، لأن أساسها — كما يقول

---

(١) الجريدة فى ٨ فبراير ١٩١١ .

(٢) راجع المنتسجات . الجزء الأول ص ٢١٨ — ٢١٩ .

علماء السياسة — هو عبادة البسالة . ومنها الذل والضعف اللذان استوليا على نفوس الشباب ؛ لأنها أثر من آثار عبادة القوة والأقوياء ؛ ومسخ الشعور الحقيق للعبادة وتحويله من الخضوع لله المنفرد بالقوة إلى الخضوع للأشخاص واكبار القوة الوحشية.

ثم قال :

« إن عبادة البسالة ليست فى الحقيقة إلا مرادفاً للجهل الممزوج بالذل ، أو الذل الممزوج بالخوف ، أو الخوف المصبوغ بصبغة الحب والطاعة . أى أنها رذيلة اجتماعية تفوق جميع الرذائل فى أنها ليست رذيلة بسيطة بل مركبة من جميع رذائل الذل والخوف والكذب والتملق والنفاق . . . الخ . وكل رذيلة من هذه هى على الأقل صريحة ولكن عبادة البسالة بالمعنى الذى نعنيه ليس فيها شىء من الصراحة .

فحقيق بالانسان أن يكرم بنى الانسان ، ويعطى كل امرىء حقه . ولكن لا يصح أن يصل به سوء النظر أو الغفلة إلى حد أن يتخذ إلهاً مع الله !

ومن عيوب المجتمع المصرى (الرياء) . يقول لطفى السيد[1] :

« أرأيت الذى يقول رأيه فى مسألة بعينها ، ولا يلبث أن يغيره من غير سبب إلا شغفه بإرضاء عظيم ينتظر نفعه ويخشى غضبه ، أو اتقاء لأن يعلن عنه أنه غير محب لوطنه ؟

وبالجملة نعنى ذلك الذى يتخذ رأيه قميصا وقتيا يلبسه كلما كان متفقا مع « المودة » ، ويخلعه متى جاءت « مودة جديدة » يكره معها لبس ذلك القميص القديم .

ثم قال :

« لست أنتزع من الخيال صورة هذا الذى أصفه كما يصنع الشعراء . ولكنى ناقل من الطبيعة صورة قد شاعت فى الناس شيوعا لا أظن السكوت

---

(١) الجريدة أول فبراير ١٩٠٨ .

على محاربتها إلا ضربا من السكوت عن الحق . والساكت عن الحق شيطان أخرس .

« هذه الرذيلة — رذيلة الرياء — يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح فى الحياة . وهى وسيلة نافعة فى البلاد الاستبدادية التى يتوقف نجاح الفرد فيها — مهما كان كفؤاً على رضا السلطان وأعوانه . ولاشىء يرضى السلطان غير العبادة . والذى يرضى بأنه يبيع نفسه عبداً ليشترى بثمنها قوتا يعيش به استبعد كثيراً أن يكون حافظا للصورة التى خلقه الله عليها ، صورة الانسان ذى الشخصية ، صورة الحرية . ومامثل هذا الناجح بريائه إلا كمثل الذى ينجح فى الحصول على الثروة من طريق السرقة . فبئست الوسيلة وبئست الغاية .

« قال أرسطو : خلق بعض الناس ليكون حاكما ، وخلق بعض الناس ليكون محكوماً . ولكنا نظنه قد أخذ هذه القاعدة من ملاحظته الشخصية لبعض قومه ، ولأخلاق جيرانهم من الأسيويين . وهذه الملاحظة لاتكفى وحدها لتقرير قاعدة عامة مثل هذه القاعدة . لذلك نقول إن الله فطر الناس على فطرة واحدة ، أو متقاربة الفروق جداً . إنهم جميعاً فطروا على الحرية الشخصية ! » .

وبدا للكاتب من عيوب المجتمع المصرى (انتشار البغى) بين طبقاته . وفى ذلك يقول : [١]

« أساس البغى فى نفس الباغى قوة تخدعه . غير أن الأمثلة فى هذا العالم قد يدل ظاهرها على خلاف هذه القاعدة . وإن النظر السطحى فى هذه الأمثلة الكثيرة الوقوع بين ظهرانينا هو على ماأظن الهادم الأعظم لسياج الأخلاق الفاضلة . والمقوض لدعائم الثقة فى مبادىء الخير ، بل المزعزع فى بعض القلوب لقواعد الإيمان بالله الواحد القهار . ومتى اعتقد القاضى ذلك رأى

(١) الجريدة فى ١٩١١/١٢/٣٠

استقلاله الذاتى خطرا عليه . فيضحى به على مذبح القوة القاهرة ، ويصبح لايفكر إلا كما يفكر الحاكم . ولا يرى إلا بعين الحاكم ، ولا يسمع إلا بأذن الحاكم . يطيعه الطاعة العمياء — لافى حدود القانون المكتوب — بل فيما يخرج عن حدود القانون والمصلحة أيضاً . ولا شك أن هذا النظر هو الذى جعل الحكومات الاستبدادية خطراً على أخلاق المحكومين ، لأنها تورثهم دائماً طبائع الاستبداد .

« لو أمعنا النظر لوجدنا أن جزاء البغى يقع على الباغى أولا ، لأن أول عمل من أعمال البغى هو بعينه أول سبب من أسباب سقوط الباغى وتملل قوته . فإذا رأيت امرأ بغى على آخر فاحكم بأن قوته بدأت تتحلل، وسلطانه أخذ يتقلص . فإن أسباب قوة القوى رضى النفوس به ، واجتماع القلوب إلى نصرته . فما بغيه إلا هدم لقوته . لذلك قالوا : على الباغى تدور الدوائر .

ومما عابه الكاتب الفيلسوف على المجتمع المصرى كذلك (تساهله فى الحقوق العامة) . وكتب فى هذا المعنى مقالا بدأه بقوله(١) :

« لأجل خاطرك قبلت أن أعطيه صوتى . هذه الجملة هى التى يجيب بها العمدة أو العين الذى جاءه صاحب له ، عزيز عليه رده ، يرجوه فى أن يعطى صوته (لفلان بك) عند الانتخاب بمجلس المديرية . وليس فى معانى الرجاء ولا فى ألفاظه ذكر أو إشارة إلى أن المطلوب انتخاب رجل نافع يعرف أوجاع الأمة ، ويريد أن يشفيها منها . ثم إن الذى يرشح نفسه للانتخاب لايقيس قواه العقلية وقدرته العملية ليعلم إن كان انتخابه مفيداً لبلاده ، أو مضراً بها ، لاشىء من ذلك يرد على خاطر المرشح .

« — كلا — أنا لاأعطى صوتى لصاحبك لأنى وهبته لصاحبنا فلان من قبل . وأنا آسف على أنك قد جئت متأخراً . وهذا هو الجواب الذى يستعمله مندوبو الانتخاب ليردوا به جواب وسطاء الانتخاب . لم نسمع أن أحداً

(١) الجريدة فى أول ديسمبر سنة ١٩٠٩

من المندوبين قال للواسطة بأن الناس ائتمنونى على هذا الصوت : فلا أخونهم فيه ، ولا أعطيه لصاحبك لأنه غير كفء للنيابة عن الأمة » .

وهكذا كان من عمل الجريدة أن تعلم الشعب المصرى كيف يهيء نفسه للحياة النيابية الصحيحة ، وكيف يروض نفسه عليها ، وكيف يعرف حقه فى المسائل العامة ، وكيف يحافظ محافظة تامة على هذه الحقوق ، ثم كيف يكون له آخر الأمر مايسمى بالرأى العام . وفى سبيل هذه الأغراض أخذ الكاتب الفيلسوف يضرب للشعب المصرى المثل بألمانيا — كيف أنها كانت تطيع الامبراطور غليوم طاعة عمياء يوم كان هذا الامبراطور لايصدر إلا عن مصلحة ألمانيا ، ولايعرف الراحة ولا الترف من أجل هذه المصلحة . ثم وجد فجأة أن الشعب الألمانى انقلب على هذا الامبراطور ، وثار عليه وزراؤه الذين عينهم بنفسه ، وكان له وحده حق هذا التعيين .

ومن الأمور التى سخر فيها الكاتب من الشعب المصرى (حبه الألقاب والنياشين) . ذلك أنه فى الحكومات التى يستبد فيها بالحكم واحد فقط لاتكون للفرد حياة ظاهرة ، ولا شرف معترف به إلا بالإضافة لشخص الحاكم . وضحك الكاتب من بعض ذوى الألقاب والأوسمة ممن ينقلب زيهم — فى يوم عيد من الأعياد — إلى زى بطل من أبطال القرون الوسطى .

« كل صدره قصب يبرق ، تعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفاً لايستطيع أن يجرده ، ولاالسيف نفسه صالح لأن يجرد »[1] .

مضى الكاتب بعد ذلك يصف حال (الأفندية) فى دور الحكومة « كيف يتصاغرون فى حضرة البك والباشا . فهو إذا سار معهم وجب أن ينتحى الأفندى إلى آخر الماشين . وإذا جلس بمجلسهم وجب عليه أن يختار لنفسه آخر كرسى على الباب . ومن أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين . يعطونها لامكافأة على عمل من أعمال البسالة — كما

---

(١) الجريدة فى ٨ يونية ١٩٠٨

يكون بين جماعة العسكر — ولكن بالرجاء وبأن الواحد منهم رجل طيب وغني !

« تعمل الحكومة ذلك لتجعل الناس يهتمون دائماً برضاها عنهم . ومع أن التفاضل بين الناس يكون دائماً بالتقوى وبالمواهب الإلهية، فإن الحكومات الاستبدادية تجعل رضاها في حكم موهبة من مواهب الله » .

* * *

الجريدة والمرأة المصرية :

لم تقف عناية الجريدة بالمجتمع المصري عند هذا الحد . بل تجاوزته إلى أمرين آخرين منحتهما كذلك من العناية أكثر مما فعلت الصحف الأخرى . وهذان الأمران هما : حرية المرأة من جهة ، والعطف على الفلاحين والعمال من جهة ثانية . أما حرية المرأة فقد شغل موضوعها حيزاً كبيراً من صفحات التاريخ . ومن أجله تحدث لطفي كثيراً عن قاسم أمين ، وأشاد بعمله في تحرير المرأة المصرية . ووصفه بأنه فيلسوف اجتماعي مفكر بالأصالة . وأنه بكتابيه (المرأة الحديثة) ، (تحرير المرأة) قد أنهد سجن المرأة المصرية وأضاءت لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وأصبحت تحس بأنها أم الرجل ، فلها احترام ، وأخته فلها عطفه وحنانه ، وزوجته فلها منه محبته لذاتها ، واعتباره لمركزها . « وقد هدى قاسم لهذا الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايشعرون » .

« أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل — عبء السعي بالمرأة المصرية إلى نظام العائلة ، وبنظام العائلة إلى الرقي الاجتماعي المنشود ، وبهذا الأخير إلى استقلال البلاد . فما علمت امرأ يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لإحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم .

وكما يجب على محب الانسانية أن يتحفظ من أن يلد لها أولاداً مرضى ، كذلك يجب على الإنسان الذكي ألا يلد لها المعاني المريضة أو ناقصة الخلقة .

وهكذا كان قاسم من بناة الحرية الشخصية ، ومن بناة الجامعة المصرية ، وكان له فضل كبير فى الرد على الأوربيين الذين طعنوا فى الدين الإسلامى ؛ ومنهم الدوق داركور .

« وكان قاسم فوق هذا كله كثير الحدب على الحركة الوطنية . ينظر إليها على أنها المولود الذى خرج من دم الأمة وأعصابها فعليها إذن أن تتولاه وتحسن رعايته » [١] .

وجد لطفى السيد أن من واجبه أولا أن يثنى على صاحب الفكرة فى تحرير المرأة ، وأن ينصره على أعدائه الذين اتهموا فكرته بأنها فكرة انجليزية احتلالية كبرت كلمة تخرج من فم هذا الذى ما أراد بها وجه الله . ولكن أراد بها إبعاد يوم يجب أن يكون فيه هذا القائل المتأخر سيداً لا مسوداً كما هو الآن » .

ثم بحث لطفى بعد ذلك فى نظام الأسرة المصرية ، فقال فى كلمة له بعنوان:

بناتنا وأبناؤنا [٢]

« كان فى عائلة الأمس بين الرجل والمرأة شبه تام فى الجهل ، وشبه تام فى النظر إلى الحوادث وتقديرها ، وشبه تام فى فهم السعادة الزوجية . أما الآن فإن الشاب الذى أتم دراسته يتطلع إلى معاشرة زوجة تفهمه ويفهمها . ولكنه لا يتزوج غالباً إلا بابنة جاهلة أو قريبة منها ؛ بينهما فروق عدة : فرق فى التعليم ، وفرق فى الذوق ، وفرق فى الخلق ، وفرق فى فهم السعادة الزوجية . مع أن التعليم من شأنه أن يوجد بين المتعلمين شبهاً عظيما ؛ خصوصاً إذا كانت طريقته واحدة . وإذن فلا سبيل إلى ملافاة هذا الخطر إلا بالإكثار من عدد المتعلمات من البنات . ولابد للفتاة المصرية المتعلمة من أن تكون ذات طرفين : طرف متمدن مصفى بصفاة التمدن الحديث ، تتفق به مع زوجها الشاب المتعلم . وطرف آخر يدخل فى تركيبه مقدار كبير من عادات

(١) الجريدة فى ٢٥ ، ٢٦ من أبريل سنة ١٩٠٨

(٢) الجريدة فى ١١ يونيه ١٩٠٨

السيدات المصريات ، تتفق به مع أمها وحماتها وعائلة زوجها . فخير للفتاة المصرية إذن أن تتم تعليمها بالمدرسة السنية عند الإمكان من أن تتعلم فى مدرسة الراهبات . . إلخ » .

ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العبارة :

« خلوا بين البنات وبين سعادتهن . ولاتضيقوا عليهن متسع الحياة . ولاتعبثوا بسيادتهن اتباعاً لهوى الغيرة ، وخوفاً مما لاخوف منه عليهن . فإن المرأة الفاضلة أنفع للأمة من الرجل الفاضل أضعافاً بعدد ما ترزق من الأولاد » .

ثم قال الكاتب فى كلمة له بعنوان :

لاتضيقوا عليهن [1]

« نرى كثيراً من الذين يقولون بتربية المرأة يقولون أيضاً بمنعها من التوغل فى تعلم العلوم التى يتعلمها الشبان . أليس هذا يعد ضمنا دعوة إلى عدم تربيتها ؟ .

« ونرى كثيراً من الذين يقولون بتحرير المرأة يسوؤهم مع ذلك أن يروها تخرج إلى النزهة ، أو تعدل من زيها القديم ؛ فتضيف إليه ، أو تنقص منه ما جاءت به (المودة الجديدة) النافذة المفعول على الرجال والنساء على السواء بحكم حب الجميل وعدم الصبر على لباس واحد .

وإن أول درس يجب أن يلقى على الطفلة المصرية مع الألف باء هو كونها مخلوقاً حراً وهبه الله حريته . وما وهب الله لايسترده إلا الله . . » الخ .

ثم أمعن الأستاذ لطفى السيد فى مداعبة الرجال والتحدث إليهم بلسان الوقائع الملموسة . ونقل لهم فى ذلك كلمة من كلمات (تولستوى) عن المرأة . وذلك كله فى مقال نشرته الجريدة بعنوان :

---

(١) الجريدة فى ١٣ يونيه ١٩٠٨

المرأة أيضا[٢]

جاء فيه :

إذا غصب الرجل حق المرأة فى المساواة وحقها فى الانتخاب والتوظف ، فلقد غصبته حريته ، وأقامت نفسها عليه ملكا لا يرحم عند المقدرة ، ولا يجامل عند الحاجة ، ولا يغفر عند الزلة . كأن المرأة قد اتخذت من حب الرجل لجمالها سلاحاً تنتقم به منه على ما فرط فى تقدير المساواة بينها وبينه ، وتقتص منه على فكرته السيئة فى اعتبارها موضعاً للاستمتاع فقط . فهو يتحكم فى المملكة وهى تتحكم عليه فى البيت » .

ثم أوغل لطفى فى مداعبته للرجال حيث قال :

« قلتم لليهود انزلوا عن حق الحكم ، ولا تكونوا إلا تجاراً . قالوا نعم — ولكننا بالتجارة نملككم ، ونصرف الأمور بينكم . فأنتم رضيتم من السعادة بالاسم دون الفعل . كذلك قلتم للنساء لستن إلا غرضاً من أغراض حبنا للزينة والتمتع . فقلن لكم : رضينا بهذا القسم ، بل بهذا الصغار . ولكنا سنكون سيداتكم بما ملكناه من قلوبكم ، وسنذيقكم عذاب الهجر أحياناً ، ومرارة التجنى أحيانا ، ثم نسخركم كالأنعام فى هذه الزينة التى اخترتموها لنا شعاراً ، لتعلموا أينا السيد وأينا المسود .

« ألا تعطون المرأة حقها فى الانتخاب ، وفى ما يساويها بالرجل ، حتى ترضى هى أيضا بأن يساويها الرجل فى الحياة الداخلية ، ولكى يخف عنه ظلمها ، ويقل منه انتقامها ؟ » .

ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العبارة :

ومع ذلك فإن نساءنا — بارك الله لهن — لم يطلبن بعد مثل هذه المطالب المقلقة للراحة العمومية ، كما هو الحال فى انجلترا . بل لا يطلبن شيئا يعز علينا منحه لهن .

---

(١) الجريدة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٨

يطلبن سعادتنا الفردية ، وسعادتنا القومية . يطلبن التربية والتعليم ! »

وفى خلق المرأة وجمالها الروحى لا المادى كتب لطفى مقالات عدة . منها مقال له بعنوان :

بناتنا [١]

جاء فيه :

« يجزع الوالدان وقد رأيا ابنتهما رمدت عينها رمداً يهددها بفقد العين. يجزعان من تصور أنها سقطت من أعلى السلم ، ففقدت إحـــدى ذراعيها . يخشيان أن ينتشر (النمش) فى وجهها فيشوه جمالها . يجزعان لكل عرض يلحق بجسمها ، ويكون من شأنه تشويه أعضائها . أو تقليل مقدار جمالها ، فتبور فى سوق الزواج .

ليس فى ذلك عجب . ولكن العجب هو أن الوالدين يشفقان على ابنتهما من العيوب البدنية، ولا يشفقان عليها من العيوب المعنوية: عيوب النفس والعقل.

يفكر الوالدان فى المبـالغة فى تجهيز ابنتهما . فيبتدئان — من سن الطفولة — يثقبان لها أذنيها ، ثم يأخذان بعد ذلك فى أن يشتريا لها كل عام شيئاً من الحلى .

يدأب الوالدان على هذه الطريقة المضحكة لتجهيز ابنتهما للزواج . كأن الزواج قرط فى الأذن ، وخزام فى الأنف ، وأساور من الذهب المرصـع فى السـاعدين ، وخواتم تأخذ بالأبصار فى الأصابع ، وقلائد وجلاليب وفساتين . وليس الزواج بشىء من ذلك . بل الزواج امتزاج روحين امتزاجاً لا مفرق له إلا الموت . ذلك بأن الأقارب لا يزالون يظنون إلى الآن أن الوفاق بين الزوجين محض صدفة ، وأن المحبة توفيق من الله يأتى ببركة الوالدين ، أو بجمال العروسين . ومادام الوفاق والمحبة يأتيان بالصـدفة ،

(١) الجريدة فى ١٤ مارس ١٩٠٩

ولا علاقة لها بتجانس النفوس ، ولا بتثقيف العقول ، فليصرف الأبوان جهدهما فى إيجاد مالاتوجده إلا الصدفة ؛ وهو الجهاز .

« ألافاصرفوا ماتصرفونه فى الحلى والعروض فى تعليم البنات ؛ فإنه الحلى الدائم فى جمال الشبوبية وفى سنى المشيب ! » .

بهذه الطرق وأمثالها دعا الكاتب إلى حرية المرأة أولا . ومساواتها بالرجل ثانياً ، وإلى العناية بتعليمها وتهذيبها بعد ذلك . كما طالب المصريين كذلك بأن يكونوا منصفين مع أنفسهم ؛ فلا يطلبوا الحرية للأبناء فقط ؛ وأمهاتهم رقيقات راضيات بالرق . ولا ينبغى لطالب الحرية أن يحرم غيره من أفراد الأمة ؛ كالمرأة التى هى نصف المجتمع !

وبذلك اجتازت الحركة النسائية فى مصر — على يد الجريدة وكاتبها — هاتين المرحلتين :

الأولى — محاولة الكتاب الناشئين وغير الناشئين معالجة موضوع المرأة لأن موضوعها أهون على كل حال من الكتابة فى السياسة .

الثانية — ظهور جيل جديد من النساء شعرت فيه المرأة بوجودها الخاص وبتبعاتها العامة فى المجتمع .

وانتقل الكاتب من مشكلة المرأة فى التعليم إلى مشكلة المرأة فى الزواج . فانتقد — أولا — فوضى الزواج فى الريف المصرى . وندد بكثرة الطلاق هناك . وذم تعدد الزوجات مع عدم القدرة على العدل بينهن . والانفاق عليهن . كما ندد بالزواج من بنات فى سن التاسعة ؛ لايكون نصيب إحداهن إلا الموت العاجل عقب الزواج مباشرة . وفى هذا من البله مافيه . ووجه نظر رجال الشرع والحكومة إلى هذا العبث والفوضى . ثم شكا بطء الزواج فى الطبقة المتعلمة . وهى أمل الأمة ، والحارسة على البذور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى يزرعها الزارعون اليوم ، ويجنيها غيرهم غداً . إلى آخر ماقال .

* * *

بقيت مسألة أخيرة من المسائل الاجتماعية التى عنيت بها الجريدة . ونعنى

بها (الاهتمام بالطبقات الفقيرة) . وخاصة طبقة الفلاحين والعمال . وهنا لفت الكاتب أنظار قرائه بقوة إلى ما فى هذه الطبقات من عناصر الخير ، وماتمتاز به من طهارة الأخلاق .

وجاءت كتاباته فى هذه الموضوعات شعرية — إن صح هذا التعبير — أكثر منها واقعية . وتبعه الكتاب المحدثون فى هذه الطريقة ، واستمروا امثاله فى الضرب على هذه النغمة الجديدة ، حتى خيل إلى الباحثين أن هؤلاء الكتاب المحدثين — وفيهم لطفى السيد — إنما يحاكون أدباء الغرب فى كل ذلك . مع أن الفرق مايزال عظيما بين الفلاحين المصريين والفلاحين الأوروبيين ، وبين القرية المصرية والقرية الأوروبية ! وبين العامل المصرى والعامل الأوروبى إلخ .

ومن المقالات التى كتبها لطفى السيد فى هذا المعنى مقال له بعنوان :

الرجل الطيب[1]

بدأها بقوله .

لست فى حاجة إلى مصباح (ديوجينس) لأبحث عن الرجل ، أو عن الرجل الطيب . إنى لأراه من غير مصباح فى ذلك الرجل الفلاح ، طويل القامة ، كبير الرأس ، كثيف اللحية . يسوق المحراث طول النهار بحركة بطيئة تدل على نفس صبورة[2] ، مملوءة بالرجاء ، لا يروعها خوف الحوادث الجوية تذهب بما يبذر إلخ .

ثم قال .

أرى الرجل الطيب حتى فى المدينة فى شخص ذلك الصانع الذى يظل نهاره يعمل ، وروحه الموسيقية تجعله يغنى من غير ملل ولا تعب ألحانا مضبوطة وغير مضبوطة . ولكنها تزيد فى سروره وطمأنينته إلخ .

---

(١) الجريدة فى ١٩٠٩/٢/٢٣

(٢) صحتها صبور . وهى من الصيغ التى يستوى فيها المذكر والمؤنث : المؤلف .

ثم قال .

أرى الرجل الطيب فى ذلك التاجر يمضى النهار ، ولا يحلف بالطلاق على أنه مغبون فى صفقة البيع ، ولا يجأر بصوت خبيث يستنزل غضب الله على جاره من غير سبب !

ثم قال :

«إذا كنت أرى الرجل الطيب فى كل هؤلاء ، وجب علىّ أن أترك مايفهم من نظريات (هوبس) من أن هذه الدار الدنيا دار حرب ، يجب أن تتمشى فى سياستها على نظرية حق الأقوى . بل أقول إن طبيعة الإنسان هى السلام وما بواعث الحرب إلا أمراض اجتماعية تلحق جسم الانسانية . فتظهر بهذه الدماء التى تقطر على ظبا السيوف . فإذا عاد مزاج الانسانيـة إلى الاعتدال ، وأعصابها إلى السكون عادت أصولها الطيبة التى تظهر — كما وصفت — فى جميع الطبقات .

وسنعود إلى مقالات الجريدة فى وصف الريف المصرى والتغنى به ، وبحياة سكانه ، وأخلاقهم وطباعهم فى الفصل الذى عنوانه (الجريدة فى الميدان الأدبى) .

* * *

على هـذا النحو رسمت الجريدة للناس المثل الأعلى فى الحياتين الخلقية والاجتماعية ، كما سبق لها أن رسمت لهم شيئاً يشبه المثل الأعلى فى الحياة السياسية خاصة . وكان صاحب الجريدة أو محررها فى كل هذه الأحوال من القائلين بأن الإنسان ذو طبيعة ، هى أدنى إلى الخير منها إلى الشر .

وأن لكل طبقة من طبقات المجتمع احترامهـا الذى ينبغى أن يرعاه لها زعماء الأمة وقادتها من ذوى الرأى . وكان لطفى يحسن دائماً أن يؤلف بين هذا المثل الأعلى من ناحية ، والواقع الذى يلمسه بيـده ، ويراه يبصره من ناحية ثانية .

الفصل السادس

الجريدة فى ميدان التربية والتعليم

> ليست سعادة البلاد بوفرة ايرادها ولا بقوة حصونها
> ولا بجمال مبانيها وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها
> وبعدد الرجال ذوى التربية والذكاء والأخلاق .
>
> مارتن لوثر

... لا نعلم كذلك أن أحداً شغل نفسه بتربية هذه الأمة وعنى بالاصلاح الخلقى فيها كما فعل لطفى السيد منذ اشتغاله بالجريدة واهتمامه فيها بشؤون التعليم اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بالسياستين الداخلية والخارجية .

فإذا قلنا عن لطفى السيد إنه مربى الجيل الجديد لم نبعد .

إذا قلنا إنه أبو الشعب المصرى الحديث لم نسرف . فإن الأثر الذى تركه فى المجتمع المصرى من هذه النواحى لا يقل بحال ما عن الأثر الذى تركه الشيخ محمد عبده فى الناحية الدينية الخالصة .

فلسفة التعليم عند لطفى السيد :

وإن نظرة واحدة إلى آراء هذا الكاتب الفيلسوف فى شئون التربية والتعليم لترينا فى وضوح أنه صدر فى آرائه المختلفة عن هذه القواعد الثلاث:

الأولى : أن الإنسان خير بطبعه كما قال جان جاك روسو وأنه قابل للتربية والتهذيب ، وأن فى استطاعة الأمة أن تقوم على إعداد أبنائها على أساس هذا الرأى .

الثانية : أن الغرض من التربية والتعليم هو الحصول على صفة التوازن الخلقى والنفسى فى الأمة وفى الفرد . فعليهما معاً أن يهتما بتنمية العقل وبتنمية الجسم بقدر واحد فيهما تقريباً .

فالأمة التى تعنى بالعلوم العقلية وحدها مهملة ، والأمة التى بالرياضة البدنية وحدها مهملة ، والأمة التى تعنى بالفنون الجميلة وحدها مهملة، وهكذا .

الثالثة : أن الغرض من التعليم فى نظر الباحث الاجتماعى بنوع خاص هو الحصول على أكبر قدر ممكن من التشابه بين أفراد الأمة الواحدة .ذلك أن التشابه هو المصدر الحقيقى للألفة ، والألفة هى السبب الحقيقى فى التضامن والوحدة ، والتضامن هو الطريق للتقدم الذى ينشده المجتمع . وفى رأى الكاتب هنا أن الدين يمكن اتخاذه قاعدة للتربية الخلقية ، حتى لا يفقد المصرى صورته وتسيطر عليه المادية الأوربية الكاذبة . من أجل ذلك يميل الكاتب أيضا إلى توحيد برامج التعليم حتى ينتج هذه النتيجة . كما يميل إلى التقريب بين طبقات المجتمع فى الأخلاق والعادات والمشارب أملا فى الوصول إلى هذه الغاية المطلوبة . وعنده أن الأمة التى تتقارب فيها وجهات النظر من حيث التعليم والتربية،ومن حيث الرغائب والأمزجة ، ومن حيث الآمال والأمانى ، ومن حيث المثل العليا بوجه عام هى الأمة الخليقة بالمجد والعظمة ، الجديرة بأن تسبق غيرها من الأمم فى مجال التقدم والرقى .

أدرك الأستاذ لطفى السيد هذه الحقائق ادراكا خاصا ، وجعل عنايته بالأخلاق موازية لعنايته بالسياسة. بل إن الاخلاق عنده كفيلسوف كانت جزءاً هاما من السياسة .

ومن أجل هذا كتب يقول :

يأخذنا بعضهم بأننا نكتب فى التربية . يقولون إن ذلك ليس مما تعنى به جريدة سياسية ، جاعلين مقدمة حكمهم مجرى الأحوال فى باريس ، حيث لا تتعرض الصحف السياسية لأمور التربية . وقد فاتهم أن القاهرة ليست باريس . وأن جرائد الأمم الكبرى المستقلة المشتبكة المصالح ببقية أمم العالم لاتنفذ حركاتها السياسية . أما نحن — وحركاتنا السياسية منقطعة لامتواصلة،

وجرائدنا السياسية لم تقض بعد همًّا من السعي فى نشر مبادىء الحرية الشخصية وتقرير وسائل الحرية السياسية ، ومحاولة تقوية الرأى العام المصرى ، وإصلاح خطته القديمة فى فهم الحكومة ، والبحث فى مسائل رقينا إلى مصاف الأمم المستقلة — وأهمها التعليم — أما ونحن كذلك فمن موضوع جريدة تعمل فى السياسة أى فى تدبير الأمة أن تبحث فى التربية والتعليم[1] » .

هكذا نظرت الجريدة بعين الاعتبار إلى أهمية التربية والتعليم على أنها مهمة سياسية بحتة فعولت عليها فى تدبير الأمة ، وفى السير بها إلى مصاف الأمم الكبيرة المتحضرة .

يدلنا على ذلك أيضا استشهاده فى مناسبات كثيرة بقول الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون حيث يقول :

« بالخلق يحكم ستون ألف انكليزى مائتين وخمسين مليونا من الهنود يساوونهم على الأقل فى ذكاء العقل . وبالخلق صار الانكليز على رأس أكبر مملكة استعمارية عرفها التاريخ . وعلى الخلق — لا على العقل — تؤسس الجمعيات والديانات والممالك . »[2]

فكيف إذن قام لطفى بهذه المهمة التى نظر إليها نظرة خاصة ، وارتفع بها إلى مستوى المشكلات القومية الهامه ؟

لاشك أن مهمته هذه كانت تنقسم فى نظره قسمين : قسم يتصل بعيوب المجتمع المصرى عامة . وقسم يتصل بمناهج التعليم وطرقه خاصة . أما العيوب العامة فقد تحدثنا فى الفصل السابق عن طرف بسيط منها . ونريد فى هذا الفصل أن نشير — قبل البحث فى آراء لطفى وأفكاره من حيث التعليم — إلى طرف يسير من الملاحظات الخلقية التى لهذا الكاتب الكبير ، أو الهنات التى لا تنحط إلى مرتبة العيوب الأولى أو تعد منها ، ولكنها مع ذلك تعيب

---

(١) الجريدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩١٢ — العدد ١٦٨٧ والمنتخبات ج ٢ ص ١٣

(٢) الجريدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩١٢

الأمم المهذبة ، وتنقص من قيمة الأفراد الذين أوتوا حظا ما من التربية . وقد اختار الرجل لقومه منزلة أدبية رآهم خليقين بها ، جديرين بالتسامى إلى مثلها . فلم يدع موضوعا من مواضع النقد إلا نبَّه عليه الأمة ، حتى لقد نقدها فى مواضع غاية فى الدقة . ومن ذلك على سبيل المثال — إنه أخذ على المصريين سوء اختيارهم ألوان الثياب المختلفة [١] . بل أخذ عليهم سوء فهمهم للأخبار والحوادث الجارية . وذهب إلى أن للحوادث طعما ، وأن بنا — نحن المصريين — نقصا فى تذوق هذا الطعم . ودق فى الملاحظة حتى أخذ على عامة المصريين عادة من عاداتهم فى الحديث ، وهى قطعهم له أحيانا بطائفة من العبارات مثل قولهم (من غير مؤاخذة — وبلا آفية — والله يكرمك) الخ . وسمى ذلك نقصا فى ملكة النطق ، كالنقص الذى عندهم فى تذوق الأخبار والأحداث ونحو ذلك بل أخذ عليهم عادة الاهمال فى تربية الحواس . وضرب المثل هنا بسيدة فرنسية قالت (أنها قضت أربع سنوات لم تكسر فى أثنائها طبقا ، ولم تصلح فى أثنائها القلم الذى تكتب به كل يوم . على حين سيداتنا المصريات يكسرن الآنية ويقلن : « انها انكسرت وحدها ، ولولا الكاسورة ما كانت الفاخورة » الخ .

هذا كله من الناحية السلبية . أما من الناحية الايجابية فقد دعا الكاتب أمته إلى التمسك بعادات جديدة تتفق والحضارة الجديدة . دعاهم إلى حب الأزهار ، وإلى حب الجمال ، وإلى غشيان الحدائق العامة . وعجب كيف أن الحكومة لاتفتح أبواب هذه الحدائق للجمهور ليغشاها بالمجان . ثم سخر من الحكومة المصرية فى ذلك سخرية لاذعة فى قوله :

« إنى أؤكد لأنصار حكومتنا الشخصية أن فتح أبواب الحديقة للفقراء لايترتب عليه الجلاء ، ولاينتج اعلان الدستور ، ولايزيد سلطة الأمة مثقال ذرة ، ولا يخولها تحقيق أمر من شأنه أن يهدد الحكومة الشخصية فى شىء

---

(١) الجريدة فى ٩ فبراير ١٩٠٨

يعز عليها . ولا يترتب عليه الا ظل من تحقيق المساواة التى يدعونها ، وراحة للفقراء الذين هم عيال الله » ! ! [١] .

وفى الدعوة إلى حب الجمال كتب لطفى مقالا بعنوان :

أحبوا الجمال تحبوا الحياة [٢]

جاء فيه :

« إنك إذ قست مقدار معرفتنا الجميل بالمستوى العلمى فى مصر وجدت أن القدرين ليسا متناسبين وأن عقولنا تسبق كثيرا اذواقنا . فإنها تستثيرها بما تشتغل به من تحصيل العلم وتطبيقه فى العمل . أما أذواقنا فتكاد تكون جامدة على الحالة التى كانت عليها فى ظلمات الجهل . ذلك لأننا لم ندخل فى مجموع علومنا الفنون الجميلة ، ولم نجتهد فى ترقية أكثرها طبيعة وانتشارا فى جميع الأزمان ، وهو فن الموسيقى . ثم قال :

« إن غرض الموسيقى هو تنبيه كل خاطر من خواطرك وإنماء كل عاطفة من عواطفك : تتناول إنماء الأنفة والعزة ، تنفعك حين تقدم نفسك قرباناً إلى وطنك إذا حضرك وقت الدفاع عنه . تتناول إنماء عاطفة الرحمة عند القوة ، والعفو عند المقدرة . فما بال هذا العود وتلك الكمانجة لا تفيض على النفس إلا تأثيرات متشابهة كلها فى معنى الذكرى والأسف والحزن ؟ » .

تلك أمثلة من نظراته وملاحظاته على الذوق العام . أما آراؤه فى التربية فكثيرة منها على سبيل المثال :

رأيه فى أن التعليم حق للجميع فمنذ دعا المصلحون دعوتهم إلى التعليم وأخذوا يقنعون الأمة بفوائد التربيـة ، انبرى لهم المحافظون ، وروجوا فى مصر شائعة مؤداها أن التعليم ينبغى أن يكون محصوراً فى أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة . أما الطبقة الدنيا من أبناء الفلاحين والعمال فليس لهـا أن تتعلم

(١) الجريدة فى ٥ يونيه ١٩٠٩

(٢) « فى ٣ مارس ١٩٠٩

كغيرها . فإن تعليم هؤلاء يحرم الأمة من الأيدى النافعة القادرة على خدمة الأرض .

فرد لطفى على ذلك فى مقال له بعنوان :

التعليم الأدنى[١]

جاء فيه :

فزع المتنورون والحمد لله من المناقشة فى كون التعليم واجباً أو جائزاً أو مكروهاً ، إلا أقلية لاتكاد تذكر فى جانب الإجماع . تقول تلك الأقلية قولا لايستطيع سامعه أن يمسك نفسه عن الضحك . ونحن مع هذا نسوقه للقراء حتى يموت أثره . لأن الباطل تغلبه شهرته ، كما أن الحق ينميه التصريح به .

ثم قال فى الرد على الحجة السابقة .

« حجة بالغة حد الاقناع إذا كنا نريد بالتعليم الأدنى أن نخرج مثل هذه الطبقة التى أخرجتها الكتاتيب القديمة . لكنا نريد أن نعلم فى الكتاتيب الجديدة حب العمل . . . .

أما البطالة التى سمحت نفوس المتخرجين فى الكتاتيب القديمة فليس سببها القراءة والكتابة . ولكن سببها الحقيقى الامتياز الذى كسبه المتعلم على إخوته وأولاد عمه الذين لم يتعلموا مثله فى الكتاب .

من أجل هذا وجب أن نقرب مااستطعنا من التعليم الاجبارى حتى تزول بينهم الفروق ، وتنمو بينهم المشابهات التى هى الركن الشديد للتضامن القومى .

* * *

مصرية التعليم عند لطفى السيد .

وربما كان من أهم آراء الكاتب الفيلسوف فى التربية والتعليم رأيه الذى دعا فيه إلى أن تحتفظ الأمة بشخصيتها فى عالم التربية والتعليم كما احتفظت بها

---

(١) الجريدة فى ٢٣ نوفمبر ١٩٠٨ .

فى عالم السياسة وعالم الأخلاق والاجتماع . ولذلك دافع دفاعاً مجيداً عن مصرية التعليم فى مقال له بعنوان :

شيء فى التعليم (١)

انتقد فيه وزارة المعارف متهماً إياها بأن كل شيء فى مدارسها غير مصرى. « حتى تاريخ مصر . حتى الزراعة المصرية ، وآداب الجلوس ، وآداب الأكل . وآداب المحادثة كلها غير مصرية .

ومبدأ علم الأخلاق إن كان يجرى على لسان أحد الأساتذة عفوا هو أيضاً غير مصرى . أى ليس هو مبدأ الخير أو الشر المؤدى إلى الثواب أو العقاب فى الدار الآخرة . بل ربما كان ذلك هو مبدأ اللذة والألم ، أو مبدأ حب الذات أو نحو ذلك .

وصورة الجمال التى ترتسم فى نفس المتعلم فى تلك المدارس قل أن تكون مصرية . وبناء المدرسة ونظامها قل أن يكون مصرياً . والنتيجة أن مدارس حكومتنا ليس فيها من المصرية إلا نسب التلاميذ ، وتربة الأرض القائمة عليها المدرسة » .

غير أن الكاتب الفيلسوف استثنى من المدارس المصرية جمعاء مدرسة واحدة فيها مسحة مصرية ؛ هى مدرسة القضاء الشرعى « وإن كان فى اسمها ما يدل على أن التعليم فيها مقصـــور على ما يلزم القاضى الشرعى . غير أن بروجرامها ، وما نعهده فى كفاءة أساتذتها ، وما رأيناه من عادات طلابها ، وحفظهم للروح الشرقية كما حفظوا زيهم الشرقى ؛ كل ذلك من شأنه أن أن يخرج رجال علم مصريين » .

هكذا أبدى الكاتب اعجابه بمدرسة القضاء الشرعى ، واستثناها من الحكم الذى قضى به على المدارس المصرية وقتئذ . فقال :

فإذا أخرجت مدرسة القضاء الشرعى من بين مدارس الحكومة لأمكنك

أن تقول إن نظارة المعارف عندنا شركة تعليم أجنبية ؛ كجماعة الفرير أو الجزويت ونحوهم . وعذر حكومتنا المصرية فى ذلك أنها تعد التلاميذ لأن يكونوا موظفين للانجليز . ولكن ما عذر جمعياتنا الخيرية ؟

لقد استهانت الحكومة بالعناية بتمصير التعليم من بعد رفاعة الطهطاوى، وأبى السعود ، وعلى مبارك ، الخ .

يجب أن يكون التعليم أهلياً لا حكومياً :

وكان من رأى لطفى السيد أنه لا ينبغى للحكومة المصرية أن تحتكر التعليم بل عليها أن تتركه للأهالى والمجالس المديريات ونحوها . وقد رأينا من قبل كيف طالب لطفى السيد بأن تعطى هـــذه المجالس حق فرض الضرائب اللازمة للتعليم ؛ بشرط أن يكون التعليم فيها أهليا بالمعنى الصحيح ، غير خاضع للوائح الحكومة .

وقد هال الكاتب يومئذ أن يكون عدد السكان المصريين اثنى عشر مليونا من الأنفس ، ثم لا يكون عدد طلاب الشهادة الثانوية أكثر من أربعمائة . وإذ ذاك استشهد الكاتب بالكلمة المأثورة عن مارتن لوثر .

وفيها يقول :

ليست سعادة البلاد بوفرة ايرادهـا ، ولا بقوة حصونها ، ولا بجمال مبانيها . وإنما بسعادتها بعدد المهذبين من أبنائها ، وبعدد الرجال ذوى التربية والذكاء والأخلاق » .

ثم علق الكاتب على ذلك بقوله :

« إذا كانت سعادة الأمة متوقفة على عدد رجال الأخلاق والذكاء فيها — كما قال لوثر — فهل نحن من هذه السعادة على بابها ، أم نحن لا نزال بعيدين عنها ؟ » .

نظارة المعارف ومذاهب التربية

حرصت الجريدة — كما قدمنا — على أن تربط أمر الحرية والدستو

بأمر التربية والتعليم . وهذا الطريق — وهو طريق التعليم — وإن كان طويلا ، إلا أنه يعتـــبر قصيرا متى كان الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الهدف .

وقد كان لنظارة المعارف — كغيرها من النظارات — مستشارون من الانجليز — وكان هؤلاء يأخذون الأمة المصرية بالرأى القائل : « إنه يجب الحد من تربية الشرقيين ، من سكان البلاد الواقعة تحت سلطان الدول الأروبية وحصر تعليمهم فى دائرة ضيقة ، هى دائرة الانتفاع بالمتعلمين منهم كآلات فى إدارات الحكومة ، لاينبغى أن تصل بهم التربية إلى توفير الصفات اللازمة للحرية فى الفكر ، والاستقلال فى العمل » . وهى كلمة مشهورة لبعض الساسة الانكليز ، قالها على أثر حادثة قتل فيها بعض عظمائهم بيد شاب هندى .

كانت هذه العبارات وأمثالها تخيب ظن الكتاب المصريين ، وتخيفهم وتزعجهم . ومن أجلها كانوا يراقبون نظارة المعارف مراقبة دقيقة ، ويرسمون لها الخطط التعليمية الكثيرة ، ويحضونها على العناية التامة بإعداد المعلمين الأكفاء الذين يفهمون الغرض الحقيقى من التربية .

قالت الجريدة بعد ذلك .

« فإذا لم تكن نظارة المعارف مقيدة نفسها بهذه الأمور السابقة كلها ، فمن حقنا أن نبين لها آمالنا فى التربيـة . لأن الحكومة مهما كان شكلها لاتعمل إلا باسم الأمة ، ولمصلحة الأمة . وعلى طريقة ترضى الأمة » .

ومن ثم شرع الكاتب فى شرح مذاهب التربيه قائلا أنها تختلف باختلاف الفلاسفة [1] .

« فالفيلسوف الوضعى يقول لابنه . يابنى اهتد بهدى أستاذنا أوجست كونت . وعليك بعلوم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا والسوسيولوجيا إلخ . .

---

(١) الجريدة فى ١٤ يوليه ١٩١٤ — العدد ٢٢٣١

« والفيلسوف النظرى يقول لابنه . يابنى ساعد نفسك على شوقها إلى الكمال . ولا كمال فى المادة . إنما الكمال فى تصفية النفس الناطقة . والبعد بها عن الانغماس فى شهوات هذا العالم السفلى . اقصد فى طلب الرزق . وحسبك منه الكفاف . ولا تترك فرصة الموت فى سبيل الدفاع عن مظلوم ، والقيام بحماية الوطن . فإن الموت خمر الصالحين يشربونها فتنقلهم من عالم الشرور إلى عالم النعيم .

« والفيلسوف الاقتصادى يقول لابنه : يابنى إن المثل الأعلى للرجل هو أكثر الناس انتاجاً لزيادة الثروة العامة . وما الأعمال الانسانية إلا شبكة ؛ خيوطها الأخذ والعطاء . يقول ذلك بصوت تكاد تسمع فى نبراته رنين الذهب والفضة . ذلك قانون الطبيعة . وما كان لنا أن نغير طبائع الأشياء .

« وغير هؤلاء من الفلاسفة يقول لابنه : يا بنى إن الحق هو القوة . وما القوة إلا القدرة على أن تكون سالباً لامسلوباً ، وآكلا لامأكولا . وذلك هو المثل الأعلى للتربية عملا بقانون الطبيعة . .

« عجباً للناس : ما أكثر اختلاف نظرهم إلى مايسمونه الطبيعة . كأن الطبيعة متعددة الذات بمقدار تعدد مذاهبهم وآرائهم .

« وتلك مذاهب العلماء . أما العامة فلها مذهب على قدرها ، ومقدار فهمها . وقد وضعت هذا المذهب فى صيغ معروفة . منها قولهم :

يابخت من بكانى وبكى الناس عليه . لامن ضحكنى وضحك الناس عليه .

اكسر للبنت ضلع يطلعلها ضلعين .

العصاية من شجر الجنة .

الولد لخاله والبنت لعمتها .

اللى ماعندُه قرش مايساوى القرش .

اللى ماهو ديب تاكله الدياب .

« وفى ظننا أن المبادىء المختلفة لايبعد أن تكون كلها طبيعية لأن الطبيعة

إذا كانت كلا واحداً فإنها مؤلفة من عناصر متناقضة المزاج . لذلك نحاول في مقدماتنا كلها أن نختار من المذاهب المختلفة أكثرها موافقة لنا ، وتحقيقاً للمثل الأعلى للرجل فى خيالنا المصرى » .

ثم قال :

« والخلاف ظاهر بين الفلسفة الوضعية والفلسفة النظرية . وبينهما وبين المذهب الجديد لبرجسون خلاف أيضاً . وكلما اتسع ميدان الخلاف بين هذه المذاهب الثلاثة كان توغلنا فى اللا أدرية بالنسبة للتربية على الأخص أمراً مقضياً . فإن هذه المذاهب وفروعها قد جعلت الناس فى هذا الزمن أكثر تناقضاً فى مطالبهم من التربية منهم فى الزمن السابق القريب . . .

وهكذا نشأت فى صدور الآباء والمربين مفارقات كامنة غاية فى العجب من حيث طرق التربية ؛ سخر منها الفيلسوف الألمانى (ريشتر) . وهذه المفارقات هى السبب فى سير الآباء على نظم فى التربية يعارض بعضها بعضاً . بل ذلك هو السبب فى هذه الحيرة الاجتماعية التى لها مساس بالتربية ؛ وهى : هل الأولى أن تهدف التربية إلى توسيع دائرة المشابهات بين أفراد الأمة ، حتى يسهل بينهم الاتفاق على أمهات المسائل، وتتأكد بينهم روابط التضامن؟ أم الأولى اعتبار هذه الطريقة لاتخرج إلا أناساً كأسنان الحمار ، من قدٍّ واحد، وتنزل بالمستعد للنبوغ منهم إلى صف غير المستعد له ؟

« على أن نمط التربية يتغير فى كل جيل بتغير المذاهب الفلسفية، ومن ثم وجب علينا فى مصر أن ندرس المذاهب الثلاثة المتقدمة من مذاهب التربية. وهى المذهب الوضعى ، والمذهب النظرى ، والمذهب المادى الواقعى . وعلينا أن ندرك دئماً أن لكل أمة استعداداً خاصا لنوع خاص من التربية . وذلك تبعا للمسافة التى قطعتها فى التطور ، والعادات ، والأخلاق . على أن التربية عندنا فى مصر لاتستطيع أن يكون لها طابع خاص بها ، ولا اسم معين من أسمائها . لأن التربية عندنا فى حال انتقال واختيار ؛ هما أظهر مالها من

الصفات المميزة . ذلك أن المثل الأعلى للرجل المتعلم فى جامع الأزهر ليس هو المثل الأعلى فى نفوس المتعلمين فى مدارس الحكومة أو التعليم الحر ، ولا هو بعينه المثل الأعلى فى نفوس متعلمى البعثات الدينية ، كالفرير . والجيزويت ، والبروتستانت . على أن هذه الفوضى إن كانت من عملنا فعلاجها ينبغى أن يكون من عملنا كذلك . وهنا نسأل نظارة المعارف :

هل يبنى التعليم على قاعدة دينية أم دنيوية ؟

هل يتجه إلى إنماء الملكات الفردية إنماء متعادلا عند جميع أفراد الأمة ؟

هل تعطى المتعلم فكرة عن الحياة الانسانية ؟

هل التعليم عندها مهذب للنفس . أم يلقى بها فى مغاور الصدفة ؟

وبعبارة أخرى — هل وزارة المعارف وضعية أم نظرية ؟

وهل تستفيد من تجارب الأمم الأخرى ؟ ، إلى آخر ماقال[1] .

وهكذا توالت بحوث الجريدة فى موضوع التربيـة ومتعليم . وأظهرت الجريدة فى هذه البحوث على اختلافها اهتماما خاصاً بتلك الأمور . وكان رائدها فى ذلك هو الأخذ بيد وزارة المعارف فى كل مشكلة من مشكلاتها ، وعرض الآراء المتضاربة فى هذه المشكلة ، وتغليب الرأى الصائب منها قدر المستطاع . ومن ذلك مانشرته الجريدة بعنوان :

المذهب العملى للتربية والتعليم[2]

وقد جاء فيه :

« لعل أول ما تهدف إليه البيداجوجيا الحكيمة هو تنبيه العقل الإنسانى من جميع جهاته وضواحيه ، وحفظ الموازنة بين قوى الملكات المتضادة .

---

(١) الجريدة فى ١٣ يولية ١٩١٤

(١) الجريدة فى ٣٠ يوليه ١٩١٤

فلا يجوز أن تضحى العناية بالبدن للعناية بالعقل ، ولا العناية بتهذيب العقل للعناية بتهذيب . ولا أن يضحى بتنمية مشاعر الشخصية والاستقلال لتنمية فضيلة الطاعة .

« ونقول الآن بإجمال إن التعليم الأولى والتعليم الابتدائى بعيد كل منهما عن ان يقرب التلميذ من الخير ، ويبعده عن الشر ، ويجعل له فكرة خاصة فى الوجود الانسانى . وأما التعليم الثانوى — مع أنه كل شىء فى التعليم — فبرامجه أنقص ما يمكن . ومن ثم وجب أن تطول مدته إلى خمس سنين أو ست ؛ ليـــدخل على برامجه المنطق ، والأخلاق ، والمذاهب الفلسفية ، والبيولوجيا ، والتوسع فى العلوم الموجودة فعلا إلى حدّ يجعل المتخرج كفؤاً للتوظف فى الحكومة ، أو الاختصاص بفرع من فروع الدراسة العالية ، كالحقوق ، أو الطب ، أو الهندسة .

« أما التعليم العالى فالمسألة فيه مسألة أساتذة لا أكثر ولا أقل » .

وعاد الكاتب الفيلسوف يلخص الغرض من التربية فقال :

« عندى أن التربية فى مصر يجب أن ترمى إلى غرضين :

أولهما — أن يسترد المصرى فضائله الاجتماعية التى جنى عليها الاستبداد الطويل ، بشرط أن يبقى مع ذلك مصرياً .

والثانى — أن تسلح ملكاته بالعلوم والمعارف ليكون قادراً على مزاحمة غيره فى بلاده مزاحمة القرين للقرين فى المسائل العلمية ، والعلمية ، والفنية ، والاقتصادية ، وغيرها » .

أما العلوم التى يتلقاها الشبان فى المدارس فإن الكاتب الفيلسوف ينصح بأن يكون تعلمها فى تلك المدارس مبيناً على هاتين القاعدتين :

الأولى — البعد بالتعليم — جهد المستطاع — عن الكتب أو التقدم بها ؛ حتى لا يصير التلاميذ عبيداً لهذه الكتب ، وأسرى لمؤلفيها .

الثانية — أن تكون المدرسة صورة مصغرة من المجتمع ، يتعلم الطالب

ـ قدر طاقته ومواهبه ـ كل ما يحيط به . حتى إذا خرج من المدرسة لا يكون غريباً عن الحياة نفسها ، أو يكون محتاجاً إلى من يقوده فيها ؛ كما يقاد الذى لا يبصر ضوء النهار .

ثم قال الكاتب :

« وبهذه المناسبة يضحكنى أن يعيب علينا أننا نبيح للطلبة تعلم السياسة . نعم ـ نحن من الذين يقولون إن الطالب ـ لا التلميذ لا تكمل معلوماته إلا بتعرف المبادىء السياسية وتصورها ، من عهد أفلاطون إلى الآن[1] » .

وأخيراً حذر الكاتب من أن يكون الغرض من التعليم ـ كما يقول أحد النظار الانجليز لمدرســـة ثانوية فى مصر ـ « إننا نعلم لتخرج موظفين للحكومة » .

وقد رأى الكاتب فى هذا التصريح الخطير ما يدله دلالة صريحة على «أن الحكومة لا تبغى من وراء التعليم أن توصل الأمة المصرية إلى استقلالها الذى ينشده لها المخلصون من أبنائها[2] .

* * *

ونترك الجريدة جانباً ، ونلقى نظرة أخرى على شىء من مجهود الأستاذ لطفى السيد فى التعليم بعد اختفاء الجريدة . والذى يعنينا من هذه الجهود هو رأيه فى رسالة الجامعة . وقد ألقى لطفى السيد فى ذلك محاضرة عامة ـ كان لى شرف سماعها ـ تحدث فيها عن رسالة الجامعة حديثاً لا نجد ما نختتم به هذا الفصل خيراً من أن نقتطف منه العبارة الآتية :

« الجامعة هى جماعة من العلماء أخلصوا العلم ، فوقفوا عليه ملكاتهم ووقتهم يخدمونه كما يقف الرهبان أنفهم على عبادة الله .

---

(١) الجريدة فى ٥ سبتمبر ١٩١٢ .

(٢) الجريدة فى ١١ أبريل ١٩٠٨ ـ بعنوان : نحن والاستقلال .

وإلى جانب أولئك العلماء شبان أذكياء سمت بهم هممهم إلى أن يقفوا شطرا من شبابهم لتثقيف عقولهم وتوسيع آفاقها بتعليم ما لم يكونوا يعلمون. وتهذيب نفوسهم بتعويدها تقليد أساتذتهم فى كيفية نظرهم إلى الحياة، وترفعهم عما يتناحر العامة عليه من الشهوات . فمنهم من تطيب نفسه عن كل ما هو خارج عن هذه الدائرة فيبقى فى الجامعة أبداً . وأولئك هم علماء المستقبل وآخرون يكتفون بدرجة من العلم يخرجون بعدها من الجامعة يضربون فى الحياة الخارجية . وهؤلاء هم الرجال المثقفون الذين بمقدار عددهم يقاس مجد الأمة .

أما الغرض من التعليم الجامعى فهو تثقيف العقل لا ملء الحافظة ، وتنمية ملكة البحث العلمى . ومعرفة أنهاجه وأنماطه ، وتوسيع آفاق الإدراك . فالذى يعتمد على الحفظ المجرد ، والذى يعتمد على الأستاذ يأخذ نظريته قضية مسلماً بها من غير تفكير شخصى واقتناع ذاتى كلاهما ليس طالب علم فى حقيقة الأمر .

وعلى هذا الأساس أنشئت هذه الجامعة الحكومية . وعلى هذا الأساس نحن حريصون على استقلالها لا عن التأثيرات الحكومية فقط ، بل نصونها عن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة أيضاً . وعندكم أمثلة من تاريخ الجامعات الأوروبية التى دخلتها المؤثرات السياسية فلم تنجب نوابغ ، ولم تقم بشىء من رسالتها ، وتضاءل أمرها إلى أن صارت مكاتب دعايات للقاهرين المستبدين .

وأحب أن أكرر دائماً ما ذكره أحد أساتذة الجامعة الأولين من أن بناء حى للطلبة الجامعيين أجدى على الجامعة والتربية الجامعية من بناء إحدى الكليات . كذلك لا أكتمكم أن الذين وضعوا قوانين الجامعة وهم : المرحومان ثروت باشا والأستاذ ده جوى وأنا كنا نتداول فى أن يكون بعض الطلبة أعضاء فى مجالس التأديب تدعيماً لتربيتهم الاستقلالية .

ولكنا آثرنا أن نرجىء النظر فى ذلك بضع عشرات من السنين تثبت فيها التقاليد الجامعية ، وفيها يثبت الطلبة بسلوكهم فى إدارة حيهم الجامعى ما ينبغى من الصفات للقاضى العادل .

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد : التجديد فى اللغة ، التجديد فى النثر وفى الشعر ، التجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة . ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الرسالة تتناول أيضاً الموسيقى والغناء ، لما لهما من الأثر الطيب فى الأخلاق ، ولأنهما أيضاً لهو جميل لابد منه . وعلى كل أمة أن ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها أن ترقى أسباب جدها العابس .

الفصل السابع

الجريدة فى الميدان اللغوى

رزقت العربية بالكثيرين من صفوة المصريين ممن أظهروا حبهم لها ، وافتتانهم بها ، وغيرتهم عليها . ذلك بأنهم نظروا إليها على أنها اللغة القومية ، وأول مقوم من مقومات الشخصيـــة المصرية . وفى الذى نعلمه من تاريخ الطهطاوى ، وأبى السعود ، وأديب اسحق ، ومحمد عبده ، والنديم ، والمويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل مايدل دلالة قاطعة على عنـاية المصريين بلغتهم ، وذودهم عنهـا ذودهم عن أوطانهم وأموالهم وأرواحهم . لأن الذود عنها ذود عن الكرامة المصرية ، والشرف القومى ، والديانة الإسلامية ، والقرآن الكريم .

وبلغ من غيرة المصريين على اللغة العربية أنهم وقفوا بالمرصاد لكل تقرير أو منشور أو خطاب صغير أو كبير صدر عن الحكومة المصرية ، أو الوكالة البريطانية . فإذا وجدوه مكتوباً بالعربية إلى جانب اللغتين الانجليزية أو الفرنسية رضوا وسكتوا . وإذا وجدوه مكتوباً باللغة الأجنبية وحدها ثاروا وسخطوا ، ونبهوا الحكومة أو الوكالة إلى خطورة هذا الخطأ الذى وقعت فيه[1] .

غير أن اللغة التى بلغت من نفوس أهلها هذا الحد ، واستأثرت من حبهم واخلاصهم بهذا القدر كان لابد لها — لكى تصبح خليقة بتقدير أهلهـا — أن تخضع نفسها لقانون التطور ، وأن تبدى استعدادها للتجديد فى الألفاظ والتجديد فى الأساليب ، وأن تصبح من المرونة والطواعية الصحيحة بحيث تقبل كل تغيير ، وتواجه كل موقف ، وتسد كل حاجه ، وتتسع لكل شىء .

---

(١) راجع الجريدة فى ٢٥ يناير ، ٢٠ فبراير سنة ١٩١٢ . واقرأ مقالا بعنوان (لغتنا) معبرا عن هذا المعنى .

أدرك ذلك لطفى السيد . فراح يدعو فى صحيفته لهذه الدعوة . ومضى يدافع عن حق اللغة فى القيام بهذه الحركة . وكان أهم ما كتبه يومئذ سبع مقالات توشك أن تكون حملة صحفية موفقة ، قام بها هذا الكاتب الغيور فى وجه القدماء والمحافظين من اللغويين . وقد راعه يومئذ أن يرى المصريين يصنعون لأنفسهم لغتين فى وقت معا : لغة للخاصة من المفكرين والمؤلفين ، ولغة لهؤلاء وللعامة معهم يتكلمون بها فى الحياة اليومية ، ويؤدون بها الأغراض العادية .

ولقد نظر الكاتب فى هذه المشكلة على ضوء الواقع الملموس ، وقدر فى نفسه الصعوبات التى يجدها المؤلفون ، والمترجمون ، والراغبون فى نقل التراث الأوربى ، والحضارة الأوربية إلى اللغة العربية . وخرج من هذا كله بنتيجة واحة ، وهى أنه لا بد من تمصير اللغة العربية ، أو على حد تعبيره هو « لابد من إبرام الصلح بين العربية والعامية التى يتكلمها سكان القاهرة بنوع خاص » .

وهكذا جاءت فكرة الكاتب فى مجال اللغة متسقة مع أفكاره فى المجالات الأخرى . والفكرة الرئيسية التى صدر عنها فى جميع هذه المجالات المختلفة هى « المصرية » . ولقد كان يقدم هذه الفكرة بصراحة وشجاعة على فكرة « الإسلامية » . . وعلى هذا النحو أصبحت فكرة المصرية التى دعا إليها بمثابة خيط ينتظم آراءه وأفكاره من أولها إلى آخرها . وهو يكرر دائماً أن كل ما كتبه فى شتى وجوه الاصلاح السياسى والاجتماعى واللغوى لم يكن شيئاً جديداً بالمعنى الصحيح ، وإنما هو تصوير دقيق للواقع المحسوس . وهذا الواقع يستحى منه الكتاب والأدباء وأهل الفكر والعلم والصحافة والسياسة . وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك ، لأن مواجهة الواقع أيسر دائماً من وضع الخطط التى بينها وبين الحقيقة فرق كبير .

ولقد كنا نحن الجامعيين قبل الآن نفهم خطأ أن لطفى السيد ممن دعوا

إلى اصطناع اللغة العامية الصرفة ، وإماتة اللغة العربية الفصيحة . فأصبحنا ندرك الآن أن صاحب هذه الفكرة كان على صواب كبير يوم نادى بها ودعا غيره من الأدباء والكتاب إلى السير فى هذا الطريق . فاستجاب له هؤلاء . ومنهم على سبيل المثال هيكل والمازنى وطه حسين والعقاد وأحمد أمين والحكيم، وإن كان طه حسين من دون هؤلاء يتأبى إلى اليوم من استعمال الألفاظ العامية، ويستعيض عن ذلك بالسهولة البالغة فى تعبيره ، حتى لقد أصبح له أثر واضح فى تقريب المسافة بين لغة التخاطب ولغة الكتابة .

ولا جدال فى أن لطفى السيد بدعوته هذه فى ميادين اللغة والسياسة والاجتماع والتربية يعتبر بحق « أبا القومية المصرية التى بلغت به وبآرائه ذروتها من الكمال الذى بدأته منذ أوائل القرن التاسع عشر، ووصلت فيه إلى ماوصلت إليه اليوم . ونعود إلى مقالات هذا الكاتب الكبير فى موضوع اللغة . وقد بدأ أحدها بقوله[1] :

« قد يبتسم قراؤنا السياسيون ابتسامة الاستغراب من خوضنا اليوم بعد اليوم فى اللغة ، واحتيالنا لتعميم العربية ، وجعلها لغة العلم ولغة الكلام بقدر الإمكان . فى حين أن الأحوال السياسية فى أوربا مضطربة ، وحركات تعبئة الجيوش باعثة على النظر فى نتائجها المخيفة. ومع ذلك فإن كلامنا عن (المصرية) وخوضنا فى اللغة العربية ووسائل رقيها ، ونشر صحيحها بين الكافة هو فى نظرنا خوض فى السياسة . ذلك لأن رقينا موقوف من بعض وجوهه على العلم — واللغة واسطته — وموقوف على الأدب — واللغة أساسه — وموقوف على حسن التفاهم بيننا — والبيان قاعدته . فما أظننا نجاوز حدود اللائق فى هذا الزمان إذا جاوزنا ما لا نستطيع تغييره من مجرى السياسة إلى ما نستطيع إصلاحه من حال اللغة » .

---

(١) الجريدة فى ٤ مايو ١٩١٣ .

قد يفهم من ذلك أن الكاتب الفيلسوف دعا إلى التقليل ما أمكن من مادة اللغة من حيث هي. كلا — فقد كان يدرك إدراكا صحيحاً أن اللغة في ألفاظها كالشجرة في أوراقها فإذا كان الخريف يسقط بعض هذه الأوراق لتحل محلها أوراق أخرى في الربيع ، فكذلك الألفاظ يموت القديم منها لتأتي الألفاظ الجديدة الأخرى. ولكن هذا لا يمنع مطلقاً من الاحتفاظ بكثير من الألفاظ القديمة التي تدل على غنى اللغة واتساعها ، والكاتب الغيور يحب للعربية أن تغنى وأن تفاخر بهذا الغنى جميع اللغات.

وفي هذا المعنى يقول كاتبنا :

« على ذكر شكسبير يرد على خاطري أني سمعت أنه استعمل من اللغة الانجليزية نحو عشرين ألف كلمة ، وأن في بعض أساليبه خفاء على كثير من العامة . ولكني لا أصدق أن أحداً سمع أنه رمى بالتقعر ، بحجة أنه لم يقتصر في كتاباته على مئات الكلمات التي تكفي للتعبير عن المقاصد في اللغة الانكليزية. وهنا يرد على خاطري أيضاً أن أبا العلاء المعري استعمل في شعره وفي نثره قاموساً من الكلمات أكبر عدداً من قاموس شكسبير .

ولم يكن أبو العلاء ليكتب بلغة العلماء والشعراء الذين لا يزيد عددهم عن المئات وقتئذ . بل كان يجهد قريحته ليخرج للكافة أفكاره الحكيمة ، وما اطلع عليه من أسرار الطبيعة ... وأنه على ذلك يستحيل على رجل يذوق طعم الكلام أن يرمي أبا العلاء المعري بالتقعر . فما بالنا في بلدنا نجد كل يوم لهذه الكلمة رنيناً خشناً في الآذان . بل نراها على سوء استعمالها ، وقبح مدلولها تسيل بسهولة على كثير من الألسن كلما صادف بعضهم في الكتب أو الجرائد كلمة يظنها غريبة ، وما هي بالغريبة إلا عنده .. كأن الواحد منهم يرى أن يمحو شخصية كل كاتب ويحيلها إلى شخصية الخ [1] .

---

(١) الجريدة في ٢١ أغسطس ١٩٠٩ .

(وبعد)فلنستعترض طائفة يسيرة من مقالات لطفى السيد فى اللغةالعربية متوخين فى ذلك الايجاز قدر المستطاع .

نشر الكاتب مقالة له بعنوان :

التأليف باللغة العربية [١]

جاء فيه :

« لغتنا واسعة فى القاموس ضيقة فى الاستعمال ، مخصبـــة فى المعانى والمسميات القديمة مجدبة فى المعانى الجديدة والمصطلحات العلمية . فقد انقطع رقيها من قرون طويلة،فوقفت عند الحدالذى وصلت اليهأيام النهضةالعباسية، ولا سبيل إلى إحيائها وجعلها مألوفة الاستعمال إلا أن تصير لغة العلم فى البلاد.

ولم يكن هذا الغرض هو كل السبب فى طلب العلم باللغة العربية ولـكن كان السبب التالى فى الأهمية، وهو نقل العلم إلىوطننا حتى ينتج نتائجه الـكبرى فى ارتقائنا إلى ما نطمع فيه من المدنية والشرف .

ثم انتقل الكاتب من ذلك إلى معالجة المشكلة التى تواجه نظارة المعارف وهى مشكلة الـكتب المدرسية ، والمراجع العلمية أو المطولات فاقترح على النظارة ترجمتها ، وتوزيعها على الطلاب على ألا يكونوا عبيداً لها ، ونصح الكاتب نظارة المعارف فىشأن الـكتب المدرسية بنوع خاص أن تترك المجال فيها للمدرسين عامة ، ليحدث التنافس بينهم فى الترجمة والتأليف ، لأنهـا إذا تدخلت وفضلت كتاباً على آخر حكمت بالرواج لهـذا الـكتاب ، والـكساد الأبدى للـكتب الأخرى .

* * *

ـ أنه فى دفاع الكاتب عن العربية كان لايرى بأساً من تطعيمها بين آنٍ بالعامية ، وفى هذا المعنى كتب يقول :

---

١ الجريدة فى ٦ إبريل سنة ١٩١٣ .

فى اللغة ايضا [١]

« الأوتوموبيـل والبسكليت والجاكتة والبنطلون والجزمة والمودة الخ كل هـذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر فى الكتابة إلى غيرها من الألفاظ التى نحاول انتحالها مع التكلف لنعبر بهـا عن هذه المسميات . إننا لو أبينا ذلك لعملنا على توسيع مسافة الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام . وذلك مؤخر للغة ، مؤخر للبيان والفصاحة ، مؤخر للتقدم من جميع الوجوه . وإذا كان قصدنا أن تكون ألفاظ الكتابة قاصرة على جماعة الأدباء والكتاب فالخطب هين . أما إذا كنا نكتب ليفهم الناس مانكتب فحسبنا أننا نقدم للجمهور كل يوم أفكاراً جديدة ، ومعانى صعبة التناول ، ومقاصد بعيدة المرمى فمن الظلم أن نكلفه بأن يعرف كل مسمى .

سيقال إننا فى جيل إحياء اللغة بعد موتهـا وهذا كلام طيب ، ولكن أمامنا عقبات لا يسهل تخطيها . فلو حاولنا التمسك بالكمال ، والتزمنا فى إحياء اللغة هذا المخرج الصعب لأضعنا الوقت. وفى لغتنا أسماء أعجمية كثيرة جداً لم يخل وجودها بالفصاحة ولا بالبلاغة . فإن بعضها قد وجد فى القرآن ، وهو المعجز بفصاحته وبلاغته إلى حد الإبداع .

أدرك العرب أن العلم ليس له وطن ولا لغة ، وأن الأسماء الرئيسية فى العلم أحسن ما تكون شيوعاً بين الأمم . ولذلك أخذوا من الأمم الأجنبية مصطلحات تلك العلوم . وفعل الأوربيون أنفسهم مثل ذلك ، حين أخذوا عن العرب أسماء بعض العلوم ، كالجبر ، والكيمياء ، وغيرهما .

إن العلم قائم على المبادلة فى المنافع . والذى لا يرى أن يأخذ الاسم الأوربى للمسمى الأوربى كالذى يرى أن من الوطنية ألا يتعلم العلوم الأوربية أو ينتفع بالمخترعات الأوروبية » .

وواصل الكاتب الكلام عن هذه الفكرة بعينها فى مقال آخر له بعنوان :

---

(١) الجريدة فى ٢٠ أبريل ١٩١٣ .

فى اللغة العربية [1]

جاء فيه :

« نحن نقبل كل عثمانى ، وأرمنى ، ويونانى فى جنسيتنا المصرية بحكم القانون مع الارتياح والسرور . ونحن نلبس أزياء (المودة) الغربية طائعين لا كارهين ، ونقبل ما يقرره العلم الأوربى إن صح الوصف ، ونستغل ما تقدمه لنا الصناعة الأوروبية من الآلات والماكينات الخ . نحن نعمل هذا كله ، ونعتبره بشير الرقى ، وطليعة الاستقلال . فما بالنا لا نعتبر لغتنا كالعلم ، نزيد عليها كل جديد بمقدار الحاجة إليه . نحن نعمل ذلك بالقول لا بالفعل ، ولكنا ننكره بالقول . ولو سألت العامة عن (التلتوار) لعرفوه وأنكروا (إفريز الطريق) و (عذاره) ونحوهما .

والأمة سائرة على هذا النمط من التطور . فهى تعرف (الكمبيالة ، ولا تعرف (الفتحة) غير خمسة ستة من الكتاب ، أو عشرين ثلاثين من المترجمين ، أو المثقفين ممن لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة .

اللغة ملك الأمة . وللكتاب الحرية فى الزيادة عليها بأساليب جديدة ، وألفاظ جديدة . . .

ثم مضى الكاتب فى نقد عملى لمعاجم اللغة العربية التى يعرف الناس جميعاً أنها غنية غنى فاحشاً فى جهة ، فقيرة فقراً مدقعاً فى جهة ثانية » .

ثم فى مقال له بعنوان[2]

رقوا لغتكم

أنشأ الكاتب الفيلسوف يقول :

« يضحكنا أن يقال إننا نريد هجر الفصاحة وإماتة اللغة العربية لنأخذ بزمام لغة عامية لا تصدر عن قاعدة ، ولا تؤدى غرض البيان . ولئن آملنا

(١) الجريدة فى ٢٣ إبريل ١٩١٣ .

(٢) الجريدة فى ٢٧ أبريل ١٩١٣ .

ذلك فإنه يحزننا أن تكون الأحكام مبنية على الأشاعة . لأننا على يقين أن الذى يقرأ ما كتبناه فى اللغة العربية يستحيل عليه أن يحكم علينا بأننا نعادى فصاحة اللفظ وبلاغة الأساليب . إنما نريد بعض ما يقولون . نريد ألا نذر اللغة العامية أو لغة الشعب تموت بإبعاد عربيها وفصيحها عن عالم الكتابة والعلم . وألا نذر لغة القرآن محجوبة بين دفات الكتب ، لا ينزل منها إلى الاستعمال اليومى ما يحفظ بقاءها ويديم حياتها .

« نريد أن ترفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابى ، وننزل بالضرورى من لغة الكتابة إلى ميدان التخاطب والتعامل . فلا تكون النتيجة إلا أننا نكتب الكتاب مفهوماً ، ونتحدث الأحاديث عربية صحيحة !

نحن نأخذ من الواقع ، وهو يدل على أن لنا لغتين : لغة القلم ، ولغة ثانية ، هى اللغة الحية — لغة الاستعمال اليومى . فإذا استمرت الحال على ذلك كانت النتيجة أن يستحيل علينا أن نتكلم بلغتنا صحيحة ، ونتخاطب بها خالية من الركاكة فى الأسلوب ، ومن اللحن فى المقررات ، خاصتنا وعامتنا فى هذا سواء . فتبقى لغة العلم والكتابة فى بيئة محدودة لا تجاوزها إلى الطبقات الأخرى ، وتبقى لغة الكلام فى درجة انحطاطها الراهنة ، لا مطمع لها فى الارتقاء . ومع ذلك فهى لغة الأمة ، وأكبر مشخص من مشخصاتها !

« لغة الأمة يجب أن ترقى معها . وقد ترقت الأمة فى كل شىء بنسبة واحدة إلا فى لغتها ! وذلك من استبداد العلماء والكتاب علينا ، وما يظهر عليهم من الحرص على أن يختصوا بلغة الكتب ، كما اختص الكهنوت بأسرار الدين وسلطانه فى عهد آبائنا الفراعنة !

إننى أخشى أن يشتد ساعد الأمة عليكم (يخاطب العلماء والكتاب) فتلزمكم كارهين لا طائعين باتخاذ لغتها العامية المكسَّرة الملحنة لغة لكم فى الكتابة والعلم . فلا تجدون من الإذعان لإرادتها بدا . والأمة غالبة على أمرها ، ولكن أهل العلم لا يعلمون !! » .

وفى مقال له بعنوان :

إلى الأمام[1]

قال : لو كان الذين يجادلوننا فى اللغة يتنزلون إلى قراءة ما نكتب بنفس ساكنة ، وتدبر فى العواقب لاقتنعوا بأننا نريد النهوض باللغة المصرية (أو اللهجة المصرية إن شاءوا) إلى درجة اللغة الفصحى ، وشفاءها من العلل التى اعترتها فأصبحت غير صالحة برمتها للبيان فى العلم ، والأدب ، والخطابة والتمثيل .

« نقول للمترجمين خذوا ما لم تجدوا فى اللغة العربية من الأسماء التى أدخلها العوام فى اللغة حين كان علماؤها فى غفلة عنها ، وإذ تركوا بابها مفتوحاً حتى دخلت فيها أسماء ليست منها . وصقلتها الألسن واعتادتها ، فأصبح غير نافع كل مجهود يراد به نفى هذه الأسماء .

« نقول للكاتبين : لا يأنف أحدكم من استعمال الألفاظ الغربية ، والتراكيب العربية التى تلوكها ألسن العوام ، فإن العوام يملكون بالوراثة سر اللغة ، ويعرفون البيان فيها تعريفاً حيا مألوفاً . وكثير من أساليبهم حسن جميل .

« فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فعليكم مسؤولية الوثوب باللغة الفصحى . عليكم مسؤولية عدم انتشارها وما يترتب على ذلك من النتائج المخيفة ! » .

وذاعت هذه المقالات الساخرة فى الرأى العام المصرى ، وكان لها صدى كبير فى الأوساط المصرية على اختلافها فاعترض الكثيرون عليها . ونلخص ذلك فى أمرين :

(الأول) أن الاعتراف بما أدخلته الأمة من الألفاظ الأعجمية قد يكون فيه شبه تمصير للغة العربية ، وفى ذلك تعطيل لعامل من عوامل الجامعة الاسلامية وهو توحيد اللغة .

---

(١) الجريدة فى أول مايو ١٩١٣ .

(والثانى) أن تصحيح الألفاظ العامية المصريه . واستعمالها فى الكتابة فيه تعطيل للغة الفصحى .

ورد الكاتب الغيور على هذين الرأيين فقال : « أما عن الاعتراض الأول فيقول :

« إننا — وإن كنا من أنصار هذه الجامعة المستحيلة بوصف كونها دينية — وما زلنا مقتنعين بأن أساس الأعمال السياسية هو الوطنية وروابط المنفعة دون غيرها ، فإننا مع ذلك لا نرى الاعتراض وجيها حتى من هذه الجهة . لأن القائلين بالجامعة الإسلامية يجب عليهم أن يقبلوا فيها الترك ، والفرس ، والهنود ، والصينيين ، والجاويين والشراكسة . وهم لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً . ومجموع عددهم أضعاف عدد من يتكلمون العربية من المسلمين . فإذا كانت الجامعة الإسلامية وحـــدة ، وكانت اللغة داخلة فى مشخصات هذه الوحدة ، وجب أن تكون لغة هذه الوحدة هى لغة الأكثرية ، والأكثرية غير عربية . فلا أخوف على الجامعة الاسلامية الموهومة من إدخال المصطلحات العلمية فى مصر فى جسم اللغة العربية .

وأما الاعتراض الثانى — فإن الذى نقترحه ليس من شأنه أن يعطل اللغـة الفصحى ، بل يزيدها فصاحة ، ويسرع فى تطورها ، ولا ينفى منها إلا استعمال ألفاظ لا حاجة لنا بها . ولا مانع يمنع من استعمالها مع ذلك فى الشعر عند تعذر الوزن أو القافية إلخ » .

* * *

تلك جهود صاحب الترجمة فى موضوع اللغـة . والذى لا ريب فيه أنها جهود صادقة موفقة . وإن كان الأدباء والكتاب من حيث أساليب الكتابة نفسها ينقسمون فى كل زمان ومكان إلى قسمين ، ويتوزعون فى مجموعهم طائفتين أو مدرستين :

مدرسة يستهويها القديم ، فلا تعدل به جديداً وإن دعت إليه الضرورة ، واصطلحت على طلبه حاجات العلم والأدب والفن والسياسة والمجتمع .

ومدرسة تألف الجديد بسرعة غريبة ، فتنجذب بطبعها إليه ، وتستجيب من فورها لمطالب العصر الذى تعيش فيه . واللغة نفسها بين هذين الفريقين كالكرة التى يتقاذفها اللاعبون بينهم . والشعب من وراء هؤلاء وهؤلاء كالنظارة فى ميدان اللعب ، يصفق أكثره لفريق المجددين ، ولا يهون على نفسه مطلقاً أن يموت المحافظون إلى الأبد .

الفصل الثامن

الجريدة فى الميدان الأدبى

الأدب قسمان : إنشائى ووصفى . والإنشائى منهما قسمان : شعر ونثر . والوصفى قسمان : نقد وتاريخ . فأى هذه الألوان الأدبية المختلفة كان أشد وضوحاً فى (الجريدة) وأيها قد استأثر باهتمام أسرة التحرير فى تلك الصحيفة.

إذا ذهبت معى تتصفح أعداد (الجريدة) منذ نشأتها إلى أن وقفت عن الصدور ولاحظت أن الجانب الإنشائى من نثر وشعر كان أكثر وضوحاً من الجانب الوصفى من تاريخ ونقد . ولقد كانت الجريدة فى هذا مسايرة للنهضة الأدبية فى مصر فى ذلك الوقت ، مصورة لها أصدق تصوير .

غير أننا نلاحظ بعد سنوات قليلة من ظهور الجريدة أن حركة ما فى الأدب الوصفى قد بدأت تظهر ظهوراً خفيفاً ، وتقوى شيئاً فشيئاً ، وتلفت الناس إلى شىء لم يعرفوه من قبل ؛ وهو (النقد الأدبى) ، وتقدم لهم صنفاً جديداً من صنوف الثقافة ؛ هو (تاريخ الأدب) .

وإذا أمعنت معى فى هذه الظاهرة ، وفى الوقت الذى شعر الناس فيه بهذه الحركة ، علمت أن ظهورها — فى حقيقة الأمر — إنما اقترن بظهور (الجامعة القديمة) . أو — على الأصح — بعد انشائها بسنتين أو ثلاث !

فلقد فتحت الجامعة أبوابها ، وكانت الدراسات الأدبية من أهم موادها ، واحتاج الطلاب إلى كتب يقرأون فيها مادة (الأدب العربى) . فما إن أعلنت الجامعة عن رغبتها فى هذه الكتب حتى تقدم بعض العلماء بهذه الكتب . وكان من أولهم السيد مصطفى صادق الرافعى الذى قدم كتابه (تاريخ آداب العرب) ؛ فأحدث الكتاب ضجة كبيرة فى الوسط الجامعى . وكان ذلك فى فى أوائل سنة ١٩١٢

وكان أمام الجامعيين قبل ذلك الوقت مثالان واضحان من أمثلة (الدرس الأدبى) فى الجامعة .

أما أحدهما — فمثال الأساتذة المصريين (كحفنى ناصف) وغيره ممن لم يتثقفوا بغير الثقافة الشرقية ، ولا درسوا شيئاً من الأدب الأوروبى .

وأما الثانى — فمثال الأساتذة المستشرقين كالأستاذ (كارولو نللينو) وغيره ممن درسوا الثقافتين الشرقية والغربية . وكان لهم منهاج علمى خاص فى دراسة الآداب . عرضوه على الذوق المصرى منذ انشاء الجامعة . فأنكره بعض الطلاب . واستجاب له آخرون . وكان من أوائل الذين استجابوا له إذ ذاك شاب أزهرى ذكى ؛ هو (طه حسين) .

وظهرت بعد ذلك كتب أخرى فى (تاريخ آداب اللغة العربية) ومنها الكتاب الذى ألفه جورجى زيدان بنفس هذا العنوان . وحين أهدى المؤلف كتابه هذا لأحد الشبان المصريين إذ ذاك ؛ وهو محمد حسين هيكل كتب الشاب عنه وعن مؤلفه عدة مقالات نشرتها الجريدة . ونحا فيها الشاب منحى الثناء والتقريظ على المؤلف وعلى علمه وطريقته[١] .

منذ ذلك الوقت نشطت حركة خفيفة فى مصر ؛ تتجه إلى النقد . وكان هذا الاسم نفسه غريباً على أسماع الكثيرين من المتعلمين فى مصر أول الأمر ثم لم يلبثوا أن ألفوه . وفهموا الغرض منه .

* * *

ونريد أن نترك الحركة النقدية نفسها مؤقتاً . لننظر أولا فى الجانب الانشائى فى الجريدة ؛ ونعنى عناية خاصة بنصيب لطفى السيد من هذا النشاط . وبعد الفراغ من ذلك لابأس من العودة إلى حركة النقد .

إن نظرة فاحصة فى الجانب الإنشائى البحت للمدرسة الصحفية الثانية التى انتهت بالمويلحى ؛ والجانب الإنشائى البحت للمدرسة الصحفية الثالثة التى

---

(١) راجع الجريدة فى ١١ يوليه ، ١٣ يوليو سنة ١٩١٢

بدأت بالسيد على يوسف ترينا بوضوح أن عناية الأولى منهما بالأسلوب كانت — ولاريب — أوضح من عناية الأخيرة منهما به . بحيث إذا أردت أن تقرأ أسلوباً بُذل فيه أكبر قدر ممكن من الأناقة الفنية . والزينة اللفظية أو المعنوية فعليك بتلاميذ المدرسة الثانية على وجه العموم . وبأديب اسحق والمويلحى على وجه الخصوص .

ولكن الأمر أصبح على عكس ذلك منذ ظهور (المؤيد) . هذا من حيث الصياغة الفنية فى ذاتها . أما من حيث الموضوعات الأدبية التى طرقتها الصحافة المصرية ، فيلوح للباحث بشكل عام أنه بينما كان الهدف الثقافى غالباً على المدرسة الصحفية الأولى ، وبينما كان الهدف الاجتماعى غالباً على المدرسة الصحفية الثانية ، إذ بالهدف السياسى أصبح غالباً على المدرسة الصحفية الثالثة ، وإن بدت الأهداف الاجتماعية والأدبية فى درجة من الأهمية لا تقل كثيراً عن الهدف السياسى .

من أجل ذلك رأينا كتاب (الجريدة) يكتبون بين حين وحين مقالات فى الأدب الانشائى الخالص. وبحثنا نحن فى الموضوعات العامة لهذه المقالات فإذاً أهمها ثلاثة :

الأول : موضوع الطبيعة

والثانى : موضوع الريف المصرى .

والثالث : موضوع التأملات الفكرية .

وهى تأملات فى قيمة الحياة الإنسانية ، وقيمة الجانب الروحى منها ، وقيمة الحضارة الأوربية ، وكيف يمكن الانتفاع بها ، وقيمة السعادة ، وطريق الوصول إليها إلخ .

أما (الشعراء) فقد ملأوا فراغا لا بأس من صفحات الجريدة وحرصت هذه الصحيفة على أن تكون معرضاً عاماً لتلك المقطوعات والقصائد الشعرية التى نظمها الشبان إذ ذاك من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، وأحمد الكاشف ،

وعبد الحليم المصرى ، وأحمد زكى أبو شادى ، وأحمد شوقى ، واسمعيل صبرى ، وطه حسين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز صبرى ، وامام العبد ، وحافظ ابراهيم ، وعباس محمود العقاد ، ورمزى نظيم ، وحسين شفيق المصرى ، وعلى شوقى ، ومحمود عمار ، ومرسى شاكر الطنطاوى ، وفؤاد الخطيب ، وحسن الغاياتى ، وابراهيم شهاب الدين ، وابراهيم عبد القادر المازنى ، وأحمد نسيم ، وأحمد محرم ، ومراد فرج ، ومحمد عبد المطلب ، ورشيد مصوبع ، ونقولا رزق الله ، وايليا أبو ماضى ، وغيرهم .

أما موضوعات الشعر عند هؤلاء جميعاً فأهمها ما يأتى :

أولا : وصف الطبيعة (كما فى شعر شكرى والعقاد وأبى ماضى إلخ) .
ثانياً : شعر الرثاء (كما فى شعر طه حسين فى رثاء آل عبد الرازق) .
ثالثاً : الحب (وليس كثيراً ما ظفرنا به من هذا الباب فى الحقيقة) .
رابعاً : وصف حوادث الحرب (كما فى شعر صبرى) .
خامساً : طلب الدستور (كما فى شعر طه حسين وحافظ ابراهيم) .
سادساً : شعر الخواطر والتأملات (وهو كثير عندهم جميعاً) . ومنه على سبيل المثال قول شكرى :

ولولا رجائى أن أقول مقالة ... تعود بخير أو تعين على شر
لما كان لى فى بسطة العمر رغبة ... ولم أحمد الأيام أن زيد فى عمرى[1]

سابعاً : معارضة الشعر العربى القديم (كما فعل أحمد نسيم بنظمه لامية نسيم التى أولها) :

بى فوق ما بك أيها الطلل ... لك العفاء ولى الاسقام والعلل[2]

ثامناً : ترجمة الشعر الانجليزى إلى شعر عربى . (وهذا كثير عند كل من

---

(١) الجريد فى ١٥ سبتمبر ١٩١١
(٢) الجريدة فى ١٨ مارس ١٩١٢

عبد الرحمن شكرى وعباس العقاد والمازنى . ومنه قصيدة للعقاد بعنوان الوردة . . ترجمها عن شعر وليم كوبر . وأولها :

أتتنى بها من خدها مثل لونها ... مبللة الأوراق باكية السن
جنتها لها ترب حصان تزفها ... إليها وقد يجنى على الورد من يجنى[1]

* * *

وأما (الكتّاب) فكثيرون نذكر منهم . عدا مدير سياسة الجريدة . عبد الرحمن شكرى ، وعبد الحميد حمدى (صاحب جريدة السفور) ، وعبد الحميد الزهراوى ، وعبد العزيز البشرى ، ويوسف البستانى ، ومحمد السباعى ، وعبد السلام ذهنى ، وابراهيم رمزى ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وابراهيم المازنى ، وعزيز خانكى ، ونقولا الحداد ، وبهجت وهبى ، وعبد القادر حمزة ، وتوفيق دياب ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى عبد الرازق ، وسلامه موسى الذى كان كتوفيق دياب يراسل الجريدة من انجلتره .

ومن الكاتبات : لبيبة هاشم (صاحبة مجلة فتاة الشرق) ، ونبوية موسى ، وباحثة البادية (بنت حفنى ناصف) .

وقد أشرنا من قبل إلى الموضوعات التى عرض فيها أولئك الكتاب ثمار أفكارهم ، وزبدة آرائهم ، وخير ما ورد على عقولهم وجاشت به صدورهم .

ولا نستطيع فى هذا الفصل أن نأتى بنماذج لهم ، ولا لبعضهم .

ومن ثم فنحن مكتفون هنا ببعض النماذج الأدبية لصاحب الترجمة ؛ وذلك فى الموضوعات التى أشرنا إليها ومنها :

---

(١) الجريدة فى ١٥ أغسطس ١٩١١

موضوع الطبيعة

وفى هذا الموضوع كتب لطفى مقالات شتى . منها — على سبيل المثال — مقال له بعنوان : (ربيع الحياة)[١] ، وآخر بعنوان (زهر الربيع)[٢] .

ومن انشائه فى الأولى :

« رأيت صباح اليوم أزهار الربيع على أكمل ما تكون : إما فى أكمامها ، وآثار الصحة بادية عليها ، وإما زهية قد مزقت أكمامها وسفرت عن حجابها بين بين . لا هنّ سافرات خالعات العذار ، ولا هن متخذات شعوراً من الأكمام والأفنان . سفرن فكلهن قرة للعين ، ولذة للشم ، ومبعث لحركات العواطف . لا أعرف عن طريق اليقين الوجه فى جمال هذه الزهور . ولكنها فى الواقع جميلة . كذلك لا أعرف الصلة الخفية بين رؤية الأزهار وشمها وبين آيات الحب . جلت حكمة الله أن تتناولها عقولنا . ولكن الاستقرار دل على أن هذا النوع الإنسانى ، منذ نشأ إلى اليوم يتعشق الزهر ، ولا يطيب له مجلس لهو إلا إذا كان للزهر فيه المقام الأول ؛ منثوراً أو منظوماً ، صحباً أو أشتاتاً . بل كلنا يود أن يكون له بستان فيه زهر . ومن لم يجد هرع وقت فراغه إلى الحدائق العمومية . ومن لم يجد من الفلاحين أعجبه كثيراً أن يقيم وقت أنسه على قرب من زهر الفول . ومن لم يجد اتخذ له صورة بستان ، أو خيال بستان من الزهر فى آنية من الفخار ؛ يضع فيها القرنفل والورد فى شبابيك داره . بل أصبح من القضايا البديهية أن الدلالة الوضعية على رقى أمة عنايتها بالزهر ، واستمتاعها به إلخ » .

ومن انشاء الكاتب فى الثانية :

« ليس كل الحياة شقاء للسعى إلى مال ينفق أو يدخر ، وإلى مباراة فى رفعة المناصب . بل الحياة أيضاً استمتاع بجمال الطبيعة . فكرة خفيفة الوزن،

---

(١) الجريدة فى ١٥ أبريل ١٩١٣

(٢) الجريدة فى ١١ أبريل ١٩١٤

تافهة القيمة عند أهل الوقار ! . فإن الحال قد تبدلت إلى صرف النظر عن جمال الطبيعة ، ونعيم الحياة الإنسانية إلى أحسن أطراف هذه الحياة: الحرص على الخدمة فى الحكومة ، والحرص على فقد الحرية فى كل شىء ؛ حتى فى الملذات البريئة ، حتى فى الاشتغال بتربية ملكة الجمال ، حتى فى العناية بغرس الأشجار ، وتوليد الأزهار ، الحرص على فقد الصراحة فى كل شىء حتى فى الأعمال الشخصية ! رب يد — كل ماخلقت تابع لقانون التطور ؛ حتى المعانى والأفكار . فالذين تجردوا من مزايا السلف الصالح فى علم يفيد ، وجد ممتع ، وسيرة طابت ظواهرها وبواطنها ، قد اكتفوا من أسلافهم بتقليد شىء واحد ؛ لم يقدروا إلا عليه ؛ وهو صورة ظاهرة من الإطراق ، لا فى التفكير والسكون ؛ بل مظهر يقتضيه الوقار !

« ذلك جيل ذهب بأهله . ولنا جيل ناهض يجب أن يؤلف بين علمه وبين نزعات نفسه، ويضيف إلى تثقيف شغله تهذيب مشاعره ، ويطرح جانباً كبيراً مما ورثناه من ماضينا القريب . فيعنى بمظاهر الجمال كما يعنى بزراعة القطن ، لأن الحياة ليست شقاء خالصاً . بل هى يومان : يوم للشقاء ، ويوم للنعيم .

« ها نحن أولاء أمام الربيع . أزهار تبتسم أنفاسها ، وتأخذ بأبصارنا ألوانها. وتحرك جدتها عواطف الحنان فى قلوبنا ؛ كأنها بعض أبنائنا . إن مرآها وريّاها ينقلان نفوسنا من عالم الشقاء إلى عالم النعيم ، ومن أرض الحقيقة الواقعة إلى سماء الخيال الجميل الخ .

« علموا أبناءكم حب الجمال . نمّوا فى نفوسهم ملكته ؛ ليعلموا أن الحياة ليست جحيم الهموم . ولكن لمحات من النعيم . إن حب الجمال يرفع النفس إلى لذائذ أطهر طبعاً ، وأسعد أثراً ، وأبقى فى العواطف نتيجة من كل ماعداه من لذائذ الحياة . وإن أبسط موضوع لتعرف الجمال ، والمران به : أزهار الربيع » .

وأما موضوع :

الريف المصرى

فقد كان لطفى من أسبق الكتاب المصريين فى العصر الحديث تغنياً به ، واعجاباً بمفاتنه ، ودعوة إلى احترام هذا المخلوق الضعيف ، وهو (الفلاح المصرى) ، والشعور بماله من فضل على الأمة المصرية .

وتلك النزعة قد استهوت نفراً غير قليل من كتابنا وكاتباتنا ، وما زالت تستهويهم إلى اليوم .

على أننا مكتفون هنا بمثل واحد من أمثلة المقالات الكثيرة التى كتبها لطفى السيد فى هذا المعنى . وهو مقال له بعنوان :

جنى القانون[1]

« ليس أجمل من العمل إلا جنى ثمراته . وما أسعد صباح الجنائين ؛ يتنادون فيجتمعون ، ويتفقد بعضهم بعضاً ثم يسيرون . يمشون فى طلعة الشمس جماعات جماعات مستبشرين : رجالا ، ونساء ، وفتياناً ، وفتيات ، وصبياناً ، وصبيات . يأخذون معهم مواشيهم ؛ تأكل تحت أعينهم من حشيش الأرض . تتبعهم كلابهم أيضا . فتكاد العائلة لا تتخلف فى البيت إلا من يصلح لهم الطعام .

« ترى الأطفال وقد خفت من الفرح جسومهم الصغيرة فهى تنط من هنا إلى هنا ، وتثب ، وتتلفت . يضحكون من لا شىء ، يغنون طربين بأنهم تركوا المألوف من تفرق العائلة بكرة النهار ؛ كل إلى عمله بعيداً عن الآخر ، تسنح هذه العادة يوم جنى القطن . إذ يذهب جميع أفراد العائلة بجملتهم إلى

---

(١) الجريدة فى ٣ أكتوبر سنة ١٩١٣ . والتأملات ص ٢٧

المزرعة ، يتسابقون فى الجنى وتتبارى فتياتهم فى الغناء . و بتنافسهم فى إجادة النكتة الجميلة يضحك الجميع !

إن هذا المنظر الجميل لأولئك الرفقات المستبشرة لا يدع مجالا للشك فى أن جنى القطن هو موسم سعادة الزارعين .

إن لم يكن القطن جميلا عند أهل المعرفة بالجمال ، فإن جنيه من أجمل ما يكون . ومع ذلك فهو جميل . إنه نافع . وكثيراً ما يكون الشعور بالجمال غير خالص من دواعى المنفعة . كثيراً ما يكون الجميل هو النافع .

بل ذهب بعض المتعرفين جمال الأشياء إلى أن أصله فى النفس المنفعة لا غيرها ،

« على أن مزرعة القطن المحصورة فى ذلك الإطار من التيل[١] ، القائم عليها مقام السياج على البستان ليست إلا لوحة من ألوان الطبيعة الجميلة عند القلوب التى تقدر الجمال .

لو أن الجمال معروف الأوضاع ، ومحل للتدليل والبرهان ، لقلت : كيف لا يكون جميلا مجموع تلك الشجيرات مشتبكات على مسافات متساوية ، سيقانها حمراء ، وأوراقها صفر ، وخضر ، ومدهامة[٢] . وعلى غصونها المترنحة أبراج القطن الأبيض .

« ولكن الجميل هو ما ترضى به النفس وتحبه كذلك . إن شئته روضاً فهو كذلك . وإن شئته غلة فهو كل ثروة البلاد . جنيه الظاهرة الاقتصادية الكبرى فى مصر . وإلى حاصلها تنسب الشدة والرخاء طول العام[٣] » .

---

(١) من عادة الفلاحين أن يحيطوا مزارع القطن بالتيل ، ويتخذون منه حبالا اسماعيل مظهر .

(٢) خضراء تضرب الى السواد

(٣) للقارىء أن يراجع فى الجريدة مقالا بعنوان (تدين الفلاح) لمحمد حسنين سالم بتاريخ ١٦ يونية سنة ١٩٠٧ وغيرها كثير .

التأملات الفكرية

وأما التأملات فما أكثرها ، وأجملها ، وأعمقها عنـد لطفى السيد ، وعند الشيبة التى أعانته على كتابة الجريدة . طاف لطفى السيد فى كل مجال ، وراد بقله جميع الآفاق ، وجال بذهنه فى أكثر الميادين ، وكان فى كل ذلك القدوة الحسنة للكتاب الذين شاركوه ، والكتاب الذين ظهروا بعده ؛ وازداد الأدب من ذلك ثروة أدبية وفكرية لاتحد . ومن تأملاته — وما أكثرها — مقال له بعنوان « الصداقة[1] » وآخر بعنوان « الرجل السـعيد[2] » وثالث بعنوان « أول العام[3] » .

أما (الصداقة) فخواطره فيها بديعة وغزيرة . وفى الذى مضى من الإشارة إلى بعضها ما يكفى للدلالة على ذلك .

وأما (السعادة) فله فيها مذهب واضح جميل : « فالرجل السعيد هو ، يعرف أن يرضى بحاله . فليست السعادة هى النزوة ، ولا الاستمتاع بها . وليست هى الجاه ، ولا آثاره . وليست هى الحب ، ولا لذاته . وليست هى العلم ، ولا نوره ، ولا منافعه . وليست هى النباهة ، ولا كبرياؤها . وليست هى الخمول ، ولا انزواؤه ، وتعطيله . وليست هى الحكم ، ولا قدرته . وليست هى الجمال ، ولا شفاعته . وليست هى الظرف ، ولا خفته . وبعيد أن تكون هى العقل وحسابه ، إن لم تكن هى الخيال وأوهامه . ليست السعادة شيئا من ذلك . ولا هى كل ذلك . بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد !

« جلت قدرة الله . إن لم تتعرف السعادة بين البؤساء ، فنحن لا نعرف لها أثراً بين الأغنياء . وإذا وجدناها من حظ الأغنياء ، فهيهات أن نجد فيها

(١) الجريدة فى ٦ يولية ١٩١٤ — والتأملات ص ٤١
(٢) الجريدة فى ١١ يناير ١٩١٤ — والتأملات ص ٣٢
(٣) الجريدة ٢٩ نوفبر ١٩١٣ — والتأملات ص ٣٠

نصيباً كبيراً للأذكياء . تؤكد أن السعادة هي إحساس الموجودات . وليست من الأعدام . ولكن لا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ومن مقاله بعنوان :

أول العام

« بالناس فى الجديد رغبة ، وإليه شوق . نفرح بالعام الجديد . والشهر الجديد . كأن حاضرنا يثقل علينا حمله . نرغب فى الفرار منه إلى غيره . أو لأن النفوس شيقة إلى معرفة ما يكنه المستقبل فى الصحائف المطوية وراء حجب الغيب . فى ظرف الزمان نستبطىء الحاضر . ونستعجل المستقبل . وهو الذى نرجو أن يحقق فيه كل امرىء آماله وأمانيه . وما أول العام إلا باب هذه المسافة الزمنية . لذلك كان استقباله عندنا عيداً من الأعياد الخ » .

* * *

وقبل أن نترك المقالات الأدبية الخالصة نحب أن نشير منها إلى طائفة من المقالات لغير لطفى السيد من كتاب الجريدة . ومنها على سبيل المثال :

سحر الطبيعة لهيكل (١٢ ابريل ١٩١٣) ، جمال الطبيعة لعبد الرحمن شكرى (٣١ يولية ١٩٠٨) ، الله والطبيعة لمحمد السباعى (٤ مايو ١٩٠٧) ، استقبال العام الجديد بقلم الآنسة ى — نقلا عن المحروسة — (الجريدة فى ٨ يناير ١٩١٣) ، أفكار وخواطر للمازنى (٨ ، ١٤ ، ١٨ أكتوبر سنة ١٩١١) المدينتان لتوفيق دياب ، (من ٢٩ ديسمبر ١٩١٠ إلى ٢٨ يناير ١٩١١) الخ .

* * *

وفى الميدان الأدبى الخالص تنبغى الإشارة كذلك إلى بعض الآثار الأوربية الحديثة التى قام بترجمتها بعض كتاب الجريدة ، ومعهم الشبان المجددون من أمثال عبد الرحمن شكرى ، وعباس العقاد وغيرهما .

وهذه الآثار الأوربية المترجمة كثيرة فى الجريدة ومنها :

قبيل الإعدام — لفيكتور هوجو — ترجمة أحمد زكى (ابتداء من ١٠ مارس ١٩٠٧) .

إلى النساء — مقالات لتولستوى — ترجمت إلى العربية (ابتداء من ٢٥ مارس ١٩٠٧) .

شعر بيرون ، ترجمة عبد الرحمن شكرى (١٤ سبتمبر ١٩١١) .

الوردة — لوليم كوبر — ترجمة العقاد وقد سبقت الإشارة إليها .

مقياس الكتاب — للكاتب الانجليزى باخشوت — (١٢ يونية ١٩١١)

فى سبيل الحياة — لوليم هازلت — ترجمة عز العرب على (٢ يناير ١٩١٣)

البشاشة — لصمويل سميلز — ترجمة مصطفى الصعيدى (أول مارس ١٩١٣)

قصة اليأس — لتولستوى — ترجمة محمد صبرى الملط (٣١ ابريل ١٩١٤)

إلى رجل المستقبل — لآرثر مى — ترجمة حامد محمد الصعيدى (٣ مارس ١٩١٤) .

أحزان فرتر — لجيته — ترجمة عز العرب على (٢٩ مارس ١٩١٤) الخ .

* * *

ونعود إلى الجانب الوصفى من الأدب بنوعيه المعروفين ؛ وهما النقد والتاريخ الأدبى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن حركة النقد اقترنت تقريباً بحركة الدرس الأدبى فى الجامعة . فقد ظهرت حاجة الطلاب إلى بعض الكتب فى تاريخ الأدب العربى . فخف بعض الكتاب إلى تقديم هذه المؤلفات التى تسد حاجة الطلاب . وكان من أولهم فى ذلك السيد مصطفى صادق الرافعى ؛ وهو أديب معروف فى ذلك الوقت ، كانت له بعض مقالات فى الجريدة . وهو صاحب (النشيد الوطنى) الذى نشر بالجريدة (فى ١١ مارس ١٩٠٨) .

ومنذ ظهر كتاب الرافعى بعنوان (تاريخ آداب العرب) بدأت معركة حول دراسة الأدب فى الجامعة ، وكانت الجريدة مسرحا لمساجلات أدبية

عنيفة دارت بين الرافعى من جهة ، والشبان المجددين يومئذ كطه حسين ومحمد حسين هيكل من جهة ثانية .

وإذ نتصفح أعداد الجريدة إذ ذاك يتضح لنا أن هذه المعركة بدأت بمقال نشرته الجريدة فى ٤ مايو سنة ١٩١١ بإمضاء (غيور على الأدب) لام فيه الكاتب الجامعة المصرية فى انتدابها أحد المستشرقين [١] لتـــدريس تاريخ الأدب العربى.

وفى ٦ مايو سنة ١٩١١ ظهرت مقالة بالجريدة ،عنوانها (الآداب العربية بالجامعة) كتبها طه حسين ودافع فيها عن حفنى ناصف من الأساتذة المصريين، وعن المستشرق الذى كان يقوم بتدريس الأدب فى الجامعة ، ومدح طريقته وأثنى عليه وعلى منهجه .

وفى ٨ مايو سـنة ١٩١١ كتب (غيور على الأدب) [٢] مقالا مدح فيه طريقة الرافعى فى كتابه تاريخ آداب العرب وعاد إلى نقد طريقة المستشرقين فى دراسة هذا الأدب .

ودامت المساجلة بين (غيور على الأدب) من جهـة ، وطه حسين من جهة ثانية. هذا يثنى على المستشرقين ويعيب على الرافعى، وذلك يذم المستشرقين ويبالغ فى تهجين عملهم . وضاقت الجريدة بهـذه المساجلة ، واضطرت إلى إلى إقفال باب المناقشة . وما كاد طه حسين يحتج عليها فى ذلك حتى اعتذرت له الجريدة ، رفتحت صدرها من جديد للأخذ والرد فى هذا الموضوع .

وفى ٤ مارس سـنة ١٩١٤ كتب لطفى السيد نفسه مقالا حول كتاب الرافعى . فأظهر إعجابه به وبمنهاجه. ووصف المؤلف بأنه قد «ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا . وليس من السهل أن

(١) والظاهر أنة المستشرق الايطالى الاستاذ كارولو نللينو . وبقى يلقى دروسه فى الجامعة القديمة . وقد أدركته أنا أيضا فى الجامعه الحديثة وسمعت منه محاضرات فى تاريخ اليمن يظهر أنها لم تنشر الى اليوم (المؤلف) .

(٢) أكبر الظن أنه الرافعى نفسه (المؤلف) .

تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء الأول من كتابه إلا بعد درس طويل وتعب ممل . وأما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأني — وأنا أقرؤه — أقرأ من قلم المبرّد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظا سائغة مفصلة عليها » .

ثم قال :

« والأدب ليس كما يراه أهل العجلة في النظر آلة مجردة لسمر الأدباء ، وقصصه مقتلة جميلة للوقت الثمين . بل الواقع أن الأدب وتاريخ الادب مشخص من أقوى مشخصات الأمة . يربط ماضي أجيالها بحاضرها ، ويحدد ماهيتها ، ويميزها عما عداها . فتستمر شخصيتها ، وتتسع بذلك دائرة المشابهات بين أفرادها ، وتقوى روابط التضامن بينهم ، غير ما يكسب الباحث في الأدب من رقة العاطفة ، وحسن الذوق ، والقدرة على جمال التعبير عما في نفسه من العواطف والأفكار ، وحمل الناس إلى الإصغاء إليه وقبول مذهبه قبولا حسناً » .

كان ينبغي أن تكون مقالة لطفي السيد كلمة الفصل في هذه المعركة الأدبية بين الرافعي وطه حسين . ولكن حدث غير ذلك . حدث أن دخل ميدان المعركة شبان آخرون . منهم محمد حسين هيكل الذي انحاز وقتئذ إلى جانب طه حسين وأخذ يكتب مقالات في نقد كتاب الرافعي . وذلك منذ شهر أبريل سنة ١٩١٢ . وأعقب ذلك ظهور مقالات أخرى لطه حسين نشرها بالجريدة تحت عنوان (نحن والرافعي)[1] وقد سبقت هذه الأخيرة مقالات أخرى لهذا الشاب الجامعي بعنوان (من حين إلى حين — أو نحن والنقد)[2] .

منذ ذلك التاريخ أصبح طه حسين معروفاً في الأوساط الأدبية بميوله

---

(١) راجع الجريدة في ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ يناير سنة ١٩١٣

(٢) الجريدة في ٢٥ يناير سنة ١٩١٢

الخاصة واتخاذه وجهة النقد والتاريخ الأدبي . ومنذ ذلك التاريخ وطه حسين يكتب في هذين الموضوعين معاً . ومما كتبه في التاريخ الأدبي — على سبيل المثال — مقالات بعنوان (هل تسترد اللغة مجدها القديم)[١] ثم كتب مقالات أخرى بعنوان (منشأ الفتن الإسلامية)[٢] ، وبعنوان (الآداب العربية في أيام بني العباس)[٣] ، وبعنوان (في اللغة)[٤] ، وبعنوان (حياة الأدب)[٥].

ولعل من أهم هذه المقالات التي كتبها طه حسين مقالة له بعنوان(الجامعة والنهضة)[٦] جاء فيها : «ليس ينقصنا العلم وحده ، وإنما تنقصنا معه حرية الرأي . فإن العلم في بلدنا كثير بالقياس إلى العصور الماضية . غير أن العادة والخلق والتربية والسياسة كلها مؤثرات منعت العقل من التفكير والبحث . فلا بد من تعويد العقول أن تبحث حرة غير مقيدة بشهادة المدرسة ، ولا منصب الحكومة ، ولا رضى العـــامة . والجامعة وحدها هي القادرة على كل ذلك » .

* * *

ظهر إلى كتاب الرافعي الذي مر ذكره كتابان آخران أحدهما لجورجي زيدان ، وعنوانه (تاريخ آداب اللغة العربية) ، وكتاب آخر للشيخ أحمد السكندري المدرس بدار العلوم بعنوان (تاريخ آداب اللغة) . غير أن أحداً من هذين الكتابين لم يحدث ضجة أدبية كالتي أحدثها كتاب الرافعي من قبل فقد كان من حظ هـذين المؤلفين أن استقبلها الشباب بشيء غير قليل من

---

(١) الجريدة في ٥ ، ٦ ، ٧ نوفمبر سنة ١٩١١
(٢) الجريدة ٣١ أكتوبر سنة ١٩١١
(٣) الجريدة في أول نوفمبر سنة ١٩١١
(٤) الجريدة في ٢٦ أبريل سنة ١٩١٣ ، ١٠ مايو سنة ١٩١٤
(٥) الجريدة في ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٩ يناير ٣٤ ، ٧، ٨ فبراير ، ٨ مارس سنة ١٩١٤
(٦) الجريدة في ٢٥ يناير سنة ١٩١٤

الرضى . ومن ذلك ما كتبه محمد حسين هيكل فى تقريظ كتاب جورجى زيدان وذلك فى أعداد كثيرة من الجريدة [١] .

وتبع ذلك ظهور سلسلة أخرى من المقالات فى تقريظ هذا الكتاب بقلم (أزهرى) [٢] . ولم يكد يشذ عن هذا الاجماع غير كاتب واحد نقد كتاب جورجى زيدان فى سلسة أخرى من المقالات بتوقيع (أبو حاتم) [٣] .

أما كتاب الشيخ السكندرى فقد رزقه الله بمن أثنى عليه كذلك . فى مقالات نشرت فى الجريدة بتوقيع (أزهرى)[٤]

* * *

على أن الكتب التى ظهرت فى تاريخ الأدب لم تكن وحدها موضع النقد ومثار المساجلات الأدبية على هذا النحو . بل كانت ثم كتب أخرى فى الادب الخالص استأثرت باهتمام النقاد ، وحركت فيهم شهوة التقريظ أحياناً واللوم والتعريض أحياناً أخرى .

ومن هذه الكتب الادبية (نظرات المنفلوطى) . وقد تعرض الكثيرون لنقد هذه النظرات . وإن مال أكثرهم إلى استحسانها والاستزادة منها . ومن هؤلاء (محمد راضى) الذى كتب مقالا بعنوان فن الكتابة [٥] وآخر بعنوان : (النظرات) [٦] . وفى هذه الاخيرة يقول :

« من قرأ روايات موليير التى لا تخرج عن ذلك الأسلوب الجميل (يعنى أسلوب المنفلوطى) علم مبلغ تأثير هذا الخيال فى النفوس ، ومبلغ فائدته فى تهذيب الأخلاق وإصلاح العادات . إن الحكيم موليير درة فى

---

(١) الجريدة فى ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ يوليه سنة ١٩١٢
(٢) الجريدة فى ٢ ، ١٢ ، ٢٤ مايو ، ٨ يونية سنة ١٩١٣
(٣) الجريدة فى ٧ ، ١٤ يوليه سنه ١٩١١
(٤) ٢٣ إبريل سنة ١٩١٣
(٥) ٢٣ إبريل سنة ١٩١٠
(٦) ١٢ مايو سنة ١٩١٠

تاج القرن السابع عشر وشيخنا المنفلوطي درة في تاج القرن العشرين . إلا أن خيال الأستاذ على قوته لا يزال ضعيفاً بالنسبة إلى موليير الذي كان يضع الرواية من بنات أفكاره وتقوم بتمثيلها جوقته التي هو على رأسها . ولو فطن الأستاذ نفسه في هذا السبيل وكتب كثيراً واجتهد في قراءة أمثال هذه الأوضاع لأتى إلينا بأبدع الآيات وأكبر المعجزات ، ولوجدنا نعمى الأدب العصري على يديه . . . ولكن قريحة واحدة كقريحة المنفلوطي لا تكفي أن تكون مطلعاً لشمس تملأ آفاق الشرق نوراً مهما كان سناها وجمالها » .

وظهر للمنفلوطي كتاب آخر بعنوان (المختارات) اختار فيه لطائفة من الشعراء القدماء ثم قدمها للقراء ليتذوقوها وتعود عليهم قراءتها بإرهاف في الحسن وجمال في الذوق .

غير أن المنفلوطي لم يسلم كذلك من ألسنة النقاد . وكان من أسرعهم إلى النقد طه حسين . فكتب مقالا بالجريدة نشرته في ٢٠ ابريل ١٩١٢ بعنوان (نحن والتقريظ) جاء فيه :

« زعم صاحب المختارات في مقدمته أن شعر الجاهليين يمثل طفولة الشعر عند العرب . ولعمري ما أصاب الحكم . وإن قضية كهذه لتحتاج إلى اتقان العلم بتاريخ الشعر العربي . وإن بيننا وبين هذا الاتقان لأمداً لا يزال بعيداً » ثم انتقد الكاتب صاحب المختارات في أمور أخرى ، منها طريقة المنفلوطي في تراجم الشعراء . إذ توهم أن الترجمة هي ذكر سنة الميلاد ، وسنة الوفاة ، مع شيء من المدح ، والوقوف عند هذا الحد . كما أخذ عليه كذلك غلطه في إيراد أسماء المشهورين من رجال العلم والأدب ، كأبي هلال العسكري الذي كتبه في المختارات هكذا : (ابن هلال) . وصحح طه حسين للمنفلوطي بعد ذلك طائفة من الأخطاء التي وقعت له في بعض نصوص الشعر القديم ، وأخطأ في فهم هذا الشعر بسبب تحريفه للنص .

* * *

على أنه كان لهذه الحركة الأدبية النقدية هدف آخر فوق ما ذكرنا . وهو هدف يتفق وروح (الجريدة) ويساير فكرتها فى النهضة . وهو فى الوقت نفسه هدف نحو تعقيل الحركة . ذلك الهدف هو الدعوة إلى تمصير الأدب. وقد دعا بهذه الدعوة المجددون من الشبيبة المصرية . وكان من أسبقهم إليها محمد حسين هيكل الذى كتب سلسلة من المقالات بعنوان (فوضى الأدب[1]) وفيها يقول :

للأدب العربى سلطان كبير على المصريين . وهى حركة مباركة لو أن الغرض منها معرفة الأدب العربى ، واحترام المصريين لأنفسهم . ولكن يجب أن يكون عندنا أدب مصرى خالص يخلق بيننا حركة مصرية صميمة ويخلق مشابهات كثيرة بين المصريين الخ ، فذلك أدعى لاحترام أنفسم ، وإثبات شخصيتهم ، والقيام بما للنهضة من واجب قومى .

وقد حذاه هيكل فى ذلك حذو أستاذه لطفى السيد فى دعوته إلى مصرية اللغة . بل إنه بالغ فى احتذائه بعد ذلك عند ما كتب مقالا بعنوان (فوضى اللغة[2]) وفيها يدافع هيكل عن العامية المصرية دفاعا يشبه دفاع لطفى عنها . فمن رأى هيكل فى هذا المقام أن ألفاظ (تليفون وأتومبيل ونحوهما ينبغى أن تكون ضمن ألفاظ المعاجم اللغوية ، كما ينبغى ألا يتأبى أدباؤنا من استعمالها فى آثارهم الفكرية والأدبية .

* * *

تلك كانت جهود الجريدة فى الأدب شعره ، ونثره ، وتاريخه ، ونقده . وهى جهود تدل على اتجاهات جديدة للأدب المصرى من حيث الإنشاء ، ومن حيث الوصف معاً .

فأما من حيث الإنشاء فقد رأينا الأدب المصرى ، نزاعاً إلى التحرر من

---

(١) الجريدة فى ٢٠ مارس ١٩١٢

(٢) الجريدة فى ٣ مايو ١٩١٣

قيود البلاغة القديمة ، والتحرر من الأفكار القديمة ، والموضوعات القديمة التي كان يسبح فيها الشعراء . ومن ثم كثر الإنتاج الأدبي في موضوع الطبيعة ، وموضوع التأملات ونحوهما .

وأما من حيث الوصف وهو ضربان : التاريخ والنقد فقد لاحظنا بدء نهضة جديدة في فهم كلمة النقد ، وفهم الغرض منها . وقد كان نقادنا في تلك الفترة يدركون جيداً أن النقد نوعان : ذاتي ، وموضوعي . فالذاتي هو عبارة عن الملاحظات الشخصية للناقد، أو هو عبارة عن شعوره الخاص نحو أثر من الآثار الأدبية مهما كان نوعه وصورته . والموضوعي من النقد هو عبارة عن القواعد أو الأصول التي اصطلح عليها القدماء ، واتخذوها أساساً لهم في معرفة الجيد من الكلام ورديئه . هذا كله في النقد .

أما في التاريخ الأدبي فقد كان من طلائع المؤرخين في تاريخ مصر الحديث ثلاثة وهم : مصطفى صادق الرافعي ، وجورجي زيدان ، وأحمد السكندري . ولم يسلموا جميعاً من النقد ، وإن كان أولهم وهو الرافعي أكثر تعرضاً له .

على أن هذا النقد في ذاته كان حركة مباركة نشطت فيها العقول ، وانطلقت الألسن ، وتشعبت الآراء ، وكان من ثمرة هذا كله الوصول بالدرس الأدبي في الجامعة إلى درجة عالية ظهر صداها في الجامعة الحديثة ، وذلك على أيدي الرعيل الأول من أساتذة هذه الجامعة الأخيرة . ومنهم طه حسين وأحمد أمين .

الفصل التاسع

أسلوب لطفى السيد

كان ابن العميد يقول « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » . ونحن نقول « مقالات لطفى السيد تعلم العقل أولا والصحافة والسياسة بعد ذلك » .

والحق اننا مع هذا الكاتب بإزاء عقل من العقول الكبيرة التى انتفعت بها مصر ، وما زالت تنتفع بها إلى اليوم . فعلى يديه تخرج جيل من المصريين كان له أعظم الأثر فى نهضتهم وتقدمهم فى مجال السياسة والأدب والفكر والاجتماع .

ولئن كان على يوسف هو الرائد الأول للصحافة المصرية الحديثة ، وكان مصطفى كامل هو النبى الحق للوطنية الصادقة الكريمة ، فإن لطفى هو رسول هذه الأمة للثقافة الجامعية منذ أوائل القرن الذى نعيش فيه : دعا إليها بكل قوته ، وأخلص فى دعوته اخلاص الطهطاوى فى الربع الأول من القرن الماضى للثقافة الأوربية . كما دعا لطفى السيد مع هذا إلى احترام العقل البشرى . وجاهد فى سبيل وقايته من جميع الآفات الضارة به ، حتى لا يجد للإنسانية أفكاراً سقيمة ، أو معانى سخيفة ، أو نظريات تشكو النقص والاعوجاج والانحراف عن جادة الصواب .

ولم يكن لطفى من المؤمنين بالطفرة . بل كان يؤمن بالتطور الذاتى للأمة ، فجاء أسلوبه ملائماً لهذه النظرة : عليه طابع الهدوء والتفكير العميق ، وبه صبغة من التجديد تتفق وفكرته عن التطور الذاتى للأمة .

ومن ثم كان الفرق عظيما بينه وبين صاحب اللواء فى الأسلوب الصحفى .

ثم لم يكن لطفى رجلا ضحل الثقافة ولا ضيقها ، وإنما كان واسع العلم بالثقافتين الشرقية والغربية ، وذلك فضلا عن كونه من عشاق اللغة العربية ، ومن هنا كان الفرق عظيما كذلك بينه وبين صاحب المؤيد . كلاهما يؤثر الأسلوب الهادىء المنطق. ولكن أحدهما وهو على يوسف يصدر فى أسلوبه عن ثقافة أزهرية لم يدخلها دم أجنبي من ثقافة أوربية . وأما الثانى — وهو لطفى السيد — فهو كالجاحظ تتمثل فيه ثقافات مختلفة ، وعقول مختلفة .

على أن بين صاحب المؤيد ، وصاحب الجريدة فروقا أخرى : فهما وإن اتفقا فى الأخذ من واقع الحياة العامة ، فإنهما يختلفان بعد ذلك فى طريقة الأخذ منها . ولهذا السبب كانت (المصرية) أوضح وأعمق فى أسلوب لطفى منها فى أسلوب صاحبه . بل إن المصرية لم تزل هدف لطفى السيد فى جميع مراحل جهاده ، وبقيت على الدوام مصدر وحيه وإلهامه . وكانت قاعدة التفكير عنده فى كل ما يتصل بالمجتمع ، أو السياسة ، أو الأدب ، أو اللغة .

وهناك فرق بين صاحب الجريدة وصاحب مصباح الشرق — وهو إبراهيم المويلحى . وإنه لفرق أكبر من الفرق بين المدرسة الثالثة التى يعتبر لطفى من خير تلاميذها ، والمدرسة الثانية التى كان المويلحى خير من يمثلها فى أواخر القرن الذى مضى — نقول أكبر من الفرق بين هاتين المدرستين لأن المويلحى كان يمثل القمة التى سمت اليها المدرسة القديمة فى الترسل الصحفى الذى يمتاز بالزينة والزخرف . بينما كان لطفى يمثل القمة التى سمت اليها المدرسة الحديثة فى الترسل الصحفى الذى يمتاز بالبساطة والوضوح وحرية التعبير القائم على التعقيل الصحيح . ومعنى هذا كله أن المقالة الصحفية — على النمط الحديث — بلغت ذروتها تقريباً على يد لطفى السيد ، ووصلت قرب نهايتها عنده . وهنا يجمل بنا أن نقف قليلا لنتحدث حديثاً موجزاً عن (فن المقالة الصحفية) .

سبق لنا فى نهاية الجزأين الأولين من أجزاء كتابنا (أدب المقالة الصحفية

فى مصر) أن أشرنا إشارة عابرة إلى أصول هذا الفن ، وحاولنا التفرقة بينه وبين الفنون الأدبية الأخرى . وأذكر أنى قلت فى ذلك إن المقالة الصحفية ليست موضوعا إنشائياً كالذى يكتبه الطلبة فى المدارس، ولا بحثاً علمياً كالذى يكتبه الأساتذة وطلابهم فى الجامعات ، ولا محاضرة ، ولا مناظرة ، ولا قصة أو نحو ذلك . إنما المقالة الصحفية أفكار وخواطر يتلقفها الكاتب الصحفى من المجتمع الذى يحيط به . وليس من الضرورى أن تكون هذه الأفكار مهضومة فى نفس صاحبها . بمعنى أن المقالة تنشر فى الصحف أشبه شىء بالقصيدة الغنائية التى لا حظ لها من الترادف المحكم . فكما أن الشاعر الغنائى يطلق نفسه على سجيتها ، وينتقل بالسامع من طائفة من المعانى أو الخواطر إلى أخرى، وكثيراً ما يكون ذلك على غير نظام معين ، فكذلك الأديب كاتب المقالة الصحفية يعرض أفكاره وآراءه ومشاعره على هذا النسق ، وبنفس هذه الطريقة .

والانجليز يطلقون على المقالة كلمة Essey ومعناها (محاولة) أى أنها شىء غير مكتمل — شىء يشبه المذكرات الخاصة ، أو اليوميات المتناثرة . وعلى القارىء دائماً أن يكمل ما بالمقالة الصحفية من نقص ، كما على سامع القصيدة الغنائية أن يفعل ذلك عند سماعه كل بيت من الأبيات التى تتألف منها .

وفن المقالة الصحفية بهذا المعنى إنما هو فن التعليق . وهو فن حضرى خالص، إذ هو يأتى متأخراً فى الحضارة، بعكس الشعر فإنه أول الفنون الأدبية ظهوراً فى العالم .

وفى المقال الصحفى نرى الكاتب يعلق على أحداث جرت ، وسمع الناس بها ، وكتب عنها فى الصحف ونحوها . وغالباً ما يفرض الكاتب فى القراء أنهم قد اطلعوا على هذه الحوادث وسمعوا بها وأنهم لا ينتظرون من الكاتب الصحفى إلا أن يحدثهم عنها ، وكأنما يتحدث بلسان القراء جميعاً .

والجماعات البشرية كالأفراد لا غنى لها مطلقاً عن الرجال الذين يتغنون

مشاعرها وعواطفها ، ويسجلون لها أعمالها ومآثرها ، ويعبرون لهاعن آرائها وأفكارها المختلفة . وقد كان هذا الغناء قصائد فى البيئات المتبدية القديمة ، فأصبح هذا الغناء صحافة فى البيئات المتحضرة الحديثة .

ومن ثم انقسمت المقالة من حيث هى إلى نوعين :

(أولها) المقالة الذاتية أو الشخصية ، يعبر فيها الكاتب عن آرائه الشخصية بحرية تامة ، ثقة منه بأن ما كتبه يعتبر مرآة صافية يرى فيها القراء أنفسهم وأفكارهم وخواطرهم .

(وثانيهما) المقالة الموضوعية . وفيها يأخذ الكاتب نفسه بموضوع معين، لا يحاول الخروج عنه أو الجرى فيه وراء أحاسيسه الخاصة ، كما يفعل صاحب المقالة من النوع الأول .

وقد كان يمثل النوع الأول منهما فى الأدب الأوربى الكاتب الفرنسى مونتانى (١٥٣٣ — ١٥٩٢) . كما كان يمثل النوع الثانى فى الأدب الأوروبى كذلك الكاتب الانجليزى بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) .وكان كلا الكاتبين السابقين يؤمنان بحرية التعبير وتعقيل التفكير . وبقى الحال على ذلك حتى ظهر (ديفو) الكاتب الانجليزى فى القرن الثامن عشر ، وكان أول من وضع بذرة المقال الصحفى فى انجلترا . وفاض أسلوبه حيوية وإشراقا ، وامتاز صاحبه بالقدرة على مخاطبة رجل الشارع . وهو القائل : إذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت إنه الذى إذا تحدثت به إلى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافاً عظيما فى قدراتهم العقلية — خلا البله والمجانين — فإنهم جميعاً يفهمون ما أقول .

وكان من كتاب القرن الثامن عشر الكاتب الانجليزى أديسون Adisson . وقد جمع بين الفلسفة العقلية وإجادة الأسلوب الصحفى ، كما يبدو ذلك من مقالاته الكثيرة فى صحيفة Spectator ثم هو كاتب أخلاقى كان يهدف دائماً إلى التعقيل فى كل شىء . فوجه الصحافة وجهة منطقية عقلية ، وامتاز بأسلوب المحادثة ،

وهو الأسلوب الذى يشف عن شخصية كاتبه وروحه ويتحدث إلى القارىء بصراحة صديق يجلس إلى صديق .

وعندى أن الشبه عظيم بين هذا الكاتب الانجليزى والكاتب المصرى لطفى السيد . فقدعقل كل منهما عصر التنوير ، كما عقل كل منهما طريقة الكتابة فى الصحف .

* * *

ونعود إلى ما كنا فيه من أن لطفى السيد تلميذ من تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة . وهنا أحب أن ألفت النظر إلى أنه لا ينبغى أن يفهم من لفظ (مدرسة) أنها تضم كتاباً أو أدباء لهم جميعاً طابع معين ينبغى أن ينطبع به جميع أفراد هذه المدرسة انطباعا دقيقاً بحيث يصبحون متشابهين كنسخ الكتاب الواحد

كلا ، لا ينبغى أن نفهم هذا المعنى . فإن للمدرسة الواحدة طابعها ، ولكن لكل فرد من أفراد هذه المدرسة أصالته وشخصيته التى تميزه عن غيره من تلاميذ المدرسة التى ينتمى اليها .

وإذا قلنا إن المدرسة الحديثة فى الصحافة بدأت بالسيد على يوسف ، ومن تلاميذها مصطفى كامل ولطفى السيد ، فمعنى ذلك أن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة صورة تميزه ، ولو لم يدل على شخصيته وينادى بأصالته . ولعل فى الإشارة إلى بعض الفروق السابقة بين لطفى السيد وكل من على يوسف ومصطفى كامل ما يدل دلالة قاطعة على صدق ما نقول .

وإذن — فما هو الطابع العام لصحافة لطفى السيد . وما الخصائص الفنية لأسلوبه فى الكتابة الصحفية ؟ وما الصلة بينها وبين ثقافته وخصائصه العقلية والخلقية ؟

تلك هى الأسئلة التى اعتدنا الإجابة على أمثالها بالقياس إلى كل رجل من رجال الصحافة الذين قدمناهم من قبل إلى القراء . وهى بعينها الأسئلة التى

نجيب عنها بالقياس إلى لطفى السيد كصحفى نابه من هؤلاء :

إذا قلنا إن لطفى السيد رجل ذو عقلية فلسفية ، وإنه ذو ثقافة قانونية سياسية أدبية تاريخية ، وإن نفسه أكثر ميلا للتأمل منها للتمرد أو الثورة فقد قلنا كل شيء عن أسلوب هذا الكاتب ، أو طريقته فى الكتابة . إذ لا بد لهذه الطريقة من أن تتميز بصفات معينة منها :

(أولا) صفة الواقعية . ولطفى يميل إلى هذه الصفة وإلى التحليل والتعليل فى كتابة المقال . فلا يعتمد فيه على التهييج وإثارة الخواطر ، وإنما يعتمد فيه على حسن تذوقه طعوم الحوادث اليومية أو الدولية . كما يعتمد على الشواهد العملية ، والتقارير الرسمية وغير الرسمية ونحو ذلك . ومن ثم تشف مقالته دائما عن عقلية منظمة حقاً ــ عقلية عالم أكثر منها عقلية كاتب من كتاب الأدب أو الصحافة .

تراه يعمد إلى الحوادث التى تصل إلى علمه ، فيحللها فى نفسه تحليلا دقيقا وينفعل بها انفعالا عقليا لا عاطفيا ــ إن صح هذا التعبير . وهو فى تحليله وتعليله لا يصطنع لغة تروق القارىء بحلاوتها من حيث الجرس ، أو الصياغة وإنما تروقه من حيث الدقة فى الشرح ، والايجاز فى العبارة .

وصاحب الجريدة فى هذه الصفة أكثر شبها بصاحب المؤيد ولكنهما يفترقان فى أكثر الخصائص الفنية بعد ذلك . لا نكاد نستثنى من هذه الخصائص غير اثنتين وهما : شيوع المنطق فى الكتابة ، ومساواة اللفظ بالمعنى فى الترسل .

(ثانياً) شيوع المنطق فى الكتابة . وليس المنطق الذى يصطنعه لطفى السيد من ذلك النوع الذى نجده عند صاحب المؤيد ، لأن صاحب المؤيد لم يدرس شيئاً من الفلسفة ، فى حين أن لطفى السيد درس كثيراً منها . ولذا نجد آثار هذه الفلسفة واضحاً فى أسلوب صاحب الجريدة : فى هذا الأسلوب كثير من ألفاظها ، مثل ألفاظ الجوهر ، والعرض ، والكيف والكم ،

والقياس المنطق ، والدوران المنطق كذلك ثبوتاً ونفياً ، ووجوداً وعدماً ، ونحو ذلك . وفى أسلوب صاحب الجريدة من خصائص الفلسفة فى التعبير استخدام المقدمات والنتائج ، والتحليل ، والتعليل ، والاستقصاء والاكثار من الأدلة والشواهد ، والصور الذهنية ؛ يأتى بها الكاتب الفيلسوف لغرضين اولها التأثير على نفس القارىء . وثانيهما قيام هذه الصور والشواهد قيام المقدمات التى يبنى عليها الكاتب نتائجه .

والحق أن الجهد الفكرى الذى يبذله لطفى السيد فى مقالاته ، ولا يشعرنا به بعد ذلك متغلب على الجهد البيانى فيها ، وأن التركيب المنطقى للشواهد ، والحجج ، والشواهد اليومية ، والأخبار التاريخية متغلب كذلك على الترتيب الفنى للعبارة . ولقد كان من مظاهر الثقافة الفلسفية التى صدر عنها صاحب الجريدة أيضاً ولعه بالاقتباس أحياناً — وهو قلما الاقتباس من حيث هو — من أقوال الفلاسفة خاصة ، لا من أقوال الكتاب أو الشعراء ولا من آيات القرآن أو الحديث ، ولا من كلام العرب القدماء ونحو ذلك . ومن ثم كان استشهاد الكاتب بهذه المواد الأخيرة بالغا غايته فى الندرة ، سواء كان ذلك فى مقالاته السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الأدبية .

(ثالثا) مساواة اللفظ بالمعنى . وهى الصفة التى قلنا أنه يشترك فيها مع على يوسف . وهى صفة تلزم الكتاب الواقعيين من أمثالهما . وهى للفلاسفة وأصحاب المعانى أشد لزوما .

والدليل على شيوع هذه الصفة فى كتابة لطفى السيد أننا لا نستطيع أن نقوم باختصار عباراته ، ولا نجد من السهل علينا فى أغلب الأحيان أن نلخص كثيرا من معانيه وآرائه . لأننا إذ نعبر عنها لا نستخدم عدداً من الألفاظ أقل من عدد ألفاظه هو ، ولا طريقة مرتبة مبسطة خيرا من طريقته هو .

من أجل ذلك قلما يسهب لطفى السيد إلا فى مواطن الشرح أو السخرية . ولا يطيل فى العبارة إلا حين يشعر بجدة الموضوع على القراء . ولقد كان من نتائج ذلك أن كاتب الجريدة يعتبر أقل تلاميذ المدرسة التى ينتمى اليها

اصطناعا للغة الخطابة . بل نحن لا نعرف له موقفاً خطابياً إلا فى المساجلات الصحفية ، والمقالات التى كتبها عن المجالس النيابية . ولا نكاد نعرف له لهجة خطابية واضحة كل الوضوح إلا فى مساجلة له مع صاحب المؤيد فى (توديع اللورد كرومر). وفيها يقول :

« رحماكم يا أرباب الأقلام — لا تغرروا بهذه الأمة التعيسة ، ولا تكونوا للزمان عوناً عليها . وأخلصوا لها النصح ، وذروها فى هذه الفترة هادئة تتكون قوتها من الباقيات الصالحات ، لا من الكلمات الطائحات . أعطوا العقول حقها من حرية الفكر ، والألسن قسطها من حرية القول ، والنفوس أمرها من الجرأة الخ » .

ذلك أن الخطابة — وهى فن الإقناع — إنما تقوم فى أكثرها على الهياج والثورة وكاتب الجريدة ليس ممن يحسنون الهياج والثورة . فجاء أسلوبه غزيراً فى مادته غنياً فى أفكاره ؛ ولكنه أبعد ما يكون فى الوقت نفسه عن الإسهاب ، والإطالة ، واللف ، والدوران ، والتكرار ونحو ذلك من الأمور التى تميز الخطابة .

(رابعا) قلة احتفال الكاتب أحياناً بربط الجمل بعضها ببعض فى المقالة . وإنه ليخيل إلى القارىء فى هذه الحالات حين يقرأ لكاتب الجريدة أنه يقرأ مقالا على النسق الأوربى فى الكتابة . وأعجب من ذلك أن أكثر ما يكون عدم الربط فى مقالاته الأدبية قبل مقالاته السياسية . وأكبر الظن عندى أن هذه الصفة من صفات الأسلوب أتت من ناحيتين :

أولاهما — اشتغال لطفى السيد بالمعانى ، وترتيبه إياها فى ذهنه بطريقة خاصة . فإذا راح يكتبها لم يحاول أن يربط بعضها ببعض بأدوات الربط المعروفة فى اللغة العربية ؛ اكتفاء منه بأنها إنما رتبت على الورق بنفس الترتيب الذى كانت عليه فى ذهنه وقت كتابتها والثانية — تأثره بنظام العبارة الأوربية ، وتأثره كذلك بالثقافة القانونية . وكلا الأمرين السالفين قد يورثان الكاتب قلة احتفائه بحروف العطف على اختلافها ، مع غنى اللغة العربية فى هذه الناحية ، وعناية بلغائها بها ، حتى قال الجاحظ :

« قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال هي معرفة الفصل والوصل » .

وللقارىء أن يراجع مقالات لطفي السيد الأدبية فى ذلك ، ومنها مقالته بعنوان : جنى القطن [١].

(خامساً) الأسلوب الثقافى [٢] . ونعنى به الأسلوب الذى يدل على ثقافة كاتبه . ورب قائل يقول : وأين الأسلوب الذى لايدل على صاحبه من هذه الناحية ؟ ولكننا نقول : إن أسلوب صاحب الترجمة يطالع القراء دائما بهذه الثقافة الواسعة ، ويشعرهم كذلك بأن جانبا كبيراً من آرائه وعباراته ليس إلا ثمرة جهد كبير فى الدرس والمطالعة . وليس الأمر كذلك عند غيره من كتاب الصحف عادة . لا نكاد نستثنى منهم غير الطبقة التى تميزت بالأسلوب الأدبى الرفيع ، والتى منها أديب إسحق وإبراهيم المويلحى ومن حذا حذوهما . فإن هذه الطبقة تشف آثارها عن تعمقها فى الدراسات الأدبية الخالصة كما رأينا.

ولعل من مظاهر الاسلوب الثقافى أحياناً ميل صاحبه إلى الاقتباس من الكتب . ولكننا ذكرنا أن لطفى السيد لا يأخذ من معين الأدب العربى إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وأنه يأخذ خلاصة طيبة من معين الادبين اليونانى والاوربى ، يزين بها العبارة التى يكتبها فى الصحف . فكأنه يعنى دائما بالفكرة من حيث هى . وقلما تعنيه القوالب التى وضعت فيها هذه الفكرة .

وصاحب الجريدة فى هذا الأخذ — على أى صورة من صوره — مخالف لأستاذ مدرسته — وهو السيد على يوسف — كل المخالفة . فقد كان هذا الكاتب من الكتاب الذين لا يتسلقون على كلام غيرهم ، ولم يعرف عنه — إلا فى القليل النادر كذلك — أنه اقتبس فى كتابته شيئاً من الأدب العربى

(١) الجريدة فى ٢ من أكتوبر ١٩١٣ — والتأملات ص ٢٧ وفى الكتاب الذى بين يديك ص ٧١ .

(٢) كلمة « الأسلوب الثقافى » يغلب ألا يكون لها وجود فى كتب النقد . وربما استخدم النقاد مكانها كلمة « الاسلوب العملى » ولكن ليست هذه الكلمة الأخير هى لعينيها مفقود الكلمة السابقة . ولذلك آثرنا هذه الكلمة السابقة بالاستعمال .

الذى يعرفه ، ولا شيئاً من الأدب الأوربى الذى يجهله . أما لطفى السيد فقد طغت عليه ثقافته، ولم يستطع فكاكا منها، ومن ثم أفاد من أفكارها وآرائها، واستشهد فى بعض الأحيان بعبارات من كلام الفلاسفة : كسبنسر، ومونسكيو، وجان جاك روسو ، وتولستوى ، وغيرهم . ولم يكتف صاحب الجريدة بهذا بل مال كذلك إلى الاخذ من فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان . وكل هؤلاء من علماء السياسة والاجتماع . وليسوا من رجال الادب أو الصحافة .

على أن الباحث يشهد لصاحب الجريدة أنه لم يسمح لنفسه قط ان يكون عبد لواحد من هؤلاء فى رأيه، ولا تابعا له فى فكرته، إلا متى أيقن بصحة هذا الرأى أو الفكرة . وإلا فإنه كان يحترم نفسه ، ويناقش الرأى الذى يستشهد به مهما كان مصدره ، ومهما عظمت قيمة قائله .

من أجل هذا كنت ترى لطفى السيد فى بعض الاحيان يبدأ مقالته ، أو يبدأ الفقرة الهامة فى مقالته بكلمة لاحد أولئك الفلاسفة . فإما وافقه عليها وقوى حجته بها . وإما ناقضه فيها ، واعتمد فى هذه المناقضة أيضاً فى تقوية حجته . والامثلة على هذا كثيرة لاحصر لها . منها أخذه من مكيافللى هذه الكلمة :

«من البعيد أن تكون رغبات الامة فى تحرير نفسها مضرة بها فى حريتها. لان هذه الرغبة إنما تتولد عن الاضطهاد ، أو الخوف من الاضطهاد» .

كما أخذ عن سيسرون قوله :

«مهما كانت الامة فى أعماق الجهل فهى قابلة لفهم الحقيقة ، وراجعة اليها بسهولة متى كشف لها عن هذه الحقيقة رجل أهل لثقتها » .

واقتبس من مكيافللى كذلك قوله :

« إنه لا خوف على الامة من الرغبة فى تحرير نفسها . وكل حركة من جانب الامة نحو استجماع كمالها الخاص سعد وسلام لها فى حريتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية » .

واستشهد فى إحدى مقالاته بعبارة للكاتب الفرنسى تين Taine ، قالها فى سنة ١٨٥٣ ،وهذا نصها :

« إن كان فى فرنسا سبعة ملايين من الخيل ، فإن لهذه الخيل الحق فى التصرف فيما تملك . ومثل هذه الأمة — مهما كان مقدار الانحطاط فيها — خير نظام للحكم فيها هو النظام الذى يناسب درجتها من التمدن » .

وكتب مرة يقول :

« أقول ما قال بعض المفكرين : إن سلطة الأمة ليست كبقية الحقوق . فلا يجوز لها أن تتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرفات . ليس لها أن تتنازل عنها ، ولا عن بعضها ، بمقابل أو من غير مقابل ، لأن كل عهد من هذا القبيل باطل بطلاناً أساسياً » .

إلى غير ذلك من الأقوال والآراء التى اقتبسها من أرسطو وأفلاطون وسبنسر وروسو وهيجو وتولستوى وجوستاف لوبون وغيرهم .

(سادسا) إيثار التراكيب المصرية بالاستعمال،واستخدام الألفاظ الشعبية فى بعض الأحيان . وقد تكون هذه الألفاظ الشعبية أجنبية أوربية ،كلفظ (فابريقة) و (ماكينة) و (مودة) و (أوتوموبيل) و (بنطلون) ونحو ذلك .وثم ألفاظ أوربية لا تعرفها العامة ، وإنما تعرفها الخاصة كثر ورودها كذلك فى مقالات لطفى السيد ، مثل (الليبرالزم) أى مذهب الحربين الذى تقدم ذكره ولفظ (البانسلاميزم) أى الجامعة الإسلامية ونحو ذلك .

أما التراكيب المصرية التى شاعت فى أسلوب لطفى السيد فكثيرة . منها على سبيل المثال :

« لم تبرهن حكومتنا الاستبدادية إلى الآن على أنها تريد مساعدتنا على وقتنا الاجتماعى والاقتصادى الخ» .

فانظر إلى قوله « مساعدتنا على وقتنا » فهو تركيب مصرى خالص ، ولا صلة له — فيما نعلم — بالعربية الخالصة .

وأنظر إلى قوله فى كلامه عن مذهب الحرية :

« مذهب الحرية مذهب مؤلف من طبائع الإنسان . فهو أحسن ضمان للحكومة وللأمة فى وقت معاً . أما المذاهب الأخرى فالاعتماد فيها على القوة والإكراه . وهيهات أن يحب المرء الحكومة (بالنبوت) . »

وأنظر إلى قوله فى نقد سياسة الوفاق :

« فما كان لأحد أن يظن بحق أن هذا الإصلاح الجديد — إصلاح الأزهر — عينة لترقى الحكومة الشخصية فى معاملة الأمة » .

وقال فى موضع آخر :

« ونتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال ، وتراخ فى مفاصل الحركة الوطنية المصرية » .

« انظر إلى قوله (عينة) وهو لفظ مصرى بحت ، بل ربما كان شعبياً بحتاً كذلك . وأنظر إلى قوله (تراخ فى مفاصل الحركة الوطنية) فهو تركيب يوشك أن يكون شعبيا مصريا كذلك .

وفى نقده اللورد كرومر يقول لطفى السيد :

« هكذا سبح كرومر فى بحر من الانتقاد من غير عوامة ، سوى المستر ستانلى لين بول الذى تعلم منه أن الدين الإسلامى كنظام اجتماعى أخفق كل الإخفاق » .

فانظر إلى قوله (عوامة) . وإن كان من قبيل الترشيح فى صورة هذا التشبيه الذى شبه به كرومر فى انتقاده إلا أنه أكثر دورانا فى لغتنا اليومية حتى أصبح من حق العامة .

وانظر إلى قوله :

« يدعون — وهم خمسة ستة فى مصر وانجلترا — إنهم يعلمون مصلحة الأمة أكثر مما تعلمها هى الخ » .

ففى هذه العبارة قوله (خمسة ستة) ، وهو بدل غلط كثيراً ما يستخدم فى لغتنا المصرية العادية ولا نكاد نراه فى اللغة الفصيحة .

وبنفس الطريقة التى استخدمها الكاتب فى عباراته السابقة وجدناه يبدأ مقالة له بعنوان (أبناؤنا وبناتنا) فيقول :

« الله يقطع التمدن إذا جاءت من تحت رأسه قلة النسل » الخ . .

فقوله (الله يقطع التمدن) وقوله (جاءت من تحت رأسه) تركيبان مصريان حظهما من العربية قليل جداً .

ألا ما أشبه صاحب الجريدة فى هذا الصنيع بشاعرنا المصرى القديم (بهاء الدين زهير) ؛ فقد كان له مذهب شعرى معروف ، آثر فيه الألفاظ الشعبية ، وترقى بها إلى مستوى الشعر ، ولم يتأب من استعمالها كما يتأبى الكثيرون من المحافظين إلى اليوم .

(سابعا) شيوع السخرية الهادئة . وهى سخرية ليست من النوع الحزين الذى عرفناه عند مصطفى كامل ، ولا من النوع العنيف الذى عرفناه عند المويلحى . ولكنها سخرية تنم عن ابتسامة خفيفة على شفة كاتبها . وهى فى نظرنا غاية ما تطلبه من المقالة التى تنشر فى الصحف . لأن قارىء الصحيفة يقرؤها على مائده الإفطار ، أو على مائدة الغداء ، ويمسك بها فى بعض أوقات الفراغ ، وقد يتصفحها فى طريقه الى عمله . وهو فى جميع هذه الأوقات غير مستعد للانفعالات النفسية العنيفة التى يثيرها الكتاب المنفعلون انفعالا شديداً بالحوادث العامة . وإذا كان ولا بد من إثارة القراء فليكن ذلك عن طريق الأخبار . إذ أن الجماهير لا غنى لها عن هذه الإثارة بهذه الطريقة فى أوقات قليلة من حياتهم .

ولم يسخر لطفى السيد فى صحيفته من شىء قدر ما سخر من الحكومة الاستبدادية التى لا ترعى مصالح الشعب، ولا تفكر فى طريقة ارتقائه الى مستوى الأمم المتحضرة الخليقة بنعمة الحرية ، ونعمة الدستور ، ونعمة التربية والتعليم ونعمة التمتع بالحقوق العامة .

ومن ذلك أنه دعا الحكومة المصرية إلى تيسير دخول الحدائق العامة للفقراء من الجمهور المصرى بالمجان . فقال :

« إننى أؤكد لأنصار حكومتنا الشخصية أن فتح أبواب الجنينة للفقراء لايترتب عليه الجلاء ، ولا ينتج عنه إعلان الدستور ، ولا تزيد سلطة الأمة مثقال ذرة ، ولا يجر إلى تحقيق أمر من شأنه أن يهدد الحكومة الشخصية فى شىء يعز عليها ، ولا يترتب عليه الا ظل من تحقيق المساواة التى يدعونها ، وراحة الفقراء الذين هم عيال الله » .

وسخر الكاتب من تلك الفكرة التى أتى بها كرومر يوما ما ؛ وهى فكرة مجلس التشريع الدولى ، فقال فى هذه السخرية :

« ولا ندرى هل يكون الأمر وقتئذ فى هذا البلد — بلد العجائب — أن يسوى بين المصرى والأوربى فى الحقوق ، أو — تنقلب الامتيازات من كونها امتيازات للأوربيين إلى كونها امتيازات للمصريين البيض — يريد النزلاء الأجانب — على المصريين السمر — يريد المصريين الحقيقيين —[1].

وانظر إليه فى مقال له بعنوان : نحن والاستقلال[2]

كيف يقول :

« فهل نحن الآن من هذا الاستقلال المطلوب على تقدم فى طريقه؟ ومن أى مرحلة نحن من مراحله ؟ أم نحن نتقدم فى طريق الاستقلال خطوات واسعة ولكن إلى الوراء ! » .

وفى مهاجمته اللورد كرومر كتب مقالا آخر بعنوان :

---

(١) الجريدة فى ٤ مايو ١٩٠٧ .
(٢) الجريدة فى ٨ أبريل ١٩٠٨ .

الأنجليز فى مصر [1]

ختمه بقوله :

« إن صح قول هيجو أن اللورد «عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون ، لا يصح أن يكون اللورد عالما بالشريعة الإسلامية بقوة القانون أيضاً » .

ونقد نظم التعليم ، كتب مقالا بعنوان :

سبيلنا إلى الحكم الذاتى [2]

جاء فيه :

«ولا يغلو الذى يقول إن التعليم الحاضر — على ماهو عليه — لا يوصل إلى شيء من سعادة الأمة . وإذا كان لابد من معدات لتلاشى الوحدة القومية ونقد الاستقلال كان التعليم الحاضر خير المعدات لتلك النتائج » .

وانظر الى الكاتب حين سخر من الحكومة اذ أمرت بإطلاق المدافع تحية (لمجلس المبعوثان) فى الوقت الذى رفضت فيه أن تعطى المصريين دستوراً فقال [3]:

« ألا يكون الأمر أن الحكومة بعبت فى إقناعنا بمحبتها للدستور ، وأنه لا يمنعنا منه إلا عدم أهليتنا له ، فأطلقت المدافع — لاحبا فى دستور الترك ولكن لتصم آذاننا وأسماعنا بأنها دستورية بالقوة لا بالفعل . إن كانت هذه فكرتها فنعمت الفكرة ، لأنها تدل على حذق ومهارة لم يظهر إلا نقيضهما يوم الاحتفال بالمحمل الخ » .

(ثامنا) النزاهة فى اللفظ والعفة فى الأسلوب . والحق أننا لا نعرف كاتبا أخذ نفسه بهذه الأخلاق الشريفة فى كتابته كما فعل لطفى السيد . فلا نعلم عنه أنه أتى بكلمة نابية ، أو احتد فى خصومة أو مساجلة . وإن اشترك معه فى هذه الصفة جميع رجال المدرسة الثالثة . ولا غرابة فى ذلك فقد قطعت صحافة هذه المدرسة مرحلة كبيرة من مراحل التطور الصحفى ، أو تطور

(١) الجريدة فى ١٤ أبريل ١٩٠٨

(٢) الجريدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٠٧

(٣) صفحات مطوية ص ٥٠

الأساليب الكتابية. ولعل القراء يذكرون أننا فى المدرسة الصحيفة الثانية كنا أمام شاب حاد المزاج ؛كأديب إسحق ؛ لا يتورع عن الشتم والسباب بأقذع الألفاظ . وكنا فى تلك المدرسة كذلك أمام شيخ هادىء الطباع كالشيخ محمد عبده سرعان ما يفقد هدوءه وحلمه حين يتعرض للرد على ساسة الأوربيين الذين نقدوا الإسلام والمسلمين. وقد كنا فى تلك المدرسة كذلك أمام كاتب ذرب اللسان لاحد لتطاوله على الحكام وغير الحكام كالسيد عبد الله النديم ، وبخاصة فى مقالاته التى كتبها ضد الخديو اسماعيل ، ومقالاته التى كتبها ضد شخصية كبيرة من شخصيات البلاط الحميدى ؛ هى شخصية أبى الهدى الصيادى . وكنا فى تلك المدرسة أيضاً أمام أديب بارع فى الكتابة ، يستخدم براعته فى النيل من خصمه ، مهما علت منزلته ، كإبراهيم المويلحى . كنا فى المدرسة الثانية أمام أولئك الكتاب ، فأصبحنا فى المدرسة الثالثة أمام رجل كعلى يوسف كثير الاحتياط من الإسفاف فى القول ، أو القصد إلى قبح اللفظ. كما أصبحنا أمام رجل كمصطفى كامل فى أدبه ونزاهة لفظه ، وبعده برغم عنفه عن العبارات الجارحة ، أو الكلمات الساقطة . كما أصبحنا أمام رجل كلطفى السيد من أشد أصحابه استمساكا بالعفة فى الكتابة ، والنزاهة فى المساجلة . ولا ريب أن جميع ما كتب هذا الرجل فى الجريدة دليل واضح على كماله النفسى فى هذه الناحية .

وإنا لنحيل القارىء إلى الردود المنطقية الهادئة التى رد بها لطفى السيد على تقارير اللورد كرومر، وسير ألدون غورست، وعلى كتب الأول منهما بصفة خاصة، مثل كتاب (مصر الحديثة) . وفى هذا الكتاب حمل كرومر على المسلمين من الناحية الاجتماعية ، فرد الكاتب عليه بحجج الأوربيين أنفسهم، واستشهد بكلام بعضهم؛ كجان جاك روسو وغيره. كل ذلك فى كلام نظيف، وبعد عن الأفحاش الذى وقع فيه الأوربيون فى ذلك الحين . وانتهى الكاتب من رده على كرومر بهذه النتيجة. وهى أن النظم الاجتماعية للدين الإسلامى لم يكن فيها من القصور ماظنه اللورد . ولكن الضعف قد انتابها أخيراً بسبب الاستبداد

الذى رزح تحته الشرق ، والذى أصبح الناس بسببه يجهلون حقيقة هذه النظم ومبلغ تأثيرها فى العلم وفى الحضارة .

(تاسعا) اعتماد الكاتب على نفسه فى نحت الألفاظ ، وتأليف التراكيب ، وعمل التشبيهات ، وصوغ الحكم . ولا غرو فى ذلك فقد كان كاتبنا من المؤمنين بحرية التفكير والتعبير ، والداعين إلى الاستقلال الذاتى ، والكارهين لأنفسهم أن يكونوا عبيداً لأفكار غيرهم وأساليبهم . فكما كان يفكر تفكيراً مستقلا حين يقتبس من آراء غيره من الكتاب والمفكرين ، وكما كان يمتح من بئر غيره من الفلاسفة أو المشتغلين بالفلسفة ، فكذلك طفق هذا الكاتب يكتب كتابة مستقلة فى (الجريدة) ، ويعبر تعبيراً مستقلا عن فكرته ، ويصوغ الحكمة على طريقته ، ويستوحى فى كل ذلك الرأى الذى يراه بعد طول أناة ، وأعمال فكرة .

وإذا كان لهذا الكاتب أصالته فى الكتابة على هذا النحو ، فمصدر ذلك — كما يقول لطفى السيد نفسه — هو أن للألفاظ والتراكيب حظوظا كحظوظ البشر . فلفظ أو تركيب يكون من حظه الشهرة . ولفظ أو تركيب يكون من حظه الخمول ، ولفظ أو تركيب يموت ساعة الميلاد . ولعلنا نذكر من عبارات هذا الكاتب جملة تلوكها الألسن فى وقتنا الحاضر . وهى قوله يصف المعاهدة المصرية الانجليزية لسنة ١٩٣٦ « بأنها معاهدة قد استنفذت أغراضها » وهى عبارة منذ قالها لطفى السيد ورجال الصحافة والسياسة يصطنعونها إلى اليوم .

وإنا لمكتفون ببعض الجمل التى دارت فى كتابات لطفى السيد مدار الحكم ، وبعض التشبيهات التى صاغها بطريقته الخاصة به ، وبعض العبارات التى هى من وحى عقله ، وصياغة قلمه ، لا من وحى الآخرين ، أو صياغة الأقدمين . ومنها على سبيل المثال فقط :

« إن خير الحكومات ما لا يكون فيها للحاكم مصلحة فى الحكم مطلقاً .

وإن خير الحكم ومصلحته كلها راجعة فى جميع أجزائها إلى المحكومين من غير أن يكون للحكام أنفسهم أدنى منفعة » .

وقال :

«حكومة كل أمة ليست إلا عرضاً من أعراض هذه الأمة . فلا وجود للحكومة الاستبدادية إلا إذا كانت الأمة تروج للاستبداد . ولا شك أن بقاء الباطل إنما هو فى غفلة الحق عنه» .

وقال :

« الحكومة الاستبدادية الصريحة العداء للدستور تستمد قوتها دائماً من ضعف الرأى العام ، ومن نتائج مجهوداتها كل يوم لخنق حرية الأفراد وإبعادهم عن العلم بما لهم من الحقوق السياسية . وهى بذلك لا تتفق والرأى العام إلا فى أمة لا يعرف الفرد فيها لوجوده معنى ، ولا لحياته قيمة ، إلا بالإضافة إلى شخص الحاكم المستبد » .

وقال :

« عندنا أن كل حق بنى على القوة لا يسمى حقاً مطلقاً . إذ القوة تنافى الحق ، بل تناهضه وتهدمه . فلا يصح أن يكون الهادم للشىء موجداً له » .

ومن تشبيهاته قوله :

«إن الذى يريد بناء البيت بناء متيناً ، ويرى شيئاً من الصعوبة أو الإبطاء فى نقل الأحجار الكثيرة اليه لا يسوغ له فى سبيل سرعة الحصول على إتمامه أن يطحن تلك الأحجار ، فيحيلها الى رمل يسهل نقله . لأنه بعد ذلك لا يمكنه أن يبنى بناء متيناً بتلك الأحجار المطحونة . ومثل هذا البانى كمثل الاحتلال البريطانى الذى يستسهل أمامه عاطفة التحكم فى المصريين فى سبيل إصلاح بلادهم ، وتأهيلهم للحكم الذاتى . لأنه متى أصلح مصر — أى أصلح أرضها ، وحالها الاقتصادى والمالى والحربى — والتفت إلى أشخاص يسلمهم هذه المصالح

لم يجد بعد أحداً ، إلا غير الأكفاء المدربين الذين تجردوا بعمله عن الصلاحية للاستقلال» .

وتلك الحكم التي كان يصوغها لطفي السـيد بالطريقة المتقدمة كان كثيراً ما يبدأ بها المقال ، فتحل منه محل المقدمة . وإن من أهم خصائص المقدمة — كما يقول الكاتب الانجليزى دريدون — هو التجوال فى الموضوع بحيث لا تخرج عن الطريق خروجا تاما ، ولا تظل مقيداً فيه دواما . وكذلك كان يفعل مونتانى .

وقد رأينا تشبيهات لطفى السيد تأتى فى غضون كلامه ، ويجتهد الكاتب فى تأليف أجزائها بنفسه غير معتمد فى ذلك على طرائق الأقدمين أو المحدثين فى صياغة التشبيه .

* * *

(عاشرا) إذا كان لا بد من ذكر شىء من المأخذ على أسلوب هذا الكاتب العظيم فثم مأخذ واحد، هو من وجهة نظر الأديب، وليس من وجهة نظر المشتغل بالعلم أو الصحافة .

وهذا المأخذ هو أن أسلوب هذا الفيلسوف قليل الماء ، قليل الرواء ، يعوزه كثير من عوامل التطرية .

ولكن بم يكون الكلام جافا ، وبم يكون رطباً ، ظاهر التطرية ؟

الجواب عن ذلك أن عوامل التطرية كثيرة ومتشعبة :

منها العواطف والمشاعر . فالأديب الجم الشعور يصطنع أسلوبا أقل جفافا من الأديب المقل من هذه الناحية .

ومنها الصور البيانية . فالأديب القادر على الإتيان بهذه الصور مقدم فى نظر الناقد الأدبى على الأديب المنصرف عنها دائما .

ومنها طول النفس فى العبارة . فالأديب المتمكن من فن الحديث ، القادر على التصرف فى هذا الفن تصرفا جيدا أدنى إلى ذوق الناقد الأدبى من الكاتب

أو الشاعر القصير النفس . أو الذى يستخدم قدرا ضئيلا من الألفاظ يديرها فى أسلوبه ، ولا يكاد يستخدم سواها فى الشعر أو النثر .

ومنها الاستشهاد والاقتباس من الآداب القديمة أحيانا ، والحديثة أحيانا عربية كانت هذه الآداب أو أجنبية . فالأديب الذى ينم أسلوبه عن رصيد كبير من هذه الآداب على اختلافها مقدم فى نظر النقاد على الأديب الذى يشف أسلوبه عن فقر مدقع من هذه الناحية .

كل هذه أمور تعمل عملها فى جفاف الأسلوب وفى تطريته ورطوبته .

وبسببها ينقسم الكتاب هذين القسمين المتمايزين :

كتاب لا تعنيهم غير الحقائق يقدمونها فى أوعية من الكلام لا رواء فيها ، ولا حظ لها من ضروب الإغراء أو التحلية .

وكتاب تعنيهم هذه الحقائق . ويعنيهم كذلك أن يقدموها فى أوعية من الكلام ، يسرك منظرها ، ويثير فيك الرغبة الصادقة فى استيعاب الحقائق التى تشتمل عليها .

والذى لا شك فيه أن الأول من هذين الفريقين السابقين هو فريق العلماء والفلاسفة ، ومعهم بعض رجال الأدب أو الصحف . وأما الثانى فهو فريق الشعراء والكتاب ، ومعهم كذلك بعض المشتغلين بالأدب أو الصحف .

وقد رأينا فى لطفى السيد كاتبا ، فيلسوفا من جهة ، معنياً بالحقيقة والواقع من جهة ثانية ، سياسيا تقوم سياسته على قاعدة المنفعة من جهة ثالثة ، مصريا يؤثر التراكيب المصرية على العربية أحيانا من جهة رابعة . فلا غرابة بعد هذا أن يكون أسلوبه متأثرا بهذه الأمور كلها دفعة واحدة ، وأن تأتى عبارته صدى لكل واحد منها على حدة .

والقدماء من النقاد يسمون الأسلوب الخالى من الروائع الفنية (مغسولا) يعنون بذلك أنه محروم من عوامل التطرية أو التحلية ، محروم من العبارات

التى تلفت النظر بجزالتها وفخامتها ، أو بجمالها ورونقها ، أو بألفاظها المنتقاة ذات النغم الحلو ونحو ذلك .

على أن هذه الصفة — وهى حرمان الأسلوب من عوامل التندية والتحلية — صفة يشترك فيها كل تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة . لا نكاد نستثنى منهم غير (مصطفى كامل) فى كثير من خطبه ومقالاته فى الصحف .

لا لشىء إلا لأن هذا الزعيم الكاتب كان يميل إلى تغليب العاطفة على الفعل فى خطبه وصحافته . والعاطفة — كما قلنا — ترطب كلام الكاتب أو الخطيب ، وتحبب الناس فى قراءته أو تتبعه أطول مدة ممكنة .

والمقالات الصحفية كالخطب لا تجود إلا وقت صدورها ، ولا تستحسن إلا فى الظروف التى أحاطت بها . فإذا لم تشتمل على عبارات طنانه ، وجمل أخاذة ، فإنها تفقد عنصراً هاما من عناصر الخلود ، وتكون عرضة كذلك للنسيان فلا يذكر القراء من عبارات الصحف الا ما كان أخاذا من حيث أسلوبه ، أو أخاذا من حيث فكرته .

ولكننا وجدنا أسلوب لطفى السيد يروعنا من ناحية العقل بقدر ما يروعنا أسلوب الزعيم الشاب مصطفى كامل أحيانا من ناحية العاطفة . وقد وقفنا له على طائفة كبيرة من العبارات الرائعة الجميلة بهذا المعنى ؛ أشرنا إليها فى تضاعيف هذا البحث ، وأعجبنا بها فى إخلاص وصدق ، وكنا نردد عندها قول الذى يقول:

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوى العقول

* * *

(والخلاصة) أن أسلوب لطفى السيد يدل على رجل واحد هو لطفى السيد . أى أن الطريقة التى يكتب بها هذا الكاتب طريقة شخصية خالصة يعتمد فيها على تفكيره الخاص ، كما يعتمد فيها على بضاعته الخاصة ، وتشف فى الوقت نفسه عن طباعه الخاصة . ومن أهم هذه الطباع الصراحة البالغة التى كان يواجه بها الحكومة والمجتمع .

أنظر إلى مقال له بعنوان :

الدستور والوزارة (١)

جاء فيه :

« الوزارة فى الحكم المطلق بقاؤها موقوف على رضى السلطة عنها . ونجاحها موقوف على رضى الأمة عنها . وإن وزارة فضلت البقاء فى كراسيها على النجاح فى أعمالها ، واكتفت برضى السلطة عن رضى الأمة لا تستحق اسمها . ولكن وزارة وقفت بين رضى القوتين ، وعملت لمصلحة الطرفين ؛ حتى إذا رأت أن التوفيق بين رضى الأمة ، وبين رضى السلطة أصبح مستحيلا عليها مالت إلى أصلها ، ونزلت عن دست حكومتها ، وانضمت إلى أمتها . تلك هى الوزارة التى من شأنها أن تخفف ويلات الحكم المطلق ، وأن تأتى بالمنافع الممكنة من الحكومة المطلقة التى قل أن تنفع الأمة نفعا يعتد به » .

أرأيت إلى هذا الأسلوب المنطقى المصفى ؟ أرأيت إلى طريقة الكاتب فى التعبير عن المعانى السياسية الدقيقة التى اشتملت عليها ؟ إنها طريقة تمتاز بالقوة والوضوح ، كما تمتاز بالصراحة والصدق ، كما تستند إلى العقل والمنطق ؛ وذلك فى ألفاظ أدنى إلى السهولة ، وتراكيب أقرب إلى الايجاز والبساطة .

* * *

وللكاتب فضلا عن جميع ما تقدم طريقة كتابية يلزمها فى كثير من مقالاته الاجتماعية . وتتلخص فى اعتماده على الصور والشواهد فى سبيل الوصول إلى اقناع القارىء .

انظر إليه حين يتحدث عن التعليم المصرى كيف يحرص على الاتيان بصور ثلاث :

أولاها : صورة التعليم فى الكتاتيب حيث الشيخ الذى يعرف فى القرية المصرية باسم (سيدنا) . « وهو شيخ تدل هيئته على أنه لا يحسن شيئاً ؛ حتى إنه لا يحسن اختيار لون ملبسه الذى قلما تراه يريح نظر الناظر إليه لتخالف ألوانه . فكثيراً ما تكون من الألوان الزاهية المتنافره ؛ كالقفطان الأزرق ، مع الحزام الأحمر ، والجبه الصفراء ، والجوارب البيض ، والنعال الحمر الخ »

(١) الجريدة فى ٣ سبتمبر ١٩٠٨

والثانية : صورة (قسيس) فى مدارس الفرير أو الجيزويت لا تختلف عن صورة (سيدنا) كثيراً . .

والثالثة : « صورة فتى لا يتجاوز العشرين ؛ كل ماضيه فى العلم أنه تعلم على أساتذة ، أكثرهم فتيان مثله . فحصل بعد ذلك على الشهادة الابتدائية . ومنذ حصوله عليها عين أستاذاً فى المدارس الابتدائية[1].

واذا بدأ الكاتب يتحدث عن عيوبنا الاجتماعية بدأ المقالة — كما رأينا — بأمثلة وشواهد على هذا العيب أو ذاك مشتقة من الحياة اليومية .

ثم يمضى فى تعليقه ، وشروحه ، وتحليله ، وتعليله ، ووصف العلاج الذى يقترحه بعد ذلك . وهنا نحيل القارىء إلى الفصل الذى كتبناه عن الجريدة فى الميدان الاجتماعى . وفيه إشارة إلى مقالات ، نخص الذكر منها العناوين الآتية :

(فى الواجب) ، (حدود اللياقة) ، (حدود الطاعة) ، (انكار الذات) ، (الرياء) ، (الشخصية) ، (تربية الذوق) ، (التسامح فى الحقوق العامة) ، (الاستقلال الذاتى) .

* * *

(١) الجريدة فى ١٦ ستمبر ١٩٠٧

خاتمة

وفيها كلمة موجهة إلى رؤساء الصحف

نعم — إنما تقاس أقدار الرجال فى كل أمة من الأمم بمقدار ما يستطيعون تحويلها من طور إلى طور ، ومن عقيدة إلى عقيدة ، ومن حالة أدبية أو مادية إلى حالة أخرى .

وقد شاءت الأقدار لأحمد لطفى السيد أن يكون أستاذاً لمصر فى تلك الفترة التى انتقلت فيها من ظروف القرن الماضى إلى ظروف القرن الحالى ، وأن يقوم على تعليم هذه الأمة عن طريق الصحافة أولا ، وطريق الجامعة بعد ذلك .

فى الصحافة تهيأ للأستاذ لطفى السيد فى « الجريدة » أن يتخذ منها منبراً عالياً يخطب المصريين من فوقه ، ويرشدهم ويوجههم فى ميادين السياسة والفكر ، والأدب ، والاجتماع ، والاخلاق ، والوطنية ، والقومية والتعليم ، والتربية !

وفى الجامعة تيسر للأستاذ لطفى السيد أن يضع الأسس الاول لطائفة من التقاليد الجامعية ، وأن يدقق فى اختيار الأساتذة القادرين على تنشئة جيل يفهم معنى الحرية والفكرية ، والأمانة العلمية ، والرسالة الجامعية .

وهكذا هيأت المقادير لمصر والمصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — طائفة من القادة الصالحين ، كل فى الطريق الذى خلق له : كالسيد على يوسف رائداً وأستاذاً للمدرسة الحديثة من مدارس الصحافة المصرية ، والزعيم مصطفى كامل نبياً وطنياً ، وداعية لا نظير له من دعاة القضية المصرية ، وقاسم أمين مصلحا اجتماعيا يفك الأغلال ، ويحطم

السلاسل ، ويخرج المرأة المصرية من سجنها الذى عاشت فيه قرونا عديدة إلى الفضاء الواسع الذى تستنشق فيه نسيم الحرية ، ومحمد عبده مجاهداً دينياً واجتماعياً يقيم من نفسه مصلحاً للعقائد الدينية ، باذلا فى سبيل ذلك مثل مابذله قاسم فى سبيل المرأة المصرية ، وفتحى زغلول مترجماً وناقلا من أفكار الانجليز والفرنسيين ما يصح أن يكون نبراساً يضىء للمصريين والشرقيين طريقهم إلى المدينة ، وسعد زغلول — بعد هؤلاء الجميع — قائداً للشعب المصرى بجميع عناصره إلى ثورة عام ١٩١٩ ، وهى من أروع ما مر بمصر وبالشرق من هزات شعبية وحركات وطنية .

أما لطفى السيد فقد هيأته الأقدار — كما قلنا — لعمل لا يقل فى سموه وطهارة قصده ، وشمول فائدته عن الأعمال السابقة كلها . وهذا العمل الجليل هو التربية والتعليم .

من أجل ذلك لم نسرف ولم نتزيد حين نظرنا إلى الأستاذ لطفى السيد على أنه فيلسوف هذه الأمة ، والمربى الحقيقى لهذا الجيل والجيل الذى قبله ، وعلى أنه أبو الجامعة المصرية . وهى ذلك المولود الخطير الذى خرج من دم الأمة وأعصابها ، كما خرجت الحركة الوطنية ذاتها على حد تعبير قاسم أمين .

وكان من حظ الجامعة فى ذلك الحين أن تكون فى يد قوية أمينة كيد الأستاذ أحمد لطفى السيد. وهو الرجل الذى هيأته الأقدار للقيام بهذه المهمة، كما قام كل مصلح من المصلحين الذين أشرنا إليهم بدوره فى الحركة القومية . وكان لطفى جديراً بكل صفة من تلك الصفات التى له جدارة كل زعيم من الزعماء المصريين الذين أشرنا إليهم بالصفة التى خلعتها عليه الأمة .

وانظر مثلا إلى الفرق بين مصطفى كامل ولطفى السيد :

كل منهما يهدف إلى الاستقلال التام لهذه البلاد . ولكن الأول — وهو مصطفى كامل — وسيلته الى الاستقلال هى الدعاية لمصر فى جميع البلاد الأوروبية .

أما لطفى السيد فالوسيلة عنده هى تربية الأمة على أخلاق الاستقلال والحرية ، وتهيئتها لممارستهما فى الحياة المصرية .

* * *

ومهما يكن من شىء فنى كلامنا عن نشأة (الجريدة) وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نشير إلى الحوادث القريبة التى حدت ببعض المستنيرين من المصريين إلى التفكير فى إنشاء هذه الصحيفة :

فأشرنا (أولا) إلى الخلاف الذى وقع بين الحكومتين التركية والمصرية حول مشكلة العقبة وذلك فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٣ . وهو خلاف دار حول جزء قريب منها يسمى (طابة) ادعته كل من هاتين الحكومتين لنفسها . ثم تدخلت انجلتره بينهما ، وانحازت فى هذا الخلاف إلى جانب مصر ضد تركيا . ومع ذلك لم يقبل الرأى العام المصرى هذا الانحياز من جانب انجلتره وانتصر يومئذ لتركيا .

ثم أشرنا (ثانيا) إلى حادث فاشودة فى ١٠ فبراير سنة ١٨٩٨ وفيه انحازت مصر إلى جانب فرنسا ضد انجلترة . ودلت بهاتين الحادثتين معا — وهما حادثة العقبة وحادثة فاشودة — على أنها إنما تبغض الاحتلال البريطانى من حيث هو ، وإن أتى لها الاحتلال بأعظم الفائدة !

ثم أشرنا (ثالثا) إلى حادث الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ وهو الحادث الذى بصر المصريين بنوايا المستعمر الأوربى ، ولم يدع مجالا للشك فى فساد الخطة التى سار المصريون عليها إلى ذلك الوقت . وهى الاعتماد من أجل الاستقلال على فرنسا أو تركيا أو غيرهما من الدول الأوروبية .

ثم أشرنا (رابعا) إلى الخطة الحكيمة التى اهتدت إليها الطبقة المستنيرة فى مصر بعد الحوادث السابقة كلها . فقد رأى أفراد هذه الطبقة يومئذ أن تكون لمصر صحف تنطق بلسانها وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا ، أو ميل خاص إلى فرنسا ، أو ميل خاص إلى إحدى السلطتين

الشرعية والفعلية فى مصر . وقد نضج هذا التفكير السليم فى أوائل القرن العشرين . وعبر عنه الشيخ محمد عبده قبل موته عام ١٩٠٥ بما معناه :

« إنه ما دامت هناك صحف تنصر الخديو كصحيفة المؤيد ، وأخرى تنصر المعتمد البريطانى كصحيفة المقطم . فلا بد من صحيفة تحاسب الجهتين معا وتنصر الأمة » .

ولقد أبلى لطفى السيد بلاءه ، وأدلى دلاءه فى كل من الميدان السياسى ، والميدان العقلى أو الثقافى ، والميدان الخلقى والاجتماعى ، والميدان اللغوى والأدبى فى نهاية الأمر .

* * *

(فأما الميدان السياسى) فأشهر جولاته فيه — كما رأينا — جولته من أجل الحرية ، وجولته من أجل الجامعة المصرية لتحل محل الجامعة العثمانية ، ثم جولته من أجل الدستور . وأهم جولاته فى هذا المجال الكبير اثنتان ، إحداهما الشكل الذى عليه الحكومة المصرية ، والأخرى جولته من أجل المسؤولية الوزارية . وقد أحس الكاتب يومئذ كأن (النظار المصريين) فى ذلك الحين بحاجة إلى من يرشدهم إلى المقصود بهذه الكلمة .

وكان لطفى السيد فى كل جولة من تلك الجولات واقعيا بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى . فلم يكن يشتط فى آماله ، ولم يسرف فى مطالبه . وإنما كان يقصر همه على المطالبة بتوسيع اختصاص الهيئات النيابية فى مصر فى ذلك الوقت ، لأنه الجزء الذى يمس حاجة المصريين يومئذ من السلطة التشريعية .

* * *

(وأما الميدان العقلى أو الثقافى) فقد أشرنا فيه إلى مذهب التعقيل الذى صدر عنه أستاذ الجيل فى كل ما كتب فى (الجريدة) ، خاصاً بالسياسة أو المجتمع أو العلم الأخلاق . ثم أشرنا إلى المذهب الذى كان يصدر عنه فى شؤون التعليم بوجه أخص ، فعرفنا كيف أنه أراد أن يبنى التعليم فى مصر على الحرية

المطلقة أولا ، وعلى سد حاجات المجتمع المصرى بعد ذلك .

نادى لطفى السيد بأن يكون التعليم فى مصر من عمل الشعب . فلا يصح فى نظره أن تتدخل الحكومة فى هذا الأمر . بل عليها أن تترك التعليم والزراعة والتجارة وغيرها من المرافق العامة للشعب المصرى يتصرف فيها بما يريد . ولها عليه حق الإشراف الأعلى أو التوجيه من بعيد . فذلك أجدى على الأمة المصرية ، وأدعى إلى الادراك الصحيح لمعنى الاستقلال أو الحرية ، بل إنه خير طريق للخروج بالأمة من دور الطفولة التى تحتاج فيها إلى وصاية الحكومة إلى دور الشباب الذى لا تحتاج فيه إلى شىء من هذه الوصاية .

وفى سبيل ذلك عرض الأستاذ لطفى السيد على قرائه طرق التعليم على اختلافها ومذاهب التربية على تباينها ، ووازن بينها جميعا ، وأشار إلى الأفضل منها بالقياس إلى حالة مصر فى ذلك الوقت . وكان قصده الأول والأخير من كل ذلك هو إصلاح نظم التعليم فى مصر بعد إذ حدد الاحتلال البريطانى أهدافه، وحصر هذه الأهداف فى شىء واحد فقط، هو «الوظيفة الحكومية»..

ولعل أخطر جولة للأستاذ لطفى السيد فى مجال التعليم إنما هى جولته لإرساء قواعد الجامعة ، وبيان رسالة الجامعة ، وتيسر دخول الجامعة للفتاة المصرية ، وذلك فى غفلة من الشعب المصرى والحكومة المصرية ، على النحو الذى أشرنا اليه فى موضعه من هذا الكتاب .

* * *

(وأما الميدان الخلقى والاجتماعى) فقد ظفر من نشاط كاتب الجريدة بما لم يظفر به من كتاب الجرائد الأخرى . ولا غرابة فى هذا . فإن ذهنية الأستاذ لطفى السيد ذهنية فلسفية بطبيعتها . تميل إلى التحليل والتعليل . والمجتمع فى ذاته — كما قلنا — مجال من مجالات الفلسفة والتأمل . ولذلك انصرفت عناية الرجل إلى نقد المجتمع المصرى بأفراده وهيآته وجماعاته ، وبأخلاقه وطباعه وموازينه ، ومعايير ، ناظراً فى أثناء ذلك كله إلى التاريخ المصرى عبر القرون

التى مرّ بها ، والدول الأجنبية التى خضعت مصر لها ؛ متحملة فى أثناء ذلك ظلما ترك فى نفوسهم أثراً لا يمكن أن يمحى ، وأخلاقا من الصعب على المصلحين فى هذه الأمة أن يستبدلوا بها أخلاقا أخرى .

فالمصرى فى عبادته للقوة ، وخوفه من الحاكم فى أية صورة أو هيئة ، وشعوره أحياناً بالضعف وبالذلة ، وقصوره كذلك عن الإتيان بجملة صالحة الآراء الحرة ، لا بد أن يكون متأثراً فى ذلك كله بتلك العوامل القديمة التى نجمت عن الظلم والاستبداد . وعلى ذلك المهمة الصلح الاجتماعى فى بلد كمصر مهمة عسيرة شاقة . إذ عليه أن يزيل من الوجود المصرى تلك الجبال الراسخة من الذل ، والأشباح المخيفة من الجهل ، والميراث الضخم العتيد من العادات التى خلقها الخضوع للظلم .

وذلك ما أحس به لطفى السيد منذ اللحظة الأولى . فآلى على نفسه ليهدمن تلك الجبال ، وليزيلن تلك الأشباح ، وليسخرن من ذلك الميراث العتيق الذى هو السبب الأول فى ضعف المصرى وضعف شعوره بشخصيته المصرية .

وأما مسألة السفور والحجاب من مسائل المجتمع المصرى بنوع خاص فقد شغلت من فراغ (الجريدة) حيزاً كبيراً كما علمنا ؛ ولكن يجب علينا أن نشير هنا إلى شىء من تاريخ هذه المسألة :

فى سنة ١٨٩٩ نشرت (المؤيد) كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين ؛ وذلك فى أكثر من خمسين عدداً من أعدادها اليومية . وفى سنة ١٩٠٠ شهد المصريون ميلاد صحيفة شعبية أخرى كانت تصدر يومياً ؛ وهى صحيفة (اللواء) لصاحبها مصطفى كامل . وكان لها رأى مخالف لما ذهب اليه قاسم أمين ، والسيد على يوسف الذى أباح لصحيفته أن تنشر آراء قاسم الحرة فى موضوع المرأة .

ثم فى سنة ١٩٠٧ كان موضوع الحجاب والسفور قد نضج فى أذهان الكثيرين من أفراد الأمة المصرية . ومع ذلك بقى الرأى فيه موزعا بين طائفتين : منها طائفة ترى رأى قاسم أمين ، وأخرى تصر على مخالفته ، فجاء

لطفى السيد ووقف وقفته المشهورة فى صف قاسم أمين. واشتد انتصاره له وتشبعه لآرائه بعد موته وحرمان الأمة منه ومن أفكاره القيمة .

* * *

(وأما الميدان اللغوى والأدبى) ففيه رأينا الأستاذ لطفى السيد يدعو إلى تمصير اللغة العربية ، لتصبح لغة الكتابة فى الصحف والكتب العلمية والأدبية وينتفع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب المصرى . وقد شاركه فى هذا الجهــد المشكور كل من حسين هيكل وطه حسين ، وكان لهما مع الرافعى مساجلات أشرنا إلى طرف منها .

ولكن ليس معنى ذلك أن لطفى السيد انتصر للعامية على العربية ، أو أنه دعا إلى تجنب استعمال الألفاظ القديمة والأساليب الموروثة كلا — فإن لطفى السيد كان يعرف للعربية جمالها ، ويقدر لها عظم ثروتها بالقياس إلى اللغات الكثيرة من دونها . ولهذا كان يشجع قراءة الأدب العربى القديم وان كان يؤثر الكتابة بالأسلوب العصرى الجديد . ولا ضير عليه ولا على اللغة فى مثل ذلك .

ولكل رئيس تحرير فى صحيفة من الصحف اليومية حاسة يعرف بها كيف يميز بين مقال كتب بلغة أدبية ، وآخر مكتوب بلغة صحفية وتراه يرفض أن يثبت الأول فى صحيفته إلا عند الضرورة ، بينما يتقبل الثانى برضى منه وسهولة . ولطفى السيد من هذا الطراز من الكتاب ، لأنه تلميذ من تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة التى بدأها السيد على يوسف ، والتى قلنا إنها أول مدرسة عرفت كيف تميز تميزاً واضحاً بين لغة الصحف ولغة الكتب أو الأدب .

ثم إن (الجريدة) فتحت صدرها للنابتة من الكتاب والأدباء والشعراء فأخذوا يكتبون فيها آراءهم وأفكارهم وخواطرهم وقصائدهم . واختلفوا فيما بينهم فى هذه الآراء والأفكار . واصبحت (الجريدة) مسرحا لطائفة من المعارك الأدبية التى إن دلت على شىء فإنما تدل على نشاط فكرى ونشاط أدبى هما

من صفات العقد الأول من عقود القرن العشرين ، وهى صفات دلت على اقتراب العقل المصرى من بلوغ الغاية التى بلغها فى منتصف هذا القرن .

وفى مدرسة (الجريدة) تخرج أقطاب الأدب والفكر والسياسة ممن شاركوا مشاركة قوية فى النهضة الأدبية والنهضة الصحفية، وكان بعضهم رؤساء تحرير وبعضهم زعماء أحزاب ، وبعضهم أصحاب مذاهب فى الفكر وفى العلم ، وفى الأدب ونحو ذلك .

* * *

تلك فترة من حياة الصحافة المصرية لاشك أنها فترة ذهبية ؛ كانت فيها صحافتنا خليقة باسم « صحافة الرأى » . وبها ازداد المصريون شعوراً بمطالب العصر ، وعن طريقها آمنوا بفضل الزعامات التى أشرنا إليها فى أول هذا الحديث . ولولاها لما قطعت مصر هذا الشوط . وبدونها ما كانت مصر تتطلع إلى اللحاق بالأمم العظيمة فى ميدان الحضارة على هذا النحو . فليت صحافتنا المصرية الحاضرة تفطن إلى هذه الحقائق كلها . فاننا نجد الصحافة فى أيامنا هذه تقوم فى جملتها وتفصيلها على « الخبر » وحده ، وتهمل — أو تسير فى طريقها إلى إهمال (المقال) جملة . وفى هذا خطر كبير على مستقبلها ، وإن كان فيه محاكاة عمياء للصحافة الأمريكية بنوع خاص . نقول عمياء — لأن الفرق بيننا وبين أمريكا فى الوقت الحاضر يجعل الأمريكيين فى غنى عن توجيه الصحف إن أرادوا ، ولا يحل لنا أن نستغنى عن هذا التوجيه من جانب الصحف إن أردنا .

* * *

على أننا فى دعوتنا الصحافة المصرية إلى العناية « بالرأى » عنايتها « بالخبر » نذكرها بأنها بهذه العناية كلها تصبح جديرة باسمها ، حقيقة بأن يطلق عليها (السلطة

الرابعة) إلى جانب السلطات الثلاث المعروفة ، وهى السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى محاضرة له ألقاها بدار نقابة الصحفيين بالقاهرة (فى ٢٢ مارس ١٩٥٤) ماخلاصته :

« وأكثر من هذا وذاك أننا نجد صحافة الرأى عند أكثر الأمم المتحضرة لا تكتفى بأن توجه الأفكار العامة داخل بلادها . بل تتجاوز ذلك إلى الرغبة فى توجيه الأفكار العامة خارج بلادها » .

« ومصداق ذلك أننا نجد صحافة العالم المتمدن فى وقتنا هذا تحرص على أن يكون لها رأى فى كل شأن من الشئون التى تهم العالم بأسره . كفكرة الحرب ، وفكرة السلم ، وهل الأفضل أن يكون السلام مسلحاً فنشجع الدول على تكوين الجيش الأوروبى ؟ أو الأفضل أن ندعو العالم كله إلى نزع السلاح دفعة واحدة حتى نطرد فكرة الحرب من الأذهان ؟ »

والخلاصة أن الدكتور حسين هيكل يدعو معنا إلى وجود صحافة الرأى فى مصر . ويرى أن واجبها ذو شقين : شق للداخل ، وشق للخارج . ومن الخير لها أن تقوم بهذا الواجب على الوجهين معاً !

على أنه قد يعزينا عن ذلك أن مصر لا تنفرد الآن بالتقصير فى صحافة الرأى . فإن أمريكا ومعها أكثر الدول الكبرى فى أوروبا — خلا انجلترا — تعانى مثلنا هذه (النكسة) التى نتألم لها ونود أن يبرأ العالم كله من شرها . ولعل السبب الأول فى هذه النكسة التى نشكو منها هو الخوف مما يسميه الأمريكيون والأوروبيون « بالخطر الشيوعى » . وهنا نجد الصحف فى أكثر دول العالم المتمدن تتلهف على « الخبر » وتحتاط احتياطاً أكثر مما ينبغى فى كتابة « الرأى » الذى يعقب نشر هذا الخبر . ومن يدرى لعل

الوقت الذى تزول فيه هذه المخاوف كلها يكون أقرب مما يتصور الساسة وكبار رجال الصحف !

. . .

وما دمنا نذكر (الصحافة المصرية) فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وما دمنا نؤرخ لرائد من رواد الصحافة المصرية فى فترة من فتراتها الذهبية فى ذلك الحين ، فإن من الخير أن ننتهز هذه الفرصة التى سنحت لدعوة المفكرين، والمحررين ، وأقطاب الصحافة فى مصر على وجه العموم أن يعود لهم إيمانهم بما للثقافة العميقة من الأثر فى تكوين الصحفى ونضوج الصحفى ، ونجاح الصحفى.

ونحن هنا فى معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة نعنى عناية كبيرة بهذه الناحية . حتى لقد اتهمنا الكثيرون بأننا نهمل الجانب العملى الخالص أو الفنى الخالص من جوانب الصحافة .

وهذه التهمة الأخيرة وإن كان لها ظل خفيف من الحقيقة. فنحن نستطيع أن نستدرك بعض ما فاتنا ، ونسد النقص الذى شعر به الناصحون لنا . ولكن على ألا نغض من الثقافة ، أو نقلل من اهتمامنا بالجانب النظرى من الصحافة . فاعتقادى الذى لا أتحول عنه يوماً أن الثقافة هى الطريق الوحيد للنجاح فى هذه المهنة الشريفة والنهوض بها الى المستوى الذى نرضاه لمصر فى هذا العصر .

وإذا سمح لى أن أصطنع اللغة التى يتكلمها رجال الاقتصاد قلت إنى لا أعرف شيئاً يستهلك من الثقافة مثلما تستهلك الصحافة . فهى بحاجة شديدة إلى كثير من العلوم التى يهضمها الكاتب جيداً ، ويتمثلها فى ذهنه جيداً، ويقدمها شراباً سائغاً للقراء .

وإذا سمح لى مرة أخرى أن أصطنع اللغة التى يتكلمها رجال الأدب أو الصحافة قلت أنه يضحكنى كثيراً ما أسمعه أحياناً من بعض كبار الصحفيين فى بلادنا . إذ يقول أمثلهم طريقة : ما للصحافة والثقافة ؟ إن الصحفى بحاجة

الى شىء واحد فقط هو التدريب العملى أو الفنى فى الصحيفة . أما الثقافة العالية فهى له شىء كمالى لا ضرورى .

ذلك منطق الصحافة المصرية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وحجة الصحفيين فى ذلك أن الصحيفة الحديثة أصبحت تعنى بالخبر أكثر مما تعنى بالمقال !

ألا ما أشبه هذه الأقوال عندى بدعوى المحافظين فى بلادنا . إذ يقول أمثلهم طريقة : ما للفتاة المصرية والتعليم العالى ؟ إنها لا تصلح إلا للمنزل . والمنزل لا يتطلب منها غير أن تتعلم فن الطهى ونحوه من فنون البيت .

يريدون بهذا أن يحرموا الفتاة المصرية من نعمة التعليم الجامعى . وذلك من أجل الشؤون المنزلية التى تكفى لتعلمها أشهر قليلة . ليس من العدل ولا من العقل أن نضحى من أجلها بالسنوات الطوال تضيع هباء من عمر الفتاة المصرية فى غير التعليم !

إننى أضحك كثيراً من هذه الدعوى التى يواجهنا بها كبار الصحفيين فى أيامنا هذه . وإنى لعظيم الثقة فى أن المستقبل للثقافة العالية ، وأن الأجيال التى تتخرج فى الجامعة ستحمل العبء وحدها ، وتظهر كل كفاية فى عملها ؛ لأن التطور معها ، والزمن يخدمها ، ولأنها مزودة بهذا السلاح الذى لا يشك أحد فى مضائه وغنائه ، وهو سلاح العلم !

• • •

إن الكاتب الذى يؤرخ لأمته ، أو يفرغ من رسم الصورة التى عليها أمته تأخذه الغيرة على قومه ، ويملأ الطموح جوانب قلبه ، ويأمل فى أن تبلغ أمته مبلغ الأمم التى سبقتها فى مجال التقدم والرقى .

وإن الناظر فى سيرة الأبطال الذين حملوا عبء الصحافة منذ أوائل هذا القرن ليعجب من سعة الأفق الذى كان يسبح فيه كل واحد منهم ، وتنوع الثقافة التى زود بها نفسه قبل دخول هذا المضمار العظيم ؛ وهو

مضمار الصحافة. وما الصحافة فى نظر المؤرخ الغيور على بلاده إلا جامعة شعبية كبيرة يتعلم فيها الشعب على اختلاف طبقاته دروساً مفيدة تعينه على معرفة نفسه، وتساعده على تعرف حاجاته وغاياته فى كل فترة من فترات حياته وحياة الأمة التى ينتسب اليها .

وإذا كانت الجامعات بحاجة ماسة إلى الأساتذة المتخصصين فى كل مادة من المواد التى تدرسها ، فإن الصحافة الرشيدة فى الأمم الكبيرة بحاجة كذلك إلى المتخصصين فى كل جانب من جوانب الحياة التى تصور الصحف أحداثها، وترسم المثل الأعلى لها ، وتأخذ بيدها إلى بلوغ هذا المثل .

اللهم أهد صحافتنا الى الطريق السوى ، وهىء لأمتنا جيلا صالحا يقوى على اداء هذه الرسالة المهمة وأنت أعظم مسؤول وأكرم مجيب ؟

عبد اللطيف حمزة

النماذج

غرض الامة هو الاستقلال[1]

يجب حقيقة أن يظهر للمصريين خطة معينة واضحة تحدد آمال الأمة والوسائل المشروعة الممكنة المناسبة لتلك الآمال والأطماع. يجب أن تكون تلك الخطة واحدة لجميع المصريين، لأنها ترجمان المصلحة المصرية. ولو صح الخلاف بين الأحزاب فى بعض الجزئيات، لما جاز أن يكون هناك خلاف جوهرى فى آمال الأمة من الاستقلال.

غرضنا النهائى استقلال مصر. ومن المستحيل على الأمة أو على أى فرد من أفرادها أن ينازع فى ذلك. استقلال الأمة فى الحياة الاجتماعية كالخبز فى الحياة الفردية لاغنى عنه، لأنه لاوجود إلا به، وكل وجود غير الاستقلال مرض يجب التداوى منه. وضعف يجب إزالته، بل عار يجب نفيه.

إذا كان الاستقلال ممكناً طلبناه. وإن كان مستحيلا عالجناه؛ لأنه هو معنى الوجود القومى ومناط الأمل فى الحياة القومية. على أن استقلال أمة فى عددنا وفى ثروتنا وفى مركزنا الجغرافى، بعيد أن يكون مستحيلا. وأقرب شىء أن يكون متى طلبناه من بابه بالوسائل المنتجة. ومن الذل والضعف، بل من الانتحار القومى، أن نسكن أو نساعد على بقائنا إلى الأبد فى الحالة التى نعير بها صباح مساء.

دارت بينى وبين أوربى مناقشة فى السياسة، فإذا به يقول لى: ومتى كنتم مستقلين حتى تبغوا الاستقلال الآن وأظن أنى لم أكن لأختص وحدى بسماع هذا التعبير الجارح من كل الذين لهم مصلحة فى الاستعمار.

استقلال الأمة عن عداها أو حريتها السياسية حق لها بالفطرة، لا ينبغى لها أن تتسامح فيه، أو أن تنى فى العمل للحصول عليه. بل ليس لها حق التنازل

---

(١) الجريدة فى ٢ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٧

عنه لغيرها — لا بكله ولا بجزئه — لأن الحرية لا تقبل القسمة، ولا تقبل التنازل. فكل تنازل من الأمة عن حريتها كلها أو بعضها باطل بطلانا أصلياً لا تلحقه الصحة بأى حال من الأحوال . فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء السياسة ، إن قلت إنه يجب على الأمة أن توجه كل قواها بغير استثناء إلى الحصول على وجودها ، أى الحصول على الاستقلال . وإن من المستحيل على أمة تشعر بوجودها أن تتساهل فى استقلالها ، أو تبرد غيرتها عليه ، فى كل ظرف من الظروف المناسبة .

يجب أن يفهم غيرنا أيضاً أن كل أمة تطلب إلى مصر أن تبقى إلى الأبد مبعدة عن استقلالها إنما هى أمة تخدع نفسها ، لأن هذا المرام لا يرام إلا من لفيف من الناس ليس لهم ما للأمة المصرية من القومية العتيقة، والوطن المحدود، والنظامات الاجتماعية ، حين كان العالم لا يزال قليل العلم بمقتضيات النظامات الاجتماعية . أمة كأمتنا قد ولدت التمدن مرتين ، لا ينبغى للتمدن الحديث أن يطمع فى التوغل فى إذلالها وإبعادها عن أقل الأقدار لمطامع الأمم ؛ وهو الاستقلال .

من العيب العظيم أن تداجى الأمة فى أمر استقلالها، لأنه إن صح لأفراد الساسة أن يلعبوا على الألفاظ ليستروا المقاصد ، فإنه لا يصح بحال من الأحوال أن تكون الخدعة من خلق أمة من الأمم . الأمة شخص معنوى غاية فى الطهر ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يعمل إلا ما يريد .

لا يكفى أن يعتقد جماعة من الأمة بضرورة الاستقلال . بل يجب أن يكون الشعور بحب الاستقلال شعوراً عاما فى جميع أفراد الأمة من غير استثناء . يجب أن يكون الشعور بالاستقلال عند كل فرد هو بعينه الشعور بالوجود الذاتى .

بأى عنوان نحن نخدم طول العمر هذه الإنسانية ، عوضاً عن أن أقول بأى كتاب يجب علينا أن نظل طول العمر فى خدمة الغير ؟ لا نريد أن يخدمنا

الغير . ولكن كيف نريد أن نخدمه دائماً ؟ ولم لانخدم أنفسنا كما تخدم كل أمة نفسها لا . لا . تظلمنا وتظلم الإنسانية والوجود ، كل أمة تبغى منا أن تبقى عبيداً أو خداما طول الزمان.

أجل نحن نتمتع بحريتنا الشخصية . نتمتع بها فى كثير من الأحيان على أنها منحة لاحق ، ولكن نتمتع بها على كل حال . وتلك هى حجة كثيرين من الذين يقولون مم يشكو المصرى وهو يتمتع فى بلاده بالحرية التى يتمتع بها الانجليزى فى بلاده ، صدقتم ولكن كفيل الحرية الشخصية هو الحرية العامة . وما كان المصرى ليقنع من العيشة بالحياة الفردية ، كما يقنع بها كل حيوان حر فى الجبال ، بل المصرى هو أيضاً يريد أن يعيش عيشة القومية ، يريد أن يكسب حريته السياسية التى وهبها الله للمجموع من يوم كان مجموعاً قاطناً فى وطن معين ، قبل أن تحد تخوم الأوطان ، وما سرنا أن يكون الفرد منا حراً إذا كان مجموع أفرادنا ليس كذلك .

الاستقلال حق طبيعى للأمة . ولكنها إذا فقدته زمناً طويلا واعتادت كرها عادات جديدة ، وطبائع تناقض الاستقلال كان لابد لها إلى بلوغه من تربية خاصة ، وتعويض لما فقدته من الملكات والأخلاق فى أزمان الإكراه والاستبداد . ولاشك فى أن التمتع بالحقوق الطبيعية رهن بالقدرة على كسبها. وما القدرة على الاستقلال إلا نية صادقة ووسيلة منتجة .

فأما نية الاستقلال فهى فهمه والتشبث بمزاياه ، وتمثل هذا الفهم فى شعور الأمة تمثلا صحيحا شائعا، أى اعتقاد الأمة بضرورته ، وبأنه هو العيش،وهو الكساء ، وهو المبيت، وهو الوجود ، وبغيره لاوجود . ولابد لذلك من أن يربى فى الأمة معنى القومية المصرية .

إن أول معنى للقومية المصرية . هو تحديد الوطنية المصرية،والاحتفاظ بها، والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه، والانجليزى على قوميته ، لا أن تجعل

أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية . تلك الجامعة التي يوسع بعضهم معناها . فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم . أما لو كان معنى الجامعة قاصراً على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء ، فذلك حسن ومفهوم .بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا قاصرها على أحدالطرفين دون الآخر. أعني أن يكون أحدهما خادما دائما ، والثاني مخدوما دائما معك دنية يجب أن يأباها المصرى ذو الحفيظة . ولا يجيئها إلا مكرها، والمكروه لا حيلة فيه .

يعجبني في هذا المعنى أن أورد عبارة أحد الكتاب الانجليز . قال :

مهما كان اللوم على الأمة المتغلبة على غيرها ، فإنه لا يصح أن تنجو الأمة المغلوبة من اللوم . فإنه من السهل أن يدوس الإنسان بقدمه حشرة . لكن إذا كانت هذه الحشرة من العقارب ، يصعب دوسها بالقدم . وعندنا أن الأمة كائن طبيعي يستحيل مهما كانت ضعيفة أن تكون مجردة من آلات الدفاع عن نفسها ، لأن الله قد سلح جميع كائناته بسلاح الدفاع عن ذواتها . والأمة بصفتها إحدى هاته الكائنات الطبيعية لا يمكن أن تكون فاقدة السلاح . فلئن تركته أو أساءت استعماله فاللوم عليها بمقدار تقصيرها .

ولقد كتب على مصر أن ترتقي بالسلام وتستقل بالسلام ، فما أسلحة السلام إلا ذكاء في العقل والقلب يهدينا إلى معرفة مصريتنا وقصر عملنا على مصرنا وإنماء كفاءاتنا قبل كل شيء ، وتمييز بين الممكن في الواقع ، وبين الممكن في الخيال ، حتى لا تقع مرة ثانية في حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت ، إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا .ومرة أن الدولة العلية ستقوى ،وبحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانجليز من بلادنا ،ثم هي بعد ذلك تتركنا لأنفسنا في بلادنا أحراراً نتصرف فيها بما نشاء ! لابد لنا من ذلك . ومن عزة تربأ بنا عن أن نطلب من غيرنا أن يأتي ليحرر نفوسنا من الرق . وقلوبنا من عبادة القوى كأننا —

كما ظنوا خطأ بنا — نبغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . ويفيض الاستقلال علينا من جوانب البلاد بشرط أن لا نتعب أنفسنا فى أن نحرك ساكنا .

كان الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال .

أفنحن حقيقة ننشر عقيدة الاستقلال وتنمى حفيظة استقلال المصرى بيلادة ؛ يأخذها الصغار عن الكبار ، والأبناء عن الآباء حتى تصير مصر للمصريين ، أم نحن نصرف معظم همومنا فيما علينا كل غرمه ، وليس لنا شيء من غنمه؟ أم نحن نترك السنين تمر بنا من غير عمل كبير لمصلحتنا، فإذا تحركنا للعمل ولينا وجهنا غير مصر ، وصرفنا كل همنا فى إعانة من لا تنفعه إعانتنا له.

أكبر معلم للأمم هى الحوادث ومعظم غنم الأمم من الاستفادة من الحوادث. وإن العقيدة لا تأخذ من النفس مكانا غائراً ، إلا إذا جاءت لمناسبة حادث من الحوادث . تلك هى سنة الأمم . وقد كان لنا درس فى هذه الحركة الحاضرة ؛ حركة دخول فرنسا فى مراكش ، ووقوف ألمانيا لها موقف المطالب بالعوض الاستعمارى ؛ قائلة بأن انجلترا أخذت المقابل فى مصر ، فلابد لها من عوض استعمارى يخرجها من عار الرضى باعتبار أنها خافتة الصوت ، أو ضئيلة الأثر فى الاستفادة من المسائل الشرقية ، وتصريح الدول جمعاء لإيطاليا بمجاوزة المعاهدات الدولية، والإغارة على طرابلس؛ وهى جزء من الدولة العلية أو ملك لها . كل هذه الحوادث قد نبهت الرأى العام المصرى إلى قبول الحقائق السياسية تنبيها لو ألقى نصحاؤه عليه نظرة القومية المصرية وحفيظة الاستقلال، وأظهروا له أن الاعتماد على الموازنة الدولية والمعاهدات الدولية والتصريحات البرلمانية ، صار من (المودة) القديمة ؛ فلا ينفع مصر شيئاً كثيراً — إنما الذى ينفعها هو ألا تنى لحظة واحدة عن العمل لذاتها ، وعن إثبات شخصيتها وقوميتها وميلها إلى الاستقلال — لو فعلوا ذلك لأثرت

فيه[1] هذه النصيحة ألف مرة أكثر مما تؤثر النصيحة فى يوم هدوء وسكون.

غير أن الذى فات مات ، ولا ينفع الأسف على الوقت الذى ضاع إلا بمقدار ما يلفت الذهن إلى عدم الوقوع فى الخطأ مرة ثانية فى المستقبل. فبدل أن نطوح بشعور الأمة ونذهب به كل مذهب ، وبدل أن نكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها . بدل ذلك كله ، يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيدة الاستقلال .

لأننا نكرر أن الاستقلال متوقف على النية أو الاعتقاد بضرورته . ولو جاء الاستقلال من غير أن تكسبه الأمة راغبة فيه معتقدة حسن نتائجه لم يلبث أن يزول .

---

(١) الضمير هنا عائد على الرأى العام المصرى . على أن القارىء يلاحظ معى أن الجملة التى تبدأ من قوله (كل هذه الحوادث) إلى قوله (يوم هدوء وسكون) طالت فى يد الكاتب أكثر مما ينبغى . وكذلك الجملة التى سبقتها التى تبدىء من قوله (وقد كان لنا درس) الخ .

عبـــــــادة البسالة

الناس يعبدون الله تعالى من أول الخليقة : يرجون رحمته ويخافون عذابه. ولكن إحساس العبادة فى ذاته قد يرقى وينحط تبعا لمستوى الإدراك والتربية فى نفوس العابدين . قد يرقى الشعور بالحاجة إلى عبادة الله حتى يصير حباً وإخلاصاً وفناء لنفس العابد فى حب المعبود . وذلك من أرقى المقامات ، ولا يناله إلا من تجردت له نفسه عن الكونيات الفاسدة إلى التشبث بالمبادىء العالية ، كما كان عليه الخوارج فى بعض خروجهم على الملوك يبتغون رضى الله بتحقيق مبادىء العدل والإخاء والمساواة . فإن الواحد منهم كان يأتى إلى ساحة القتال يعقر حصانه ويكسر جفير سيفه ويحفر لرجليه فى التراب يدفنهما حتى لا يتمكن من الفرار ، ثم يقول بعد ذلك وهو يقاتل على هذه الحال : « وعجلت اليك ربِّ لترضى » . مثل حسى للفناء فى تحقيق ما أمر الله به أن يحقق من المبادىء النافعة لبنى آدم فى دينهم ودنياهم .ولقد ينحط شعور العبادة وينمسخ فيتحول عن طبيعته الأولى الشريفة إلى طبيعة غير لائقة بالعقل الإنسانى : ينحط حتى يجعل النفس مستعدة لعبادة كل عمل عظيم وللفناء فى كل كبير ، ولذكر الله أكبر لو كانوا يعلمون . تسحر العوام قدرة بطل من أبطال الحرب فتعنو له وجوههم ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها.إنهم بذلك يشركون بالله أربابا جدداً وهم لا يشعرون تأخذهم عزة ظالم من الظلمة فيكبرونه ويقدسونه ويعينونه على ماهو فيه . بل هم يتزلفون له، يرجون رحمته ، ويخافون عقابه . ذلك بأن الضعف قد ملك نفوسهم ، وأفسد الجهل عليهم نظرهم فى الأشياء ، حتى يصبح تقديرهم لها تقديراً فاسداً .

يرون الأعمال الكبيرة فلا يلحظون فى تقديرها أى معنى من المعانى .

لا يلحظون أسبابها ولا نتائجها كأنهم لا يرون منها إلا الجهة المادية .

تنجذب قلوبهم لأعمال الفتك والظلم ولو كانت واقعة عليهم بشرط أن يكون الفتك عظيما هائلا والظلم شنيعا كبيراً .

أضرب لذلك مع الأسف مثل مؤلفى الأغانى وملحنيها وضاربيها ومغنيها وسامعيها فى الحفلات العمومية فى عهد الفرنساويين فى مصر. فمن تلك الأغانى مقطوعات الإطراء على نابليون والتودد اليه والإعجاب به هو وجيشه ، وإظهار التلذذ الكاذب بفتك العساكر الفاتحة بالغزّ وبالعرب ومن تلك المقطوعات التى كان يغنيها « الآلاتية » المصريون فى الحفلات المصرية على أثر الفتح :

(١)
ما أحسنك يا فرط الرمان
لما تنادى بالأمان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان
يا سلام . ياسلام

(٢)
أوحشتنا يا جنىار
يا جميل يا راخى العذار
وسيفك فى مصر دار
على الغزّ وعلى العربان
يا سلام . يا سلام

(٣)
أوحشتنا يا جمهور
يا جميل يا راخى الشعور
من يوم جيت مصر فيها نور
زى قنديل من بللور
يا سلام . يا سلام

(٤)
ياجمهور عسكرك داير فرحان
فى قطع الغز والعربان
يا سلام بونابارته
يا سلام لك السلام
يا سلام . يا سلام

فانظر كيف أن عبادة البسالة أفسدت على العوام شعورهم الطبيعى ، أفسدت عليهم حب بلادهم ، أفسدت عليهم تقديرهم للحوادث الواقعة تحت نظرهم ، حتى سمحوا لأنفسهم أن يغنوا بمثل هذه المقطوعات . فنوا فى عبادة البسالة حتى نسوا أن الغزّ والعرب إخوانهم ، بل المدافعون عنهم وقتئذ ، وأخذوا يترنمون بذكر انهزامهم أمام الجيش الفاتح . رأوا عظمة القائد بونابرت ، وشجاعته ، وانتصاره عليهم ففنوا فى الإعجاب ببسالة الرجل وجيشه ، ونسوا أن الحامل لهذا الجيش على الفتح هو الطمع فى حق الغير ؛ وما كان الطمع فضيلة تستحق الثناء . وغفلوا عن أن عمله من أوله إلى آخره هضم لحق الضعيف واعتداء عليه . وما كان لأحد أن يمدح أحداً على الاعتداء على الغير . نسوا كل ذلك ونسوا أن المعتدى عليه فى ذلك هم المغنون والسامعون .

ذلكم طرفان للعبادة: الطرف العالى جداً هو مقام الفناء فى عبادة الله — مثله فناء الخوارج فى حب مذهبهم . والطرف السافل جداً الفناء فى عبادة البسالة ؛ ومثله أولئك الذين سحرتهم البسالة عن الالتفات للواجبات الوطنية بل إلى أنفسهم بل إلى ما هم فيه . !

لعبادة البسالة أمثلة كثيرة — قد تكون أقل سفالة من المثل المتقدم . ولكنها مع ذلك ليست أقل منه ظهوراً وتأثيراً فى إفساد أخلاق الأفراد والشعوب . من تلك الأمثلة حب الحكومة الأوتوقراطية والرضى ببقائها . لأن الحكومة الأوتوقراطية أساسها — كما يقول علماء السياسة — عبادة البسالة ، أى أخلاق الذل والضعف فى نفوس المحكومين . ومظاهر هذه الأخلاق الفاسدة كثيرة فى ظل تلك الحكومات . أبسطها الإسراف فى التعبير عن الحاكم بالسيد ، وعن المحكوم بالعبد . وقلما تجد شكاية يرفعها فرد من أفراد الأمة المحكومة بالحكومة الاستبدادية إلا مصدرة بألفاظ العبودية صريحة أومؤولة ، مختومة بألفاظ العبودية الصريحة . وبعيد أن يكون

استعمال هـذه الألفاظ من باب الأدب المجرد، أو على طريق المجاز؛ فإن ألفاظ العابد، والعبودية، إنما كانت تقال فى الحكومات الأوتوقراطية على طريق الحقيقة لا المجاز فيفهم منها الحاكم أنه معبود حقيقة ويفهم منها الفرد من الرعية أنه عابد حقيقة، وأن الرابطة بين الرعيـة والراعى هى العابدية والمعبودية. وليس هـذا المعنى غريباً عنا فى مصر فإنه كان شائعاً إلى عهد قريب. ومن المحتمل أن تكون آثاره موجودة إلى الآن على صورتها الأولى أو على أشكال أخرى لاتقل عن الشكل الأول فى إفادة الذل والضعة.

على ذلك ليس من الغريب أن ترى رجلا لا تسعد له حال، ولا يرتاح له ضمير، ولا يهنأ له عيش، إلا إذا غمره حاكم الجهة التى هو فيها بفضل من رضاه عنه؛ أو اختصاصه له؛ لا لتحقيق منفعة يبتغيها، ولا لتأييد مبدأ يسعى إلى تأييده، ولا لشىء أصلا إلا ليكون مرضياً عنه من الحاكم رضى مجرداً؛ شأن العبـد لا يرتاح باله إلا إذا قربه سيده عمن سواه من العبيد، واستخلصه لخدمته.

قد يحب البسالة الرجل الباسل كبير الهمم، يحبها فى نفسه وفى غيره. فمن المستحيل أن يكون الغرض من هذا المقال الحط من كرامة البسالة؛ أو الاستهانة بعظائم الأعمال متى كان أساسها ونتائجها مشروعة عظيمة كذلك. ولـكن الذى نحاول التنبيه عليه إنمـا هو تلك الرذيلة الشنعاء — رذيلة عبادة القوة والأقوياء — ومسخ شعور العبادة الشريف، وتحويله من الخضوع إلى الله المنفرد بالقدرة إلى الخضوع إلى الأشخاص، وإكبار القوة والوحشية.

من المفهوم أن التسليم للقوة عند العجز ضرب من العقل والصبر والتبصر فهو فضيلة فى أكثر الأحيان، ولـكن الرذيلة هى فى نسيان هـذه القيود، واعتبار القوة من جهة، والضعف من جهة أخرى حالة من الحالات الطبيعية الدائمة يصح أن تسكن لها النفس، وترضى بها طائعة. ثم تترقى فى هذا الرضى الاختيارى إلى حد الحب ثم العبادة. هـذا هو الذى لا يرضاه من يعرف

أن القوة كالضعف عرض زائل . فالقوى يستحيل أن يبقى قوياً إلى الأبد ؛ والضعيف يستحيل أن يبقى ضعيفاً إلى الأبد . فمن استضعف مرة لا يجوز له أن يتخذ الضعف شعاراً له لا يريد الخروج منه ، حتى مع إمكان الخروج بسهولة .

إن عبادة البسالة تعبير براق قد لا يلوح عليه لأول نظرة أنه أحط ما يكون من الصفات والأعمال . ولكنها ليست فى الحقيقة إلا مرادفا للجهل الممزوج بالذل ، أو الذل الممزوج بالخوف ، أو الخوف المصبوغ بصبغة الحب والطاعة . أى أنها رذيلة اجتماعية تفوق جميع الرذائل فى أنها ليست رذيلة بسيطة ؛ بل هى مركبة من جميع رذائل الذل والخوف والتملق والنفاق والكذب الخ ...

فكل رذيلة من هذه هى على الأقل صريحة ؛ ولكن عبادة البسالة بالمعنى الذى نعنيه ليس فيها شىء من الصراحة .

فحقيق بالإنسان أن يكرم بنى الإنسان ، ويعطى كل امرىء حقه. ولكن لا يصح أن يصل به سوء النظر أو الغفلة إلى حد أن يتخذ إلهاً مع الله .

الجامعة المصرية(1)

تتألف الجمعية المصرية من المصريين الأصليين ، ومن عناصر أخرى جديدة من الأجانب حلوا مصر على سبيل القرار ، وجعلوها موضع سعيهم ، فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم فى الحال والاستقبال .

فأصبحوا بذلك مصريين ، يرون من الواجب عليهم ألا يكونوا أقل غيرة على مصر من بنيها الأصليين . فيها أملاكهم ومنابع ثروتهم . ومقابر آبائهم أو أبنائهم ، ومتعلق رجائهم فى المستقبل . لا يسهل على أحدهم أن يتركها نهائيا من يوم إلى آخر ، بل لا يسهل عليه أن يعرف له وطنا حقيقيا غيرها . غير أن هؤلاء مع كل هذه الاعتبارات لا يزالون يظنون أن المصريين يعتبرونهم أجانب عنهم، ويكادون يتحللون بهذا الظن من كثير من الواجبات الوطنية التى يجب على المصريين احتمالها لسعادة بلادهم . وأن هذا الظن مهما كان سببه ضعيفا، ومهما كان فاسداً لا يستحق البقاء ، فإنه مع الأسف موجود ومنتج جميع النتائج التى تترتب عليه .

نحن المصريين لم نتلق دروس الحرية مختزلة ولا بعيدة عن كمالها بمراحل كما تلقتها الأمم الأخرى من قبلنا فى القرون الثلاثة الماضية ، بل نحن نتلقى مبادىء الحرية على آخر طراز لها ، وعن أكمل أساتذتها علما بها ، وهو القرن العشرون . لذلك نحن نبنى عملا لبلادنا على قاعدة المنفعة ، من غير أن يكون لمختلف المعتقدات والأجناس أثر كبير أو قليل فى السياسة المصرية العامة . وأن كل مصرى اعتاد أن يرى المستقبل بعينيه يود من صميم فؤاده لو أصبح كل من على أرض مصر من العثمانيين والأجانب أرباب الامتيازات مصريين متساوين فى الحقوق والواجبات ، يعملون لسعادة هذا الوطن أى

---

(1) الجريدة فى ٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٨٤

لسعادتهم أجمعين . ليس الوطن مقولا على أرض محدودة مجردة فى الذهن عن كتلة من السكان متجانسة متشابهة أفرادها فى كثير من المشخصات . ولكن الوطن مقول على الأرض المحدودة مقترنة فى الذهن وفى الخارج ، بكتلة السكان القائمين عليها على سبيل القرار ، المشتركين فى المنافع ، المتضامنين فى السراء والضراء ، الشاعرين بهذا التضامن .

وأن الذين جاءوا إلى مصر واستوطنوها غير سكانها الأصليين قد برهنوا على اختيارهم لها وطنا ، كما برهنوا على كفاءتهم للحياة العملية وذكائهم وقدرتهم على نفع هذه البلاد ، وبعيد عن الحكمة ألا نعمل نحن الأكثرية كل ما فى استطاعتنا للانتفاع بكفاءة هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أجانب ونضمهم إلينا ضما حقيقيا صريحا ، تزيد به نسبة الكفاءات المتنوعة فى مصر ، ويخرج به هؤلاء الأكفاء إلى الحركة السياسية والاجتماعية ، ليكون عليهم نصيب من الواجبات يعادل نصيبهم من الحقوق . إذا كانت الامتيازات الأجنبية تجعل الأوربيين المقيمين فى مصر يفضلون أن يبقوا أجانب مؤقتا على تحمل واجبات الوطنية المصرية ، حتى يظهر المستقبل قرار السياسة المبهمة التى تتخبط فيها الأحوال فى مصر ، فما الذى يمنع السوريون مثلا — ولا امتياز لهم — أن ينفضوا عن أنفسهم صفة الأجنبية ، فيدخلوا فى الحركة المصرية ، ويدخلوا فى الانتخابات ، ويدخلوا فى الأحزاب السياسية ليقوموا بخدمة وطنهم فى مصر خدمة عملية حقيقية ؟ وما الذى يمنع المصريين من دعوة بنى عمهم إلى ذلك ، وأن يقتلوا من نفوسهم هذا الظن الذى أشرت إليه ، والذى رأيت أثره كثيراً فى محاورة بعض السوريين الأكفاء الذين لم يكسبوا فقط الوطنية المصرية بالإقامة المحدودة قانونا ، بل لهم فى مصر آباء وأجداد ، وليس من له فى وطن أب كمن له آباء ؟

إنه لا يجوز للمصرى الذى يحب الخير العاجل لوطنه ، أو يستهين بقوة العناصر الأخرى التى تتألف منها جمعيتنا المصرية ، فإنها بالنسبة لعددها العام

وعدد المتعلمين منها وكفاءتهم الاجتماعية والاقتصادية ، تكون جزءاً مهماً جداً من الحركة المصرية ، إلا فى السياسة العملية مع الأسف . فإهمال الجامعة الصريحة بين المصرى الأصلى وبين أى عنصر يمكن كسبه من العناصر الأخرى خسارة كبيرة على هذا الوطن المشترك ، ومساعد على تأجيل التقدم المنشود .

وعندى أنه إذا ابتدىء من اليوم فى ادخال العناصر غير ذوات الامتياز فى الوحدة المصرية — وتلك العناصر هى وسط متناسب بين العادات المصرية والعادات الغربية — كان ذلك فألا حسناً لضم سكان مصر الأجانب أرباب الامتيازات إلى الوطنية المصرية عاجلا أو آجلا ، أعنى تأليف الجامعة المصرية المنشودة . وإنها لأكبر الضمانات للخروج من هذا المركز الخطر فى أقرب زمان ممكن .

على أنى لست أعرف من أولى الرأى من المصريين من ينكر على السوريين العمل لمصلحة وطنهم ، كما أنى لا أعرف من السوريين المصريين من لا يتقدم إلى تحقيق هذه الأمنية ، والأمر موقوف على خطوة من كل جانب من الفريقين .

الحـــــرية[1]

ومذاهب الحكم

تناوبت الأمة فى أزمان التاريخ حكومات مختلفة متنوعة المقاصد ، متباينة المظاهر والنتائج ، كان من اختلافها إيجاد المذاهب السياسية لكل حكم : فريق من الكتاب يؤيده ، وطائفة من الناس تنتصر له ، كل يتعصب لمذهبه، ويرى فى تحقيقه نفع الكافة .

أما نحن فإننا نرى من بين مذاهب الحكم أن المذهب الحقيق بالاتباع فى مصر فى الظروف التى نحن فيها ، هو مذهب الحرية ، وإن كان فى المدنية الحديثة أقدم عهداً من مذاهب الاشتراكية ، التى يختلف تطبيقها باختلاف البلاد .

لا ننكر أننا لا نعرف إلى الآن أمة استأثر بها مذهب واحد ، وسارت حكومتها على قواعده ، من غير أن تضيف اليه قواعد أخرى من مذهب آخر حتى لنرى الحكومة الواحدة توفق فى برنامجها بين قواعد مذهب الحرية وقواعد مذهب الاشتراكية ، كما تفعل الآن حكومة الأحرار فى انجلترا . وما يكون تلقيب الحكومة بلقب حكومة الحريين، أو حكومة الملكيين ، أو الاشتراكيين إلا تلقيباً بالتغليب .

وإن هذا النظر لتؤيده طبائع العمران ، ويؤيده العقل أيضاً . فقد يكون من التعسف سوق كل الجزئيات مساقا واحداً تحت قاعدة واحدة . بل علمنا الاستقراء فى الحوادث ، طبيعية كانت أم اجتماعية ، أن للاستثناء فى القواعد محلا من الوجود لا يصح الاستهانة به . حتى إن قاعدة النيابة فى البلاد الديموقراطية ، وهى قاعدة الأكثرية ، أخذت هى أيضاً تنقص من بعض أطرافها . فإن بعض الأمم الديموقراطية جعلت تدخل على هذه القاعدة استثناء جديداً ، هو تمثيل الأقليات بقدر المستطاع .

---

(١) الجريدة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ العدد ٢٠٥٨ .

نقول ذلك مقدمة للتصريح بأن قاعدة كل مذهب من مذاهب الحكم هى المنفعة . فكل مبدأ من المبادىء إنما يدور مع منفعة الأمة دور العلة مع المعلول .

ولو أننا حكّمنا المنفعة فى اختيار المذهب الذى نراه أولى بالاتباع فى تشريعنا المصرى لما ترددنا لحظة واحدة فى أن المذهب الذى تأمر المنفعة باتباعه هو «مذهب الحرية» .

مذهب الحرية أو مذهب (الحرّيين) يقضى فى أصله بألا يسمح للمجموع فى البلاد الحرة أو للحكومة فى بلاد كمصر أن تضحى حرية الأفراد ومنافعهم لحرية المجموع أو الحكومة فى التصرف فى الشؤون العامة . هذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بألا يكون للحكومة سلطان إلا على ماولتها الضرورة إياه . وهو ثلاث ولايات : ولاية البوليس ، وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن ؛ وفيما عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة.

الحكومة بأصل نظامها — مهما كان شكلها — ليس لوجودها علة إلا الضرورة . فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة ، ولا يتعدى إلى غيره من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم . لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها إنما تأخذه من حقوق الأفراد ، وكل سلطة تسندها إليها ، ضغط على حرية الأفراد .

ليس ما نقول من هذا القول،وما نقرر من هذا المذهب نظريات مجردة لادليل عليها إلا بالفروض المنطقية . كلا — إذ الحس قد أثبت بالأمثلة اليومية أن الحكومة فى كل أمة ماوليت عملا خارجاً عن دائرة الولايات الثلاث التى ذكرناها إلا أساءت فيه تصرفا وفشلت نتيجته . وعندنا فى مصر نصبت الحكومة نفسها مزارعا كبيراً ، فوضعت يدها على الأرض ، وتصدت لاستغلالها ، وجاءت لنا بالبذور والماشية وآلات الزراعة لتزرع على حسابها مرابعين . ففشلت فى مقصدها ، وساءت زراعتها ، ولم تأتها الأرض من أكلها شيئاً مذكوراً . فأدركت بعد ذلك خطأها الفاحش ، فتركت الزراعة

وتنازلت زمناً طويلا عن أن تنصب نفسها مزارعا . لأن الزراعة من عمل الأفراد ، ومن عمل المجاميع ، لا من عمـــل الحكومة . خذ مثلا آخر — مصلحة «الدومين» أو الأراضى الأميرية ؛ قدرْ ميزانيتها وإيرادها ومصاريفها تجد من غير عناء أن ريع الفدان فيها كان دائما أقل من ريع الفدان فى زراعة الأفراد والشركات الحرة ؛ مع أن مصلحة «الدومين» كان لها من الامتياز فى الرى والصرف ومراعاة الخاطر والخروج من مضايق لوائح المناوبات ما كان من شأنه أن يجعل حاصلات أرضها أوفر من حاصلات أرض الفلاحين .

كذلك الحكومة إذا اتجرت فى الملح بالذات ، أو فى غيره من أصناف التجارة لا تستطيع أن تكون تاجراً محمود العمل ، ولا محمود النتيجة . وهى إذا اشتغلت صانعا فأسوأ ما تكون صناعتها ، وأخس ما يكون كسبها منها . فإذا اشتغلت الحكومة معلماً بالذات فلن تعرف من نتيجة تعليمها إلا محاولة التسوية بين العقول ؛ وقد جعل الله بينها من الفروق أكثر مما نراه من الفروق بين الأجسام . ولم يقل أحد إلى الآن إن للحكومة اختصاصاً فى العلم . فإنا قد وجدنا العلماء الأحرار والمعلمين الأحرار يستنبطون كل يوم قاعدة جديدة فى العلوم المختلفة ، ويضيفون إلى الإنسانيـة مخترعا جديداً . وما عرفنا أن حكومة من الحكومات قررت قاعدة علميـة أضيفت إلى قواعد علم الحساب أو علم الفلك ، ولا زادت قاعدة على قواعد الأخلاق والسلوك فى الحياة . فإن لم تكن الحكومة عالمة ولا مربية ، ولم يك ذلك من اختصاصها فمن المعقول أن تكون مزاولتها للتعليم العام بالذات لا تسد أطماع الأمة من التعليم . ولكننا مع ذلك يجب علينا أن نعترف بأن للحكومة الحق الكامل فى مراقبة التعليم ؛ حتى لا يكون فيه ما يخل بالآداب العامة ، التى من حق البوليس أن يحافظ عليها .

هبْ أن الحكومة الاشتراكيـة ، أو الحكومة التى تتدخل فى غير الولايات الثلاث التى ذكرناها ، حكومة نافعة ، ومفيدة فى البلاد الديموقراطية

أى البلاد المحكومة بسلطة الأمة ، فهل تكون مداخلة الحكومة فى غير مالها من الحدود ، مفيدة فى مصر ؟

البداهة تشهد بأننا لا مصلحة لنا فى أن نأخذ حق الفرد لنعطيه للحكومة التى ليس لنا من أمرها نصيب ، وليس لنا عليها أى سلطان ! !

على أن كل ما نحن فيه من سوء الحال ، أخلاقية كانت أو اقتصادية أو سياسية ، إنما سببه الأصيل نقص الحرية فى نفوسنا نقصاً فاحشاً ، جرّه علينا الاستعباد القديم أو الاشتراكية المعكوسة ، التى كنا فيها الأزمان الطوال . لو كان لأى بلد حاجة من تسليم حقوق الفرد إلى المجموع ، أو تحكيم الحكومة فى غير الولايات التى ولتها إياها الضرورة ، فنحن المصريين أحوج ما نكون لتوسيع ميدان العمل لحرية الفرد ، حتى يسترجع ما فقد من الصفات الضرورية للرقى المدنى ، والمزاحمة فى معترك الحياة ، وحتى ننبذ نهائياً اتكالنا على الحكومة فى الشئون الجليلة والدقيقة ، ولنخرج من هذا الإحساس الذى كأنه عام فى الشرق ؛ إحساس أن الأمة رعيـــة والحاكم راع يتصرف فى رعيته على ما يشتهيه . إن هذا الإحساس الذى اتخذناه قاعدة لسياستنا ، بل طريقاً لسلوكنا فى حياتنا القومية ، هو الذى أبعدنا عن سرعة الأخذ بمبادىء التمدن الحديث ، وفرق كلمتنا ، وأثقل فى طريق المجد خطانا . إن هذا الإحساس من شأنه أن يقلل الاعتماد على النفس بل يودى بهـذه الفضيلة التى هى أساس النجاح فى أعمال الأفراد والأمم .

نوابنا المحترمين — أنتم أعلم بحاجة قومكم . وقد أنابتكم الأمة عنها فى تقرير مصالحها . فأنتم أحرار فى اختيار أصلح المذاهب التى تتخذونها القاعدة الغالبة فى تشريعكم . ولكن ذلك لا يمنع من إلفات [1] أنظاركم العالية ، إلى أن للتشريع دخلا لا يستهان بأثره فى أخلاق الأمة وعاداتهـا ومشاعرها فاذا

---

(١) صحتها : (لفت) أى بصيغة الفعل الثلاثى . (المؤلف)

كانت قاعدة التشريع هى حرية الأفراد انبعث ضوء هـذه الحرية فى قلوب الشعب ، وظهرت آثاره على أعماله . والحرية أساس المسؤوليـــة ،وطريق النجاح فى الحياة .

لئن تساءل بعضهم ما شأنى فى تقرير هذه الملاحظات ، ولست نائباً عن الشعب ، ولا عضواً فى الجمعية التشريعية ، فإنى منتحل جواب ذلك الكاتب الكبير الذى قال : « لو أنى شارع لما أضعت الوقت فى الكتابة ، ولكن استعضت عنها بالعمل » فليعمل كل منا ما يقدر عليه .

علينا تبيين الحق من الباطل ؛ ونوابنا لهم أن يستمعوا القول ويتبعوا أحسنه .

نوابنا المحترمين — نعلم أن الظروف التى فيها بلادنا وحكومتنا قد تقوم حاجزاً دون تحقيق رغباتكم الشريفة ، التى تسعى بكم إلى تحقيق ما يتمناه المخلصون لهذه الأمة الكريمة . ولكن تصويركم لمذهب الحرية ، أو لمذهب الحريين ، تصويراً بارزاً تراه عيون الشعب ، وتلمسه أيديه ، مفيد فى تربيتنا السياسية ، ذو أثر واضح فى مصالحنا القومية . إننا لا نجد تنافياً بين السير على نهج الحريين فى الدائرة الضيقة التى تحد اختصاص نوابنا فى الجمعية التشريعة ، وبين شكل حكومتنا الحاضر . وقد نظن أن حكومتنا لو أنصفت لكان كل ما يهمها حفظ الأمن واستقلال القضاء ، والرجوع إلى تأييد حرية الأفراد ، وحرية الفكر والكتابة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، وحرية العمل فى داخل منطقة القانون العام . لنا أن نطلب منها ذلك ، ولنا أن نطلب إليها أيضاً أن تكون شديدة قوية الشكيمة فيما وليت من الأعمال التى ولتها إياها الضرورة . فإننا لا نألم للشدة فى الحق والمصلحة ، ولكننا لا نقبل الاعتداء على حقوق الأفراد ، مهما كسى ثوباً من التسامح والرفق .

تم بحمد الله الجزء السادس من كتابنا أدب
المقالة الصحفية فى مصر . ويليه بإذن الله تعالى
الجزء السابع وموضوعه
(الصحافة المصرية بين حربين)

كلمة الشكر

لم يزل صديقي الأستاذ أحمد علي يتفضل عليَّ بالمشاركة في تصحيح تجارب الكتب التي أقدمها للطبعة . وهذ الأخير واحد منها .

ولم أزل مدينا لسيادته بالشكر والتقدير لما يبذل معي من جهد جهيد . منحه الله الصحة والعافية . وكافأه عن إخوانه أحسن المكافأة .

عبد اللطيف حمزة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥	١٨	كلتاهما	كلتيهما
٣٣	٥	سنه ١٨٧٢	سنة ١٨٨٢
٣٨	١٥	عبد النديم	عبد الله النديم
٥١	٢	توربيت	كوربيت
٦٠	٦ (هامش)	الحكم	التمام
٦٣	١٨ — ٢١ — ٢٣	حسين عاصم	حسن عاصم
٧٠	٤	عابه	فاته
٧١	٥	من قبل	من بعد
٩٠	٦	كالمعادن	كالمعاول
٩٤	١٠	فى الحديث	(تحذف)
١٠٠	٢٣	وفى حديث	كما يظهر ذلك فى حديث
١٠١	٢٠	ضرورية	ضرورة
١٠٢	٢٠	اختفائها	بعد اختفائها
١١٤	٩	خطر أول فى	خطر أول خاطر فى
١١٩	٤	ولكن هذه	ولكن هذه الأمراض
١٣٣	٢	توجده الا الصدفة	توجده الصدفة
١٥٣	٥	الفتجة	السفتجة
١٦٨	١٠	الاستقرار	الاستقراء
١٦٩	٦	رب يد	رب
١٦٩	١٢	شغله	عقله
١٧٠	٢٠	تسنح	تفسخ
١٨٢	١٢	يجد	يلد
١٨٤	٨	الترادف	الترابط
١٨٦	١٥	ولو لم يدل	وتدل
١٨٧	٨	التحيل	التحليل
١٨٧	١٠	قلما الاقتباس	قلما يجب الاقتباس
١٨٨	٨	التركيب المنطقى الشواهد والحج	الترتيب المنطقى للحوادث والحجج
١٩٠	٤ (هامش)	العملى	العلمى
	٥ (هامش)	مفقود	المقصود من
٢١٠	٧	المهمة الصلح	مهمه المصلح

مطبعة الاعتماد بمصر

الثمن ٤٠ ص